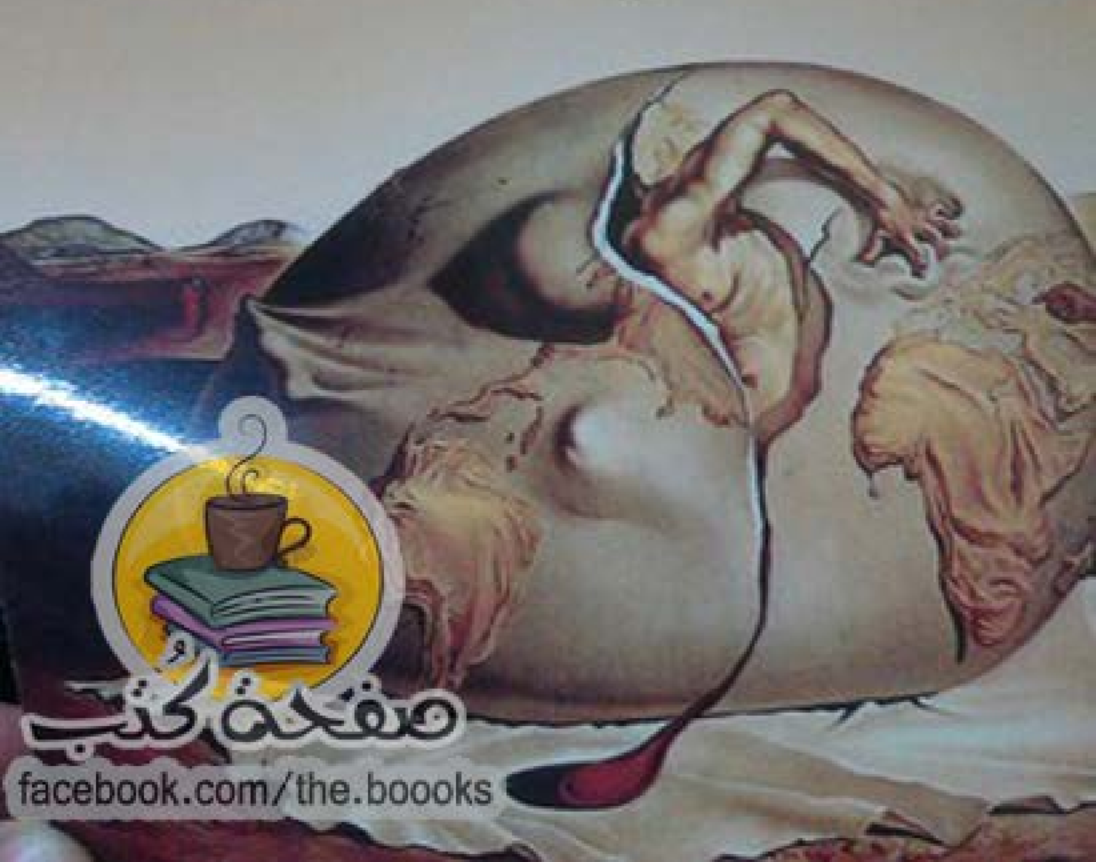
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سمير قسيمي

الحالم

رواية




صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks


الحالم



رواية

سمير قسيمي





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0517-1

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com




عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى

إسماعيل بوحادة..

مرة أخرى

وإذا كان الشخص البالغ يحلم بأن تظهر له الروايات،

فإنّ الطفل كان يحلم بأن يظهر له اللّه.."

خوان خوسي مياس

مقدّمة

من حقّ القارئ أن يعلم أنني في هذا العمل لم أكن إلا محررا لقصة وقعت بالفعل. وليس حظي منها إلا كحظ الراقن حين يرسم على الأوراق ما يُملى عليه. فأحداث الرواية حقيقية وكل شخوصها من الواقع ولا صدفة هناك ما تطابقت هذه مع الحقيقة.

وبحسب ما أتذكر، فقد بدأ كل شيء حين رنّ هاتفي ليلة الرابع والعشرين يناير من السنة التي شرعت فيها في كتابة هذه الرواية. وإذ أقول ذلك فأنا مدرك أنها بداية تشبه الكثير من البدايات في روايات قديرة نالت ما نالته من شهرة ورواج. ولا أعتقد أن بدايتي كانت لتكون مختلفة أو أقل قيمة إن بدأت بهاتف يرنّ وعلى الطرف الآخر شخص مجهول، تماما كما بدأت "زحل فوق وجه الماء" لبريستلي أو "مدينة الزجاج" لأوستر أو غيرهما من روايات لا تحضرني عناوينها. لكن الفارق بين هذه وبدايتي هو حظ الخيال منها. فكما قلت، بدأ كل شيء ليلتها حين رفعت الهاتف وخاطبني رجل على الطرف الآخر من الخط.

سأل المتكلّم عني وقدّم نفسه بشيء لم يكن يهمني لأحتفظ به في ذاكرتي. ثم ألحّ على لقائي لأمر عاجل. وكعادتي في مثل هذه المواقف أبديت سروري من مكالمته وحدّدت له موعدا لم أكن أنوي الوفاء به على أي نحو ولم أسع لتذكره لاحقا.

ما حدث بعدها أنني نسيت تلك المكالمة والموعد وصاحبه وانشغلت بما بدا لي حينها أهمّ. والحقيقة أنني قضيت الأسبوع الموالي في حيرة من أمري بسبب ضياع رواية كنت قد أنهيت كتابتها وشرعت في تصحيحها. فقد كنت من الغباء بحيث سجلتها على مكتب الحاسوب، وعطُب هذا لسبب ما. وحين حاولت استرجاعها لاحقا أدركت حينما استحال الأمر

أنني ضيّعت عملا من سبعين ألف كلمة أو يزيد. هكذا قضيت أسبوعا من الإحباط، رغم تظاهري بعدم التأثر.

ذات مساء وأنا أنتظر صديقي الروائي بشير مفتي حيث اعتدنا أن نلتقي بمقهى "الواحة" بميسونيي، عاودتني الرغبة في كتابة ما ضاع مني مجددا. لكنني هذه المرة شعرت بشيء يستعجلني لكتابتها بطريقة أخرى. وفي تلك الدقائق التي استغرقها الانتظار، نقشت الرواية في رأسي وكأنها قصة قرأتها منذ حين. ولولا المبالغة لقلت أنني شعرتُ بانعكاس كلماتها على مقلتيّ وكأنها في كتاب أتصفّح أوراقه. لذلك ما أن قضيت بعض الوقت مع بشير حتى استأذنته في الانصراف، وأخبرته برغبتي في كتابة الرواية في الحين وأنني من أجل ذلك سأجلس في إحدى مقاهي كلوزال وأبدأ في كتابتها، فلطالما عشقت الكتابة في المقاهي الشعبية بازدحامها وضجيجها ووسخها وعدم لباقة أصحابها.

وهكذا تم الأمر، وما أن جلست وطلبت فنجان قهوة حتى شرعت في الكتابة. وبقيت على هذه الحال أزيد من ثلاث ساعات، أنهيت فيها كتابة عشرين ورقة بخط يدي. وكنت لأكتب المزيد لو لم يستوقفني صوت رجل طعن تركيزي على حين غرة. سألني:

- أتكون سمير قسيمي الروائي؟

رفعت رأسي، فإذا به رجل في منتصف العمر يضع نظارات رؤية بإطار أسود.

حرّكت رأسي مبتسما، ثم مددت يدي لأصافحه. وإذ ذاك أضاف:

- كنت أخشى أن تكون قد نسيت موعدنا. تتذكرني بالطبع، تحدثنا على الهاتف منذ أسبوع.

أدهشني أن الصدفة جعلتني ألحق بموعد لم أكن لأتذكره لأيّ سبب. قلت مستغبيا نفسي: "بالطبع أنت..".

- الدكتور رزوق.. كمال رزوق..

وبمجرد أن جلس على نفس طاولتي حتى راح يحدثني عن مريض

يقوم بمعالجته يتسمّى بمثل اسمي. وكان قد بحث عني في النت إلى أن وجدني. أما رقم هاتفي فقد أعطته له صحفية سبق وأجرت حوارا معي. كان يتحدث بحماسة لم أشغل نفسي بها، فقد كان كل همي ساعتها كيف أجعله بلباقة ينصرف ويتركني مع أوراقي. والحقيقة أنني وطيلة الوقت الذي قضاه يتحدّث فيه معي، لم أكن أفعل شيئا غير تحريك رأسي والابتسام، وبذهني تتحرك جمل روايتي، تذرعه المرة تلوى الأخرى.

حين هم بالانصراف قال:

- كم ستستغرق في قراءتها؟

أجبت مذعورا:

- أقرأ ماذا؟

- هذه..

وسلّمني رزمة أوراق مرقونة بالحاسوب.

أضاف:

- لعلّك تفهم أهمية الأمر. أرجوك، فكما أخبرتك هي مسألة حياة أو موت.. كم ستستغرق في قراءتها؟

- شهرا أو أكثر.. لا أدري.

- حسنا.. سأهاتفك بعد شهرين.

ثم انصرف، راسما على وجهه ملامح امتنان.

ومع انصرافه عدت إلى أوراقي حتى كدت أنهي الفصل الأول من الرواية، والذي فرغت منه بالفعل وقتما بلغت منزلي. كل ذلك من دون أن أهتم بما في أوراق الدكتور رزوق. ولعلّي ما كنت لأهتم بها أبدا لو لم يحدث معي أمر جعلني أهرع لقراءتها لاحقا.

فبعد يومين من هذا، هاتفتني شقيقتي الكبرى لتزفّ إليّ خبر خطبة ابنتها البكر. وكانت هذه كابنتي تماما، ولطالما اعتبرت نفسي عرّابها لأسباب لا يليق التفصيل فيها هنا لأنها لا تهم هذا المقام. المهم دعتني لحفل الخطبة من أجل أن أكون وليّها.

حضرت الخطبة. وقدّمني زوج شقيقتي على أنني كاتب متحاشيا أن يذكر طبيعة مهنتي، فلطالما ظل هذا الأمر مبهما بالنسبة لأسرتي. والحق أقول، إن زوجتي هي الأخرى لا تعلم فيما أعمل بالضبط. ربما لأنني لم أعمل في حياتي في شيء محدد.

حين انتهت مراسيم الخطبة وهممنا بالانصراف، اقترح الخطيب أن يوصلني إلى منزلي حين علم أنني لا أملك سيارة. انتهزت الفرصة لأتعرّف عليه أكثر، فأخبرني أنه طبيب مختص في الأمراض العقلية، وأنه يعمل حاليا في مستشفى فرانس فانون. ثم شرع في الحديث عن الحالات النادرة التي صادفته طيلة مسيرته.

في الحقيقة كنت أنا من دفعه للحديث عن ذلك، فقد كنت أشتغل على رواية بطلها مجنون، لهذا تماديت في أسئلتي رغبة في معرفة المزيد عن الهوس الإبداعي. وللشهادة، فقد كان صهرنا الجديد موسوعة في هذا المجال. ولربما رغبة في التقرّب مني - وهذه هي حالة الأصهار الجدد - اقترح أن يعيرني نسخ بعض ملفات مرضى يحتفظ بها في منزله. وجدت عرضه لائقا وتواعدنا في اليوم الموالي، أين أحضرها لي.

كانت سبعة ملفات تضم الكثير من الوثائق. استغرقت ساعات لتوضيبها على نحو يسمح لي بالاستفادة منها. ولأن لا معرفة لي بأمور الطب، فقد استعنت بزوجتي - وهي طبيبة أخصائية في الطب الداخلي - لتقوم بتلخيصها بجمل يمكنني فهمها، بحيث جعلت لكلّ حالة بطاقة تقنية كتبت فيها اسم المريض، عمره، تشخيص المرض وعوارضه، الأدوية، وأخيرا ملاحظات الطبيب المكلف بمتابعته.

وخشية من أن تختلط الأمور عليّ، فقد أرجأت قراءة تلك الملفات إلى حين أنهي الجزء الأول من الرواية. وكنت أنوي أن تكون في ثلاثة أجزاء وخاتمة. ولكنني لم أحتج إليها في النهاية، وانتهيت من كتابة معظم الرواية من دون الاستعانة بها. ولم يعد يفصلني عن إتمامها إلا كتابة الخاتمة التي بنحو ما استعصت عليّ إلى درجة أن فكرت في الابتعاد عن نصي إلى حين

أن تتضح الرؤية بالنسبة لي. وكنت لأفعل ذلك لو لم يهاتفني الدكتور رزوق مـرة أخـرى ليحـدد موعدا معي مـن أجل أن أدلي له برأيـي في مخطوطته، وأعطيته موعدا بعد عشرة أيام مختلقا مشاغل لا تصلح أن تكون إلا لرجل أعمال. وكلّي أمل أن يكون ما أمهلتُني كافيا لأقرأ مخطوطته.

وعـوض أن أسـتعجل نفسـي فـي قراءتهـا، انشـغلت مجـددا بخاتمة روايتي. هذه المرة خطر لي أن أستعين بملفات صهري.

فتحت الملفات على البطاقات التقنية، فاسـتوقفني اسم "خباد رضا". وسبب توقفي عند هذا الاسم بالذات هو أنني كنت قد استعملت وبالصدفة نفس الاسم في تمييز إحدى شخصيات روايتي. لم يدهشني الأمر بقدر ما جعلنـي أتسـاءل عـن احتمال حـدوث مثل هذه الصدفة فـي واقع أيّ كاتب آخـر. ولكننـي لـم أعر الأمر بعدها أي بال، وما كنـت لأتذكّر حدوث ذلك لو لم يحدث لاحقا ما جعل تلك الصدفة سببا وجيها لأفقد إيماني الساذج بالصدف. فبعد أن انتهيت من قراءة ملف المريض، شرعت في دراسة تقرير الطبيـب ولحظـة مـا فرغـت منه بهتّ حين رأيـت أنه موقع باسـم "الدكتور رزوق". فـي تلـك اللحظة سـاورني شـعور غريب حملنـي حملا إلى حيث وضعت آخر مرة مخطوطة الدكتور. وما هي إلا وريقات قليلة حتى أدركت أنني أقرأ لنفسي. لم تكن المخطوطة التي أعطانيها الدكتور رزوق إلا الرواية التي كنت بصدد كتابتها.

لا أدري كـم بقيـت من الوقـت بعدها مذعورا من تطابق ما كتبتُ وما ادّعـى الدكتـور رزوق أنه كتاب ألّفـه أحد مرضاه. لم يكونا يختلفان إلا في أن روايتي موقعة باسمي والأخرى من غير توقيع. وكأن أحدهم قُذف سنة في المستقبل وعاد ومعه مخطوطة روايتي. أقول روايتي، لأنني أنا من كتبتها ولأنّ فيها من الأحداث ما وقع فعلا في حياتي بنحو ما.

أعتـرف أن مـا وقـع معي ليلتها أربكني إلى درجـة أن هاتفت الدكتور رزوق وقدّمت موعد لقائنا. ولا أدري لِمَ حين التقينا وسألني عن رأيي في مخطوطـة مريضـه تصنّعـت الغباء ورحـت أتحدث عنها كروايـة كتبها أحد

سواي. لم أجرؤ أن أسأله عن مريضه ولا عن ظروف كتابة تلك المخطوطة. واكتفيت بما حدّثني عنه سابقا.

الآن وأنا أذكر ذلك، يعاودني نفس الشعور الذي انتابني وأنا برفقة الدكتور. شعور يمتزج فيه الذنب والخوف والحيرة. أعترف الآن أنني خشيت إخباره أن رواية مريضه هي روايتي، لأنه ما كان ليصدقني، وأغلب الظن أنه سيتهمني بمحاولة سرقة عمل شخص آخر.

مهما يكن، قضيت أياما أحاول فيها إيجاد تفسير معقول لما حدث معي، وعبثا حاولت، فقد كنت في كل مرة أعود إلى نقطة الصفر، تلك التي تجعلني متأكدا من أمر واحد وواحد لا غير، هي أن هذه الرواية روايتي، مع أن هذا المريض كتبها قبلي.

بعد طول تلكّك وجدت طريقة وحيدة تعيد لي ثقتي في نفسي وتجعلني صادقا معها ومع قرّائي، حين أضع اسمي على غلاف روايتي، وهي أن أعيد كتابة بعض أحداثها بشكل مختلف عن ما جاء في مخطوطة المريض. لذلك شرعت في العمل على روايتي من جديد وكأنني أكتبها لأول مرة. وبعد أن انتهيت لم أجهد نفسي كثيرا لأجد خاتمة مناسبة لها. ثم أخبرت ناشري أنني انتهيت من رواية جديدة عنوانها "الحالم". وكنت مضطرا إلى هذا العنوان رغم علمي أنه عنوان رواية رائعة لكولن ويلسن، فقد حدث أن قررت سابقا أن يكون عنوانها "ثلاثون"، ولكنني غيّرته بسبب أن مخطوطة مريض الدكتور حملت هي الأخرى نفس العنوان!!.

بعد أسابيع من إرسال مخطوطتي إلى ناشري، وقبل أن أشرع في التدقيق النهائي لها قبل صدورها، خطر لي أن أتفقد صندوق بريدي بديدوش مراد، فقد مضت أشهر على آخر مرة تفقدته فيها. وكعادتي كلما كنت بالمكان، زرت محل كتب قديمة يملكه واحد من أقدم باعة الكتب في الجزائر. وكنا لسبب واضح نسميه "البيروكة". أعجبني فكرة تخليد هذا المكان في عمل روائي، ووجدت من اللائق أن أضيف حدثا أو حدثين في روايتي يبرران حديثي عن "البيروكة" ومحله. والحقيقة كنت أعلم بالضبط

أيـن يمكننـي حقـن روايتي بمثل ما خطر عليّ. ولا أدري كيف فعلت لأجد "سـيبر كافي" بالجوار، وأجّرت حاسـوبا وشـرعت في الكتابة. أحسب أنني قضيت ثلاث سـاعات في كتابة إضافاتي، وما أن انتهيت حتى أرسـلتها إلى ناشري، وقد أوضحت له أين عليه إضافتها.

فـي المسـاء وقبـل أن أعـود إلـى منزلـي عرجـت على مكتـب البريد وفتحت صندوق بريدي وحملت ما وجدته من رسائل معي، لم أكن أنوي قراءتها إلا ليلا.

غيّرت ثيابي وتعشـيت مع زوجتي وبعدها اسـتلقينا في صالة المعيشة نشاهد أي فيلم. وكان ابني "نور الدين" يلعب كعادته ويلهو بأي شيء يجده أمامه. وحين أعياه التعب حبا نحوها، فلقمته ثديها وهي تغني له حتى غطّ فـي النـوم. أعجبنـي منظرهمـا هكـذا، وتمنّيت في قرارة نفسـي، لو أمكنني إزعاج ناشري مرة أخرى لأضيف إلى روايتي مشهدا من هذا القبيل. ولكنني سـرعان ما تجاهلت الأمر ورحت أفتح رسـائلي. كانت في المجمل فواتير وطرود كتب ومجلات. إلا طردا واحدا، لم أتبيّن من ظاهره جهته المرسلة. ما أن أخرجت ما فيه حتى شعرت بارتجاف جميع أطرافي.

كان فـي الطـرد رسـالة ومظـروف ضخـم مكتـوب علـى ظهـره "الحالم – روايـة". فتحتـه وإذا بـه مخطوطة روايتي تماما كما كتبتها مؤخرا، بـكل الإضافات والتغييـرات التي أجريتها عليها، حتى تلك المتعلقة بمحل الكتب القديمة وصاحبه. والأغرب من كل هذا، أن الإضافة التي تجاهلتها والمتعلقة بمشهد زوجتي ترضع ابني كانت موجودة بها.

حينئـذ أدركـت حقيقة واحـدة لا غير. ولعلها تكـون الحقيقة الأجدر بالذكـر فـي كل هـذا الكتـاب، وهي أنني لـم أكن أنا من كتـب الرواية رغم أنها روايتي.

فتحت الرسالة وقرأت:

" عزيزي الدكتور غودمان

آمل أن تتذكرني رغم أن خمسة أعوام قد مرت منذ آخر لقاء لنا بسان

بيترسبورغ، وذلك بمناسبة عرضك لأولى نظرياتك في التوافق الزوجي، والذي أتذكر أنه كان عرضا متميزا جعلني أقف لدقائق أصفق لك كالمجنون لفرط إعجابي به رغم أنك كنت في تلك المرحلة تؤكد المرة تلو الأخرى بأن عرضك مجرد فرضية تعمل على إثباتها. ولعل وقوفي لك يومها ما جعلك تلاحظني وتدعوني بعد انتهاء المؤتمر إلى العشاء. تحدثنا مطوّلا إلى درجة أن فوت على نفسي الرحلة التي كان من المفروض أن أقوم بها إلى موسكو قبل عودتي إلى الجزائر. وتكفيرا على ذنبك كما قلت مازحا، دعوتني إلى البقاء في روسيا وحضور حفل زفاف إحدى زميلاتك بقرية، أحسب أنها تدعى "تفير" أو شيئا من هذا القبيل.

أذكر كل ذلك على أمل أن تتذكر من أكون، ولأنعش ذاكرتك أكثر فقد اخترت أن تدعوني "كامو" حين أخبرتك أن اسمي "كمال رزوق". وهكذا بقيت تدعوني طيلة تلك السفرية.

مهما يكن، هذه الرسالة ليست للاعتذار منك عن عدم ردّي على رسائلك السابقة، ولا حتى محاولة لبناء جسر ودّ بيننا، بل لغرض آخر أرغب قبل طرحه بين يديك أن تعرف تفاصيله على النحو الذي جعلني أفكّر في طلب مساعدة عالم نفساني بمثل شهرتك.

أتمنى أن تملك الوقت اللازم لقراءة الأوراق المرفقة بهذه الرسالة، وكلّي ثقة أنك ستفهم رسالتي هذه.

مودتي

الدكتور كمال رزوق"

ليلتها أدركت أن لقاء الدكتور رزوق لم يعد مسألة تقبل التأجيل. وما أن انبلج الصبح حتى هاتفته، ولكنني وجدت هاتفه مقفلا، فاتجهت صوبا إلى حيث قال لي أنه يعمل: مستشفى دريد حسين للأمراض العقلية والعصبية.

سألت موظف الاستقبال عنه، فأجابني بما لا يفيد الشك ألا وجود لطبيب أو لممرض بمثل هذا الاسم. وصفته له بكذا طريقة ولكنه استمر

مصرّا على جوابه الأول. وحين هممت بالانصراف خطر على بالي أن أسأله عن مريض في المستشفى يدّعي أنه كاتب ولعله يتسمّى بـ"سمير قسيمي"، فأكد لي أنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل ولم يعلم بمريض بمثل هذه المواصفات. وقبل أن يبتلعني اليأس سألته مجددا عن مريض اسمه "خباد رضا"، فابتسم لي بطيبة وقال: "تقصد الدكتور خباد.. نعم عندنا هنا طبيب بمثل هذا الاسم".. لحظتها شعرت برغبة عارمة في الصراخ.. "يا ألله في أية متاهة أنا!". لكنني وعلى عكس المتوقع أحجمت عن طلب مقابلة هذا الطبيب. وانصرفت من دون أن أعلم إن كان من الصواب أن أتوقف عند هذا الحدّ.

الآن وقد قلت كل هذا، فلا يسعني إلا أن أترك القارئ يقرأ هذه الرواية، وكلّي أمل أنه حين يفعل ذلك ويبلغ خاتمتها، سيعرف أن ما جرى معي لم يكن مجرّد خيال أو هلوسات كاتب على حافة الجنون. والأكيد أنه سيدرك بنحو لا يقبل الشكّ، سبب رفضي طمس حقيقة روايتي بتلك الجملة التي اعتاد أن يقرأها في مقدمة صفحات رواياتي السابقة: "إن كل تشابه بين أحداث وشخصيات هذه القصة مع الواقع مجرد صدفة".

س.ق

ذات يوم في مكان ما

الجزء الأول

كي ترى عالماً في حبّة رمل وجنّة في زهرة بريّة،

يكفيك أن تجمع في نفس الوقت اللانهاية والخلود

على راحة يدك.

وليام بليك

حوار غير ودّي
مع كاتب لا يعرفه أحد (1)

- 1 -

س: أشكر لك سيدي بأن قبلت دعوتنا لإجراء هذا الحوار رغم علمك أنه لن يكون حديثا ودّيا على الإطلاق.

ج: وما الذي يجعلكِ تتصورين أنه كذلك؟!.. أعتقد أن من حق القارئ أن يعرف الحقيقة وأن ما يروّج عني ليس بالضرورة حقيقيا، رغم أنني أشعر بأنك جئتِ إلى هنا تجرّين خلفك حكم إدانتي.

س: لن أتملّقك وأدّعي العكس، فأنت أوّل من أدان نفسه. ألم تصرّح منذ أسبوع أنك "سرقت" روايتك "ثلاثون" من روائي آخر ونسبتها إلى نفسك؟

ج: (يضحك).. الذي قلته بالحرف الواحد هو: "ثلاثون.. روايتي ولكنني لم أكتبها". ولست مسؤولا عمّا انجر عن تصريحي من استنتاجات.

س: وماذا يعني ذلك؟

ج: هذا ما رغبت في توضيحه في هذا الحوار.

س: تفضل. نملك كل الوقت لذلك.

ج: حسنًا. شريطة ألا تقاطعيني إلا حين أرغب في الصمت. إن فهم المسألة يحتاج إلى التركيز على التفاصيل حتى التافهة منها.

س: المهم أن ننتهي إلى حقيقة تصريحك الأخير. ولنبدأ إذا شئت من البداية.

ج: أية بداية تقصدين: بداية تأليفي للرواية أم بداية علاقتي بها؟

س: بل بداية علاقتك بهذه الرواية؟

ج: كل شـيء بدأ ذات مسـاء وأنا واقف أنتظر سـيارة تاكسـي بمحاذاة موقف الحافلات بساحة الشهداء، فالوقت الذي قضيته يومها لإيقاف سيارة أجـرة تقلّنـي إلـى "عيـن البنيان" جعلني أفكر في المـوت. ذلك أن صديقي كان قد هاتفني قبل ساعة ليخبرني أن أمه قد توفيت، وبالرغم من أنني عزيته على الهاتف لم يكن بوسـعي التملص من واجب تقديم العزاء له بنفسـي. ولو كنت أملك الخيار لاكتفيت بذلك.

وحيـن أقـول "فكـرت في الموت"، فهذا لا يعني أنني شـعرت بشـيء تجاهـه. كل مـا هنالـك أننـي حاولت إيجـاد ما يلزم من الكلمات المناسـبة لأقولهـا لصديقـي بمجرد أن ألقاه. ولا بأس حينها أن أقلّد من سـيحضرون المأتم، فأرسم على وجهي ما يليق في مثل هذه المواقف التي يفترض فيها أن تعبّر عن الحزن. بالطبع لن أتكلّف البكاء ولن أخوض في أحاديث مملة عن الأجل والقضاء والقدر، والتي يفترض فيمن يلوكها أنه مؤمن بحقّ.

بعد نصف سـاعة تمكنت من إيقاف سـيارة أجرة متهرئة. أعتقد بأنها كانت "بيجو 504" بيضاء، بأبواب صدئة لا تفتح إلا من الداخل. لم أهتم بشكل السائق الذي كان نحيلا يشبه مصابا بالسلّ فرّ لتوّه من الموت. ألقيت السـلام واصطنعت ابتسـامة تعبيرا عن امتناني لقبوله توصيلي إلى وجهتي، فلطالما كان الأمر على هذا النحو في الجزائر: لا توصلك سيارات الأجرة إلـى المـكان الـذي ترغـب فيه، بـل فقط إلى المـكان الذي يروق السـائق. ولهـذه القاعـدة اسـتثناءات بالطبع، ولكنني لم أكن لأتعب نفسـي بمناقشـة هذه "الاستثناءات" بأي شكل من الأشكال.

لم نقطع مئتي متر حتى سألني السائق من دون أن ألحظ على وجهه ما قد يفيد بأنه يسألني رغبة في معرفة الجواب: "أيمكن أن أشغِّل المذياع؟". حركت رأسي إيجابا وأنا أحاول العثور على مكانه في لوح القيادة. والحقيقة أنني فكرت في أن يكون مذياعه من نوع سيارته، من نوعه هو: "مسرف في القدم". تفاجأت حين اكتشفت بأنه مذياع رقمي، ورغبت في الضحك وأنا

أتصوّر رجلا بفم نتن وأسنان فاسدة تتوسطها سن مصنوعة من الذهب. ولكن بمجرد أن شغل مذياعه حتى طارت عني نية الضحك.

قلت له بصوت افترضتُ فيه بعض الحزم: "لا يصلح أن تشغّل "سي دي" قرآن في سيارة مخصصة للعمل..". وكأنه لم يسمعني، عدّل الصوت وتخيّر السورة رقم 7 بحسب ما ظهر على الشاشة الرقمية لمذياعه. قال وهو يعتدل في جلسته من غير أن ينظر نحوي: "هذه سورة يوسف بصوت الشيخ السديس. لن تصدّقني إذا أخبرتك أنني صلّيت خلفه منذ سنتين".

- ما لن أصدّقه أنك تجرَّأت وشغلت سي دي قرآن من دون أن تستأذنني.

- أستأذنك في الاستماع إلى القرآن؟!

وحرّك رأسه، مقطبا حاجبيه وتمتم: "سبحان الله". ولعله حين قال ذلك، حقن وجهه بكلّ ما حفظتْه ذاكرته من ملامح تعبرّ جميعها عن الاشمئزاز والتقزّز. فكّرت حينها أنني أخطأت لما تصورت أنه مريض سلٍّ فرّ لتوه من الموت، فما كان الموت ليجرأ أن يلقي عليه السلام.

مهما يكن، لم أشأ الخوض في جدال لن أحصد بعده إلا جفاف الريق. ومع ذلك فلم يكن من الممكن تجاهله بالكامل. لهذا حين بدأ يخوض في المحاسن التي تصيب الإنسان عند استماعه للقرآن، وذكر من بينها قدرة الترتيل على شفاء المجانين تملّكتني الرغبة في أن أقول له شيئا من هذا القبيل:

"ستحتاج لإقناعي بهذا لأحد الأمرين: إما أن ترشوني وتتغاضى عن أجرة التاكسي، وإما أن تهددني بالقتل. وما دمت مقتنعا بأن القتل بالنسبة لأمثالك أهون من خسارة بعض المال، فأفضل ما عليك فعله لإقناعي أن تعمد الآن إلى تهديدي بالقتل".

هذا ما رغبت في قوله فعلا، ولكنني لم أقله إلا في نفسي، فلطالما كانت الشجاعة أمرا مبهما بالنسبة إليّ. كل ما فعلته أنني حركت رأسي بما قد يفيد أنني موافق على ترّهاته. حتى إنني لم أشأ إخباره أن عملي كله مع

المجانين، فمنذ ستّ سنوات وأنا أعمل في مستشفى دريد حسين للأمراض العقلية والعصبية. وأحسب أن خبرتي تؤهّلني لأقول بأن لا شيء ينفع مع المجانين إلا مآزر الحماية والمهدئات القويّة، وبفضلهما فلا حاجة لأحد أن يخبرك كم هو ممتع الحديث معهم ومجالستهم في الفترات التي تحتاج إلى قتل الوقت.

هنا، لا بد أن أوضح مسألة عملي في ذلك المستشفى حتى لا تلتبس الأمور على أحد. فقد يفهم من كلامي أنني أخصائي أعصاب وأمراض عقلية. وإن كانت هذه وظيفة أسعى للحصول عليها بعد سنوات، فأنا لست في الوقت الراهن إلا ممرضا اضطرته الظروف إلى التوقف عن دراسة الطب. ولولا زوجتي "زهيّة" لما فكرت في العودة إلى مقاعد الجامعة أبدا، فهي ومنذ زواجنا تحاول دفعي إلى ملازمة كتب الطبّ التي ركنتها في مكان ما في شقتنا ذات الغرفتين، التي اضطررنا إلى إيجارها بسبب رغبتها في امتلاك غرفة إضافية تكون لها مكتبة، تكدّس فيها كتبها التي من كثرتها أصبحت أكثر أثاث شقتنا السابقة ذات الغرفة الواحدة والتي أقمنا فيه ثلاثة أعوام بعد زواجنا. فمن سوء حظي أن زوجتي مهووسة بالكتب، ومن حسن حظها أنني مهووس بها.

ومثلما لم أعارض السائق في مسألة "فوائد الترتيل الصحية والعقلية" لم أعارضه أيضا حين اختار طريقا أطول من العادة لإيصالي إلى وجهتي. وكان قبولي بدفع أجرة مضاعفة تحصيل حاصل. فكما قلت سابقا، لست من النوع الذي يهتم بمسألة تافهة كالشجاعة.

ما حصل بعدها أنني وبمجرد أن رأيت صديقي حتى تدافعت في رأسي كل الكلمات الحزينة التي يمكن التفوّه بها في مثل هذه المناسبة. وحين اكتشفتُ عدم قدرتي على إبداء ما يلزم من مظاهر الحزن، اكتفيت بالصمت وطأطأة رأسي معظم الوقت. ويعلم الله أية مشقة وجدت لأقع على حجة مقنعة لصديقي تجعلني أرحل بسرعة من دون حضور "عشاء الميت" المعدّ لتلك الليلة.

في طريق العودة فضلت ركوب الحافلة. والحقيقة أنني أجبرت على ذلك ما دام سائق التاكسي لم يبق في جيبي إلا بعض الفكة التي سلبتني حقي في اختيار وسيلة نقل مناسبة تقلني إلى شقتي. وكنت وقتها أفكر في أيسر السبل لإقناع زوجتي "زهية" بإقراضي بعض المال إلى حين ينتهي الشهر، بعد أن نفذ مصروف جيبي قبل موعده بعشرين يوما. كان التفكير في ذلك كفيلا ليجعلني أقتل ساعة من الوقت قضيتها في انتظار الحافلة، وربع ساعة أخرى من عمر الطريق إلى ساحة الشهداء حيث المحطة الأخيرة.

بعد كل هذا القدر من التفكير، خلصت إلى استحالة أن تقرضني زهية أي مبلغ، فلطالما شرحت لي وبنحو مفصّل وجارح أيضا، كيف عليّ تحمل مسؤولياتي كربّ أسرة لديه أولويات. وما عنته من هذا، أن عليّ تقديس العرف القائل بعيالة الرجل للمرأة ماديا، وقبول فكرة أنني وبمجرد الزواج منها أصبحت مجبرا على الإنفاق عليها رغم أنها أستاذة جامعية يفوق دخلها دخلي ثلاث مرات. وحين قلت لها بأن الزواج يعني مشاركة الزوجين لبعضهما في كل شيء، غمغمت وأدمعت وهي تخبرني بأنها تحبني، وكم هي مفجوعة من طريقة تفكيري ولن تقبل أبدا بأن تقف مشاكلنا المالية في طريق حبّنا. لذلك لن تناقشني في هذا الموضوع مرة أخرى، كي لا تضطر للتفكير في أن زواجي منها كان بسبب وضعها المالي المريح.

لهذا السبب فكرت في أن عليّ التوجه إلى بلكور بمجرد وصول الحافلة إلى محطتها الأخيرة. لن أحتاج إلا لأربعين دقيقة من المشي. وهناك يمكنني بيع هاتفي النقال إلى أحد معارفي. أعرف أنه لن يمنحني إلا ثلث قيمته الحقيقية، ولكن لا بأس، ما دمتُ سأقضي يومين في منأى عن التفكير في مصروف الجيب.

***

ضمان مقعد شاغر في في حافلة عمومية ممتلئة يتطلب بعض الحيلة.

عليكَ أوّلا أن تتخيّر مكان وقوفك بحيث تجعل نفسك في موقع يسمح لك بالتحرّك والمناورة بأقصى سرعة إذا حدث وشغر مقعد ما. الفكرة أنك حين تفعل هذا، لا تحاول أن تكون إنسانيا أكثر من اللازم، فلا داعي إلى تلك المجاملات التي لا غاية لها إلا إظهار تعلقك بمجتمع لن يتعلق بك مهما فعلت. أو تلك التي تجعلك في نظر الآخرين إنسانا طيّبا، خلوقا يحترم الجميع، كأن تمنح الفرصة لسواك في الجلوس محلك وإن كان شيخا أو عجوزا مسنّة أو كسيحا يحمله ذووه حملا. لأن هؤلاء وإن منحهم المنطق أولوية ما، فلا يجب أن تفكر ولو للحظة أنها أولوية تتعلق بك.

وكما اتفق، لم أستغرق لضمان مقعد إلا الوقت اللازم لبلوغ الحافلة أول محطة.

جلست متعمّدا عدم النظر إلى أحد. هكذا تفاديت نظرات التملّق التي قد تضطرني للإشفاق على أحدهم والتنازل له عن مقعدي. وبعد محطّة أو محطتين رفعت رأسي لأشغل نفسي بالوجوه إلى حين نصل إلى ساحة الشهداء. لم يكن ثمة من أحد يستحق بحلقتي إلا رجل كان يجلس في المقعد المقابل. أثار انتباهي لأنه كان يقرأ كتابا على غير عادة من اعتدت رؤيتهم في الحافلات. والحق أقول أن تصميم غلاف كتابه جعلني أرغب في سؤاله عنه. لكنني أحجمت عن ذلك واكتفيت بقراءة ما على الغلاف من كلمات: "هدى ياسر.. ثمة حفل في الداخل.. شعر.. طوى".

تذكّرت ساعتها واحدا من أحاديث زوجتي السخيفة. أعتقد أنه كان بمناسبة طلبي منها التخلّص من بعض كتبها التي ضاقت بها غرفة نومنا. كان هذا في أول سنة من زواجنا، حين حسبت أنني قادر وببعض الحيلة على جعلها تكف عن عادة اقتناء الكتب بغير مناسبة. وكانت الفكرة أن أقنعها بالتخلص من الكتب التي سبق لها أن قرأتها. وحين تفعل، لن يصبح الأمر صعبا عليها في التخلص من المزيد. بالطبع، لم أكن لأحاول جعلها تكف عن المطالعة، فعملها كما أخبرتني سابقا يضطرها إلى قراءة الكثير من الكتب، ولكنني أمِلت أن يأتي اليوم الذي تتوقف فيه نهائيا عن المطالعة

وتبذير المال على ما لا ينفع، وكنت أفكر في أنها ستفعل ذلك حين تكتشف مع الوقت بأن عملها قد يُنجز نفسَه بنفسه من غير جهد أو بجهد السنوات السابقة، ولا حاجة لها إلى المزيد من التكوين كما تظنّ. فعلى حدّ علمي كثير من أساتذة الجامعة يفعل ذلك، بدليل أن صديقي الذي عزّيته في أمه أستاذ جامعي، ولا أذكر أنني رأيته في حياتي يقرأ شيئا غير الصحف أو يدوّن كلمة إلا ما يدوّنه على شيكاته ليسحب أجره نهاية كل شهر.

المهمّ، بمجرد أن طرحت عليها الفكرة حتى أخذت تشرح لي أسباب استمتاعها بالمطالعة، ولماذا تفضل قراءة الرواية عن سواها. ثم بدأت في محاضرة طويلة عن جدوى الأدب والتي حين انتهت منها أيقنتُ ألا جدوى منه في النهاية. وخلال ثرثرتها أخذتْ تذكر أسماء كتّاب تعتبرهم أنصاف أنبياء، وعناوين كتب جعلتها تفهم الغاية من وجودها في هذا العالم. رغبتُ ساعتها في أن أقول لها كم أهدرت من الوقت والجهد والمال لتفهم أمرا كان بمقدوري شرحه لها بأيسر الطرق، ولعله كان نفس الأمر الذي جعلني أحبّها. والأكيد أنه نفسه ما يجعلني أحتمّل شحّها وثرثرتها وكتبها اللعينة.. كان من الممكن لو سألتني أن أجعلها تفهم ألا غاية لها في الحياة أسمى من تلك التي تكون لها في غرفة نومنا، حين تتوقف عن الثرثرة وتجبر نفسها على الإصغاء لتأوهاتها في حضرتي.. لكن المسكينة لم تسألني..

مهما يكن، لم يطل الأمر كثيرا لأفقد اهتمامي بالرجل وكتابه. رحت أنظر عبر زجاج الحافلة مستمتعا بمنظر البحر. عاودني الحنين إلى أيام مراهقتي حين كنت وبعض الأصدقاء نأتي إلى هنا كل يوم جمعة، نقضيه في الاصطياد. أعترف ألا علاقة لي بهذه الهواية، ولكنني كنت أجد متعة رهيبة في الجلوس أمام البحر على صخور شاطئ فرانكو، من دون أن أفعل شيئا غير البحلقة في الماء وتدخين السجائر، حتى الكلام لم أكن آبه به. وددت وأنا أتذكر سنوات مراهقتي أن أنزل في أول محطّة وأتخيّر لي مكانا بين الصخور. أتأمّل البحر وأفكّر فيما آلت إليه حياتي. في العقد الرابع وما زلت أحلم في أن تتحسن الأوضاع. متزوج من امرأة بقدر ما أحبّها بقدر ما أشعر

بأنها تزوّجتني حفاظا على المظاهر. لا أولاد لديّ ولا سكن باسمي. كل ما فعلته في حياتي أنني حصلت على وظيفة بأجر يضطرني إلى الاستدانة كل شهر. أما من أحبّ وصفهم بالأصدقاء، فمجرد أشخاص أقتل الوقت برفقتهم ليس إلا.

إلى هنا توقفت عن النظر غبر زجاج الحافلة، فقد خشيت من أن يأخذني التأمل في حياتي إلى ما لا أرغب فيه. وكان وجه الرجل ذي الكتاب أوّل من وقعت عيناي عليه بمجرد أن أشحت بصري. هذه المرة وجدته قد وضع كتابه فوق حجره مبتسما وعيناه ترصدان شيئا خلف ظهري. وحين رغبت في الالتفات صعقني دويّ انفجار، لأسقط على وجهي وقد فقدت الوعي، غير مدرك لما يحدث حولي.

حين استفقت وجدتُني في مستشفى "مايو" بذراعين في الجبس وبرأس يملؤها الصداع. كان ثمة شيء على عيني اليسرى يمنعني من الإبصار بها. عرفتُ لاحقا أن انفجارا وقع بمقدمة الحافلة أدّى إلى موت السائق وأحد الركاب وأن لا أحد سواي أصابه مثل الذي أصابني.

مكثتُ في المستشفى عشرة أيام وبعدها ركنت إلى الراحة إلى حين أشفى. أخبروني أن ذراعيّ ستشفيان بعد أشهر، ومثلهما أضلعي الأربع المهشمة. ولكن لا أمل لأبصر مرة أخرى بعيني اليسرى، فالشظية التي فقأتها أحدثت ضررا لا يمكن جبره.

خلال مكوثي في البيت لم يحدث شيء يستحق الذكر، غير إدماني انتظار عودة زوجتي من عملها لتطعمني وتنظفني كالعاجز. توسّلت إليها أن تأخذ عطلة من غير راتب لتمكث معي. رفضت بحجة أنها لن تحتمل رؤيتي على هذه الحال كل الوقت وأن الأفضل لكلينا أن تبقى الأمور كما هي. وباستثناء انتظار زوجتي، لم يكن لي من عمل إلا مشاهدة التلفاز والبحلقة في جدران غرفة النوم. أحيانا حين كان يتملّكني السأم أحاول قراءة بعض الكلمات من كتب زوجتي، فينغرز السأم فيّ أكثر، لأسأل نفسي بصدق "ما الذي تجده زوجتي في كومات الورق تلك؟!".

- 2 -

س: أمر مؤسف للغاية. لهذا ربما تضع نظارة سوداء في كل وقت.

ج: صحيح، ولنفس السبب قضيت سنتين لأفرغ من هذه الرواية، فلم أعد أستطيع بعد الحادث أن أجلس لمدة طويلة أمام الحاسوب.

س: ومع ذلك، لا أرى علاقة بين ما رويته وقضية اتهامك بالسرقة.

ج: هذا لأنّك سألتني عن بداية علاقتي بالرواية. لا أحسب أنك افترضتِ أن على البداية أن تكون أقل أهمية من سواها أو أقل طولا. لو تأمّلت الواقع بنحو أعمق لأدركت أن جميع العلاقات تستمر وقد تدوم استنادا إلى بداياتها فحسب، فغالبا حين تسوء علاقاتنا بالناس والأشياء نستحضر البدايات لنبرر ضرورة استمرارنا فيها.

س: طيّب، سأجاريك إلى حين. أخبرني إذن عمّا حدث بعد ذلك.

ج: لا شيء إلا مرور أشهر قضيتها سئما من كل شيء. وحين تحسّنت حالتي وبدأت أتماثل للشفاء عدت إلى عملي. لم يدهشني ألا أحد من زملاء العمل سأل عن صحتي، كما لم أندهش من قبل حين لم يعدني أحد من أصدقائي. حتى صديقي الذي عزّيته في أمه حين رأيته بعد أشهر تحجّج بأنه لم يسمع بما حدث لي إلا بعد تماثلي للشفاء. لطالما كان حظي في الأصدقاء هكذا.

بمجرد عودتي، أُخطرت بأنّ الإدارة قررت تحويلي إلى صيدلية المستشفى. وكنت قبلها أعمل في جناح المرضى الخطرين، حيث كنت المشرف على توزيع حصص الدواء التي كانت نفسها بالنسبة للجميع. لم ينقض شهر حتى طلبتُ تحويلي إلى وظيفة في الإدارة بسبب أن العمل في الصيدلية يحتاج إلى لياقة بدنية لم أكن أملكها. قُبل طلبي وشرعت في

العمل بسكرتارية المستشفى، حيث كان دوري يقتصر على معالجة ملفات المرضى والتأكد من احتوائها على جميع الوثائق والشهادات المطلوبة وتحرير تقارير أسبوعية عن ذلك.

بعد سنتين رقيت إلى رئيس مصلحة. كان الأمر منتظرا بسبب إعاقتي التي منحتني الأولوية وأيضا لأنني كنت الرجل المنشود في مثل منصبي. أعني أن الإدارة احتاجت إلى رجل لا يأبه بمشاعر من حوله من مرضى وموظفين. فبصفتي رئيس مصلحة، كنت أملك الحق المطلق في قبول أو رفض ملفات المرضى الجدد. ومع محدوديّة قدرة استيعاب المستشفى، لم يكن للإدارة من حلّ إلا ترقية من كان مثلي ليمنع عنها الحرج. لا يعني هذا أنني كنت متعسفا أو شيئا من هذا القبيل، بل مجرد موظف شطب الرحمة من قاموسه.

ولو أن الأمر استمر على هذا الوضع، لما تجرّأت على التذمّر مما آلت إليه أحوالي. فمع ترقيتي تحسّن وضعي المالي ولم أعد آبه بأمر زوجتي البخيلة وكتبها التي استمرت في التدفق على شقتنا. والأمر الأكيد، أنني لسنتين كاملتين لم أضطر ولا مرة واحدة إلى التفكير في الاقتراض من زوجتي أو في بيع أي شيء من أشيائي. ولولا أن هاتف مكتبي رنّ ذات مساء قبيل انتهاء دوامي بربع ساعة، لما تغير شيء من تلك الحياة التي وصفتها، ولكنتُ في الغالب قد انشغلت بأمور غير تلك التي جعلتني نهايتها أقرّر أن أدوّن ما حدث لي بالتفصيل، حتى تشكّلت في ذهني روايتي الأولى والأخيرة أيضا، فيقيني أنني لن أصدر بعدها رواية أخرى مهما حاولت لاحقا لأكتب شيئا غير ما كتبته بالفعل.

– عزيزي، قد أطلب منك البقاء في مكتبك لساعتين إضافيتين.

قال مديري على الطرف الآخر من الخط. ولئن بدا لطيفا في حديثه معي، فقد كنت أعرَفَ الناس بخسّته وجبروته. ومع ذلك تصنّعت بعض الطيبة بدوري وأخبرته بأنني دوما تحت أوامره. لم أضف شيئا ولم أسأله عن سبب رغبته في بقائي في المكتب لساعتين إضافيتين.

أضاف حين يئس من سؤالي:

- ستصل سيارة إسعاف تحمل متشرّدا يفترض أنه مصاب بالهذيان. حضّر ما يجب من وثائق ليتم قبوله، وحاول التنسيق في ذلك مع الدكتور رزّوق، فقد كلّمته ليحضر وقتما يصل المريض.

ومن دون أن يسترسل في الشرح قطع الخط.

في الحقيقة لم أكن محتاجا إلى شرحٍ أكثر، فباحتساب ذلك اليوم، مرّت خمسة أيام من الطقس الرديء: قطعت الطرقات وأغلقت الأسواق ولم يعد ثمة من يخرج إلى الشارع إلا المضطر. حتى إن الإدارة بسبب غياب الكثير من العمال أعادت النظر في ساعات الدوام ليصبح أطول من العادة. وإن لم أكن معنيا بالدوام الإضافي بسبب وضعي كصاحب عاهة، إلا أنني ما كنت لأتجاهل طلب المدير، لعلمي أنني سأكون الملام في النهاية إذا لم يتم قبول المريض الجديد، ذلك أنه منذ يومين وصلتنا تعليمات فوقية تؤكد على ضرورة تكفل كل المشافي بجميع المرضى الجدد لاسيما المشردين، وأن كل مخالفة لذلك ترتب ما يجب من عقوبات.

أعطيت الأوامر لأعوان الأمن لاقتياد المريض بمجرد وصوله إلى القاعة رقم 12 حيث يفترض أن يكشف عليه الدكتور رزوق. وما أن يعد تقريره الطبي عنه حتى يحول إليّ لأؤشر عليه بالقبول. فقد كان المدير واضحا في هذا الشأن. وما أن تأكدت من تنفيذ أوامري حتى انصرفت بعد أن أعلمت الدكتور رزوق شفاهة أن أمر اختيار جناح المريض مناط به ولوحده.

في اليوم الموالي. علمت أن الدكتور رزوق لم يسلم بالأمس تقريره عن المريض. وحين طالبته به، أكّد لي أنه اختار عدم التسرّع في تشخيص مرضه واكتفى بإعطائه بعض المهدئات إلى حين التعرف على هويته ومن ثم تاريخه المرضي. لم أناقشه لمعرفتي السابقة بأنه من النوع النادر في أطباء المستشفى.. لقد كان طبيبا يملك ضميرا حيّا.

كان الإجراء المناسب في هذه الحالة الاتصال بالشرطة لرفع أية مسؤولية عن المستشفى ولمعرفة هوية المريض بعدما ثبت أنه لم يكن يحمل أية وثائق. وما هي إلا نصف ساعة حتى أرسلوا شرطيا أخذ بصمات

المريض وانصرف. وبعد ساعتين من انصرافه كلّمت محافظة الشرطة لأخذ معلومات المريض. أجابوني أن ما هم متأكدين منه أن مريضنا ليس شخصا مبحوثا عنه. أما عن هويّته الحقيقية فقد يحتاج أمر معرفتها إلى أيام لمطابقة بصماته مع ما هو موجود على قاعدة البيانات الوطنية.

أخبرتُ الطبيب بذلك لكنه لم يأبه ورفض وصف أي دواء للمريض. قال بالحرف الواحد إنه لن يتحمل أية مسؤولية إلا إذا عرف تاريخه المرضي ليشخص مرضه ومن ثم إعطاءه ما يجب من دواء. ولكنه بعد تفكير قبل أن يوصي بإدخاله جناح المرضى الخطرين بسبب سلوكه العنيف. ومع ذلك أصرّ على أن أجد طريقة ما لمعرفة هويته.

أعترف أنها كانت ورطة حقيقية، لكنّني حين تذكرت أحد معارفي في جهاز الشرطة تنفّست الصعداء. هاتفته وشرحت له الموقف، فطلب مني أن أحمل إليه بصمات المريض وآخذ له صورة إن أمكن.

هكذا نزلت إلى جناح المرضى الخطرين، أين طلبت من الدكتور رزوق موافاتي.

رافقني ممرضان، فقد كانت التدابير الأمنية المتخذة في المستشفى تنص على حظر أية معاينة في هذا الجناح إلا بحضور ممرضين على الأقل. وجدنا الدكتور رزوق في انتظارنا. قال لي قبل أن نلج غرفته:

- في الغالب سنجده نائما، فقد أعطيته حقنة مهدئة منذ نصف ساعة.

وبالفعل فقد كان مستلقيا على جنبه الأيمن، ضاما إليه ذراعيه ومنكّس الرأس.

أمرت الممرضين بأخذ بصماته ففعلا. ثم رفعا رأسه لآخذ له صورة. وحين فعلا وجدتني أتراجع إلى الخلف وليس على لساني إلا: "آه.. أهذا هو أنت؟!". ولا أدري كم مرة رددت هذه الجملة أو كم صرخت بها، غير مصدق لما أرى.

- 3 -

س: ومن رأيت؟

ج: لـن تصدّقـي.. لقـد كان الرجـل صاحب الكتاب الـذي قابلته في الحافلة.

س: الرجل الذي كان يطالع كتاب شعر؟!

ج: هو بالذات.. الرجل الذي كان سعيدا بالموت.

س: سعيدا بالموت؟!

ج: كلّمـا تمثلـتُ مـا حـدث يومها أخلص إلـى نفس النتيجـة. كانت نظراته كما أتذكر في لحظة الانفجار تشع سعادة.. صدّقيني، فما زلت كلّما تذكرت ذلك أشعر بوقوف زغب ذراعيّ.

س: وهل أخبرت الطبيب بذلك؟.

ج: بالطبع ولكنه اعتبر ما حدث مجرد صدفة.

س: وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟!. لا بدّ وأنها مجرد صدفة..

ج: هذا ما أقنعتُ به نفسي ساعتها، لو لم أكتشف لاحقا أن ما حدث لـم يكـن إلا حلقـة واحدة من سلسـلة حـوادث اختارتها المشـيئة لتجعلني شاهدا على الحدث الأعظم.

س: أي حدث؟!

ج: اكتشافي لهوية هذا الشخص.

س: ومن يكون في النهاية؟

ج: اعتقدتُ أن الأمر أصبح واضحا بعد صدور روايتي. أنا لم أنشرها إلا من أجله.

س: لـم أعـد أفهـم.. أية علاقة يمكن أن تربط بيـن روايتك وبين هذا

المتشرد المجنون؟

ج: لقد كان كاتبها.. ألم تفهمي بعد؟!

س: أخيرا فأنت تعترف: "ثلاثون" ليست روايتك بل هي رواية هذا الشخص.

ج: أووه.. لقد أخبرتك منذ البداية أنها لي ولكنني لم أكتبها.

س: أي منطق هذا؟!..

ج: هو نفس السؤال الذي طرحتُه على الطبيب حين أخبرني أن المريض يسمي نفس "ريماس". قلت له كيف يمكن أن يحمل مثل هذا الاسم وسحنته سحنة جزائري. وحين قال لي أن الأمر محتمل، سألته بدوري: "أي منطق هذا؟".

س: تقول أن اسمه ريماس؟

ج: بلى.

س: يعني كبطل روايتك.. الآن فهمت. حين منحت اسم هذا الشخص لبطلك، أصبحت ترى أن هذا المجنون هو كاتب الرواية وأنت صاحبها.. الآن أصبح الأمر منطقيا.

ج: (يضحك).. وأنا أتحدّث معك، أشعر وكأنني أقبّل في امرأة باردة!.. ولكن دعيني أكمل حتى تتضح لك الصورة بعدها لن تحتاجي إلى الحديث عن المنطقي واللامنطقي، فالأمور لا يمكن أن توزن بهذا النحو. لأنها لو كانت كذلك، لبات من المنطقي بعد أن حملت بصمات وصورة "ريماس" – لا مانع أن أسميه كذلك الآن – إلى صديقي أن يعثر عليه في قاعدة البيانات الوطنية. قال لي أنه يرجّح أن يكون أجنبيا، فلو كان جزائريا لعثر على هويّته.

كان تبرير صديقي غير معقول على الإطلاق، فسحنة الرجل ولسانه لم تكونا لتسمحا بالجزم على أنه غير جزائري. ولكن لم أكن أملك الوقت لمجادلته أو التفكير في حقيقة الرجل. لهذا عدت إلى المستشفى لأشرح الموقف للدكتور رزوق وبعدها أتخذ ما يلزم من تدابير إذا أصرّ كالعادة

على رفض وصف الدواء له.

هذه المرة بمجرّد أن أخبرت الطبيب بما انتهى إليه التحقيق عن هوية المريض، تخلّى عن موقفه وقبِل أن يصف له ما يراه مناسبا إذا ما سلّمته ورقة رسمية ممضاة من طرفي أو من قِبل المدير تؤكد عدم اطلاعه على أية وثيقة بخصوص تاريخه المرضي. وحين سألته عن رأيه فيما يخص جنسية المريض أجابني ببرودة: "لا يهم.. للجميع نفس تركيبة المخ".

وكان قد مضى وقت عن هذا حين التقيت الدكتور رزوق في كافيتيريا المستشفى. وخضنا في حديث طويل حول سياسة الصحّة في البلد وما أصبح يعانيه الجميع بسببها. ولا أدري كيف انسقت للسؤال عن مريضنا المتشرد وأحوال علاجه.

- يبدو أنه بدأ يتحسن حين منعتُ عنه الدواء.
- أيعقل؟!
- أعترف أنني لم أشخص في البداية مرضه بنحو صحيح. لكنها أمور تحدث خاصة إذا استحال معرفة التاريخ المرضي للمعني. لكنني الآن واثق من أن أعراض الهذيان التي اعتقدت أنه يعاني منها، لم تكن إلا أعراضا تخفي نوعا خاصا من الهوس الإبداعي.
- أيمكن أن تشرح لي الأمر أكثر؟
- تتذكّر بالطبع كم كان عنيفا عند بداية علاجه. اعتقدتُ في البداية أن لعنفه علاقة بمرضه لهذا اعتبرته مصابا بالهذيان. ولكنني بعدما بدأت معه بعض جلسات العلاج فهمت بأن عنفه يظهر في كل مرة يحتاج إلى كتابة شيء ما ويمتنع الممرضون عن إعطائه أقلاما وأوراقا خشية أن يؤذي نفسه بها. لهذا فكرت في منحه حاسوبا آمنا.. تعرف من النوع الذي هيكله شبه بلاستيكي. وما أن فعلت حتى شرع في الكتابة. لن تتصور أبدا كم أصبح يقضي من الوقت مع حاسوبه. المهم، منذ بدأ في الكتابة حتى توقفت نوبات عنفه والأهم من كل ذلك أنه استغنى عن كل أنواع المهدئات. لهذا أمرت بأن ينقل إلى جناح آخر.

وقبل أن أسأله عن طبيعة ما يكتب، أخبرني الدكتور رزوق بأن مريضه يكتـب بالعربيـة نصوصا يحتاج إلى أحد يفهم هـذه اللغة ليُعلمه بمحتواها. هكذا سيحدد ما ستكون الخطوة الثانية في علاجه. ثم سألني إن كنت مهتما بأن أحضر إلى مكتبه مساء ليسلمني بعض ما كتب. كل ما أكّده لي أنه يكتب عن نفسـه، ما دام الرجل الذي يتحدث عنه في كتابه يحمل اسـم "ريماس إيمي ساك"، وهو الاسم الذي اختاره المريض لنفسه.

بعـد انتهـاء دوامـي، توجهت إلـى مكتبه حيث سـلمني مخطوطة من سـبعين صفحة، كتب على أولى صفحاتها "مسـائل عالقة". من الغريب أن تلك كانت أول شيء أقرؤه منذ سنوات، ولكن الأغرب أنني ولأول مرة في حياتي أقرأ كتابا كاملا على نفَسٍ واحد..

مسائل عالقة

الفصل الأول

فكـر "ريمـاس إيمـي سـاك" وهو جالـس على مكتبه الخشـبي في أن يحاول هذا اليوم فعل شيء لم يفعله من قبل. فاليوم هو الفاتح من نوفمبر، وهو يوم وإن بدا شاحبا بسبب الجو الثقيل خارجا، يستحق أن يبتكر لأجله طقوسا جديدة غير تلك التي اعتاد عليها طيلة أربع وثلاثين سنة من الوجود. لنكـن أكثـر وضوحا ونقول إنه يوم ذكرى ميـلاده الأربعة والثلاثين، والذي لم يكن بالمناسبة اليوم الذي خرج فيه من رحم أمه، بل الذي انتهى فيه من كتابة أولى رواياته.

لسـبب ما، لم يخض مع نفسـه في أكثر من أمرين يمكنه فعلهما هذا اليـوم، أولا يريـح حاسـوبه ويتوقـف عن محاولـة الكتابة، ولعله بالمناسـبة سـيحاول ألا يشـغل بالـه فـي البحث عـن موضوع رواية جديـدة. أما الأمر الثانـي الـذي فكـر فيه، فهو أن يخرج من مكتبه اللعين ويرى عالما آخر غير عالـم الكتابـة. كخطـوة أولـى، يمكنه مثـلا أن يتخطى عتبة غرفـة المكتب، ويـرى كيـف هـي حالـة بقيـة غرف الشـقة. ولا بـأس بعدهـا أن يتوقف في المطبخ ويأكل أي شـيء غير لفافات السـجائر ويشـرب أيّ سـائل لا يشـبه القهوة في اللون والمذاق.

ومع أنهما كانا أمرين غاية في البساطة، إلا أن ريماس عوض أن يشرع فـي تنفيذهمـا، أخـذ يحدّق في مرآة يـد صغيرة كانت لحظتهـا على مكتبه، وهو أمر أدمنه منذ أزيد من أربع سنوات، تماما بعد صدور روايته الثلاثين. كانت هذه آخر أعماله ومنذ انتهائه منها لم يسـتطع أن يكتب سـطرا واحدا يحمل أي معنى.

فبعد أن اصدر تلك الرواية، حدث معه أمر فظيع اضطره لينشغل عن الكتابة وقتا، ثم انشغلت هذه عنه أربعة أعوام كاملة. في تلك السنة توفيت

زوجته وهجرته ابنته صديقته الوحيدة. وهو من وقتها يعيش لوحده في شقة لـم يعـد يعـرف منها إلا غرفة مكتبه المطلة علـى زقاق من غير منفذ، ينتهي بمقهى اسـمها "ثلاثون"، طالما كانت مقهاه المفضلة طيلة ثلاثين سـنة. أما الآن فلـم يعـد يعـرف سـبب انقطاعـه عنها، رغـم اعترافه أنها كانت سـبب نجاحاته الأدبية ومصدر إلهام جعله يكتب روايات حققت جميعها النجاح.

إلا أن وفـاة زوجتـه وهجـران ابنتـه له لم يكونا مـا جعلاه يتوقف عن الكتابة كل تلك السنين، فما حدث له لاحقا كان أدهى. ذلك أنه وبعد أيام من مراسيم دفن زوجته (المرأة الشريفة كما يحب أن يصفها) أصيب بعمى نصفـيٍّ غايـة فـي الغرابة. كان كلما حاول أن يرى نفسـه في المرآة، امتلأت عينـاه بغشـاوة تمنـع الإبصـار عنه، وبمجـرد أن يزيحهما عن المـرآة، حتى يعـود النـور إليهما من جديد. ومع بداية هذه الأعراض، توقف الإلهام عنه، حتـى أصبـح مقتنعا بأن إبصاره لنفسـه وإلهامه متلازمان، بحيث تأكد له أنه لن يكتب شـيئا مجددا إلا إذا تمكن من رؤية انعكاس صورته على المرآة. وهو الأمر الذي جعله يُركّب مرايا ضخمة على جدران غرفة مكتبه، بحيث أصبحـت كل حيطانهـا مرايـا. هكـذا بمجرد أن يلمح وجهـه على أي منها، يدرك مباشرة بأن الإلهام عاوده أخيرا.

كان تلازم إبصاره لنفسـه وإلهامه "مجرد فرضية" طرحها يأسـه حين اكتشـف بأنـه لـم يعد قادرا على الكتابة أو رؤيـة وجهه، ولكن فرضيته تلك سرعان ما تحولت إلى يقين حين أدرك أمرا أكثر غرابة. ففي إحدى الليالي الكئيبـة التـي أصبـح يقضيهـا وحيدا في مكتبه، حيـن كان يحاول ترصد أي انعكاس لوجهه على مرايا الجدران، ذعر لما اكتشف أنه ليس وحده من لا تعكسه المرايا، فقد كان ثمة شيء غيره عصيّا على الانعكاس أيضا.

ففي مكتبه، والذي كان فخما، مسرفا في الترف بأثاثه وزرابيه ورفوف الكتـب، كانـت رواياتـه الثلاثيـن تحتل أعلى رف فـي مكتبته الضخمة ذات الألـف عنـوان، وكأنهـا كانـت طريقته ليعبر عما اعتـاد التعبير عنه أي كاتب من نرجسية مستحقة أو غير مستحقة. وكان ريماس قد اختار لعرضها أجود

الطبعـات الفرنسـية وأكثرهـا جمـالا. أمـا ترجماتها فلم يكـن يهتم بها على الإطلاق، خاصة ترجماتها إلى العربية التي جعلها مكدسـة فوق بعضها في مـكان مـا بغرفة مكتبه، تؤنس فيما تؤنس الغبـار والصراصير اللذين أصبحا إثر وفاة زوجته أكثر ما يملؤ المكتب بعد الكتب.

المهم، حدث في تلك الليلة أن لاحظ أن المرايا لا تعكس أيضا اسمه على أغلفة رواياته. حينها أدرك أن ما افترضه بخصوص تلازم إبصاره لنفسه وإلهامه لم يكن مجرد افتراض، بل يقينا لا يقبل أي جدل.

كل هذا من الماضي. على الأقل، هذا ما تمناه حين خُيّل إليه اليوم أنه رأى شيئا من وجهه على المرآة، لم يكن متأكدا بالطبع ولكن شعورا غامضا غمره، جعله يحدس أن الأمور ستتحسن، بدليل أنه اليوم وعلى غير العادة شـعر بقدرته على كتابة شـيء لن يكون مضطرا على شـطبه. الأمر الأكيد أن ما شعر به لا علاقة بذكرى يوم ميلاده .

وإن كان شعوره بتحسن الأوضاع لا علاقة له بذكرى يوم ميلاده، فلم يكـن لـه علاقة أيضا بتلك الرسـالة المبهمة التي وصلتـه على هاتفه النقال: "صديقي، أنت وحدك من يمكنه إنقاذي من ورطتي. أعرف أنك ستغفر لي، لأنني غفرت لك من قبل حين قمت بنفس الشيء معي".

كان رقم المرسِل مخفيا، وكأن ثمة من أراد أن يكشف له عن سر خطير ويخشى أن يفتضح. إلا أنه لم يهتم بالرسالة بسبب أنها بدأت بـ"صديقي". لا بد أن أحدا أخطأ الرقم، فلا أصدقاء لديه بعد رحيل ابنته. وما كان ليسمح لأحد حتى لناشره بأن يرفع الكلفة عنه ويناديه "صديقي".

كان ريماس من النوع الذي يسـتهوي كُتَّاب السـيرة لتناول حياته، فلا أحد كان يعرف شيئا عنه غير الكتب التي أصدرها، والتي جعلت منه اسما شـائعا رغم نفور الناس منه بسـبب انطوائيته ونرجسـيته التي يبديها في كل مناسبة تتاح له للتعبير عن نفسه. حتى إن ناشره راسله ذات مرة معبرا له عن تذمره من تبجحه المتنامي وازدرائه لغيره من كتاب، فأجابه ريماس برسالة منمقة، هدده فيها بتهذيب بإمكانية فسخ شراكته به، وهو أمر لم يكن الناشر

ليقبله نظرا لمبيعات ريماس الهائلة.

ومع اعترافنا بأهمية ريماس إيمي ساك في هذه الرواية، إلا أننا احتراما لغموضه وانطوائيته أيضا، لن نذكر شيئا عن ماضيه الشخصي. سنكتفي بالقول إنه أرمل منذ أربع سنوات وكاتب ذائع الصيت، ألف ثلاثين رواية باللغة الفرنسية لقيت جميعها النجاح. حتى موت زوجته، المرأة الشريفة، وهجران ابنته له لن نتحدث فيه. كل ما سنذكره من سيرته أنه ولد كاتبا كبيرا ذات عام في الفاتح من نوفمبر وأنه منذ أربع وثلاثين سنة يسكن نفس الشقة المتواجدة في مكان ما بحي باب الواد الواقع في الجزائر العاصمة. تطل نافذة غرفة مكتبه على زقاق ضيق من دون منفذ، ينتهي بمقهى بباب زجاجية ضخمة، بيافطة معلقة كتب عليها "trente" يعني "ثلاثون".

في الحقيقة، حتى ريماس إيمي ساك ما كان ليكتب عن نفسه أكثر من هذا. ذلك أنه منذ وفاة زوجته وإصابته بالعمى النصفي، أصيب بشيء يشبه مرض فقدان الذاكرة. لم يعد منذ ذلك الوقت يتذكر شيئا عن طفولته ولا عن كل المرحلة السابقة لبداياته كروائي شدّ انتباه العالم من أول رواية أصدرها. لا شيء مطلقا كان يستحوذ على ذاكرته غير رواياته الثلاثين بصخبها وشخوصها وأحداثها وحبكاتها، فقد كان قادرا على إعادة كتابة أية واحدة منها بنفس الجمل والفقرات وبنفس الطريقة، وكأنما حفظها عن ظهر قلب.

إلا أن ثمة مشهدا نقش في رأسه لم يجد له موقعا في أية واحدة من رواياته. لا يذكر متى كتبه ولا وقت حفظه ولا حتى المناسبة التي دفعته إلى كتابته. الأكيد ألا علاقة له بجميع ما ألف لحد الآن. وهو أمر غريب لو أخذنا بعين الاعتبار طريقة ريماس في الكتابة. علينا قبل الخوض في هذا أن نفهم أن الإبداع بالنسبة إليه لا علاقة له بالموهبة فحسب. إنه عمل "مقاولة" يحتاج أولا إلى تحضير مسبق وواع يلي تولّد الفكرة في رأس صاحبها: أولا، على الفكرة أن تتوضّح في رأس الكاتب بشكل كامل، وهي ليست موضوع الرواية أو حتى غايتها، بل القصة التي يحويها العمل. إذ لا بد قبل أن يشرع

في الكتابة أن يملك قصة كاملة في رأسه. ثانيا، يحضّر الكاتب المادة الخام التي سيستغلها في الكتابة، قد تكون تلك قصاصات جرائد، كتبا، قواميس، بحوثا أكاديمية، حوارات مسجلة، لقاءات تلفزيونية. أي شيء يصلح لدعم الأفكار التي ستحويها الرواية. وما دام المكان أمرا ضروريا في أي عمل، فلا بأس أن يستعين الكاتب بخارطة للمواقع التي سيتحدث عنها. وعلى سبيل الاحتياط يستعين بمؤلفات عمرانية تؤرخ لعمران هذه المنطقة أو تلك. المهم، لا يجب أن يخرج المؤلَّف عن سيطرة الكاتب في أي جانب منه. وحتى يضمن مزيدا من السيطرة، يضع تقسيما أوليّا للفصول، وتصورا معقولا لأحداث كل فصل، وجدول توقيت صارم لظهور كل شخصية من شخوص روايته. وحين يتجهز الكاتب بكل هذا، يشرع في الكتابة.

كانت طريقة عمله تؤكّد له في كل مرة فكر في مصدر المشهد الذي نقش في رأسه، أنه لم يكتبه إلا بمناسبة كتابة رواية معينة، لكن الغريب أنه لا يتذكّر أنه كتب نصا آخر غير نصوصه المنشورة، وما كان ليهدر وقته في كتابة نص لن يرى النور أبدا. ومع ذلك، فلا بد أن يكون هو صاحب هذا النص الذي نُسخ في رأسه ملايير المرات.

غير أن الذي حيّره أكثر، هو أنه كان على يقين بمعرفته لشخصيات المشهد، فجميلة بوراس، كانت كامرأة عرفها ذات يوم، فحتى وإن لم يذكر نصه المنقوش في رأسه أي وصف لها، كان إيمي ساك قادرا على وصفها بالتفصيل الممل.

كلما أعاد استظهار ذلك المشهد، بدت له جميلة بوراس شابة في الثلاثين، بشعر أشقر، طويل متموّج يصل إلى وركيها. وبوجه أسمر ذي حسن هلالي[1] لولا العينان اللتان اقترضتا لون العشب. أما الأنف فكان مفلطحا صغيرا، يلائم شفتيها المنتفختين والرطبتين في أي وقت، يسكن في تجويف فمها لسان وردي عذب يحرسه طاقم من الأسنان العاجية البيضاء

(1) نسبة إلى بني هلال.

والتي في بياضها تجعل الثلج يرتاب في لونه.

أما رأسها فيستقر على عنق لا طويلة ولا قصيرة، تنتهي عند كتفين يبدأ عندهما نفير الشهوة. ولولا ثدياها الناهدان وحلمتاها الوديتان، المستعدتان دوما من دونما استثارة، لاكتفى الناظر إليها بكتفيها ليبلغ ذروة النشوة. أما بطنها فكان مسطحا مشدودا، حتى يُخيل للرائي أن ثمة من يطوقه ليمنع السمنة من أن توسوس له...

كان ريماس قادرا على وصف أي جزء منها، وكأنها امرأة تملأ عقله وقلبه وعينيه معا. حتى إنه فكر فيها كعشيقة عرفها ذات يوم. بالطبع لم يكن قادرا على الجزم بذلك ولكنه كان احتمالا واردا جدا. إنه يعرف جسدها بكل تفاصيله حتى تلك التي تبدو غاية في الصغر. وإلاّ، ما الذي يجعله موقنا أن لديها على الجهة اليمنى من كتفها وحمة أفعوانية الشكل. وكيف علم بالخانات الثلاث التي تتدثر بزغب عنتها الأشقر المشذوب بعناية؟!..

ما لم يصارح ريماس به نفسه أنه، لسبب ما، كان يشعر بعاطفة أبوية نحو جميلة. ثمة شيء فيها، رغم فتنتها ومثالية جسدها، كان يمنعه عن تخيلاته الجنسية التي كثيرا ما تجاوزت حدود المعقول بالنسبة إليه. إنه يدرك ومن زمن طويل حاجته المتنامية للجنس. (لا نعني هنا شكله التقليدي المتمثل في فعل "المضاجعة" بالتعبير الأدبي، أو حتى فعل "الوقوع" بالتعبير الديني، ولا الفعل الذي يعني "الولوج" في النهاية بأي تعبير كان).

كانت حاجة ريماس المتنامية إلى الجنس، تعني بالإضافة إلى ذلك كل ما يمكن تخيله عن جميع الحالات الممكنة لعبث الأجسام ببعضها. وحين يستعمل لفظة "الجسم" فهو يعني أي كائن حي قادر على الإمتاع والاستمتاع. لهذا فقد كانت حاجيات ريماس الجنسية متنامية ومتصاعدة إلى المزيد من الجنس الغرائبي المحقق للذة. لقد كان بلا شك كائنا جنسيا مقرفا بسبب ما في رأسه من رغبات أحسن ما توصف به أنها غاية في الشذوذ.

كان شعور ريماس بالأبوة نحو جميلة بوراس يتزايد كلما اضطرته

الصدف إلى استظهار ذلك المشهد المنقوش في رأسه، والذي فيه تروي جميلة علاقتها برجل متزوج اسمه رضا خبّاد. فعلى عكس ما كان يحدث معه من تفاعلات هرمونية كلما قرأ أو كتب مشهدا جنسيا. كان ريماس يشعر بانغمار جرح قديم في قلبه كلما عرج على ذلك المشهد الذي يبدأ كالتالي:

" أحببتُ أن أبقى مستلقية بجوار أبي، إلا أنّني لم أعد قادرة على احتمال البرد أكثر.

"أيّ ريح كانت قادرة على فتحك أيتها اللعينة؟!". فكرتُ وأنا أغلق النافذة، ومن دون أن أقصد حقا أخذتُ أنظر عبرها لعلي أرى ظل السيد "الموت" أو حتى قفاه. ولكنّني حين أغلقتها وسمعت أنفاسي أدركتُ أنه رحل من غير رجعة. فحين تعود الأصوات لتُسمع، فلا بد أن يكون السيِّد "الموت" قد رحل، هكذا كانت تقول جدتي، وهكذا قلت، أنا، لنفسي.

ولكن ما أدراني؟!. ألم أقل نفس الشيء عن رضا وأنا أرى قفاه، أشيِّعه إلى حيث لم أدرِ في ذلك المساء حين صادفته بمحطة الحافلات؟.. ألم أقل أيضا أنه ذاهب، كرغبتي فيه، من غير رجعة؟!.

قلت ذلك أيضا، حتى إذا ما استلقيت لأنام عادت ذكراه تفترسني بالأرق. يا إلهي، ما زلت كلما تذكرت ذلك يعتريني نفس الشعور. لم يكن رغبة فحسب، كان شيئا تائها في المشاعر، أقل قدسية من الحب وأعلى دركا من الشهوة.

حينئذ، لاحظتْ زميلتي ما أنا فيه. سألتني إن كنت أشعر بالمرض. أجبتها من دون أن أتخيّر الكلمات: "بل أشعر بالشفاء"..

أخيرا شفيت من لامبالاتي المزمنة، من غروري، من اللاحب.. أخيرا طرحت جلد الفتاة الصالحة وتمكَّنت من التفكير كأية أنثى في موسم التزاوج. تأخّر الأمر ولكنه أتى في النهاية، وأنا التي خلتني باردة كالموت..

ليلتها، كنت ألجمني لئلا أهاتفه فيفضتح أمري. لم أعلم أي شيء استثارني فيه، حتى لم أعد أقوى على التفكير. كل ما كان في رأسي

صورتـه.. صـورة وجهـه الآيل للبياض، بقصة شـعر عسـكرية وعينين بلون الفحم. لم يكن فيه ما يثير غير براءة حديثه وجمله المعجونة بالذكريات.

استغرقني الأمـر شـهرا لأقـرر أن أهاتفه. لم أكن آمـل أن يحدث أيّ شيء بعدها، وربما كنت أحسب أن محادثته ستطفئ بعض ما يُشعُلني كلما خلـوت بنفسـي. بهـذا أقنعتُني وأنا أشـكل رقم هاتفه، فلم أكـن، حينها، قد سجلته في مذكرة هاتفي، بل حفظته في رأسي من كثرة ما نظرت إليه طيلة شهر من الأرق.

كنت أرى أصابعي وهي تضرب لوح الهاتف تتلكأ بارتعاش، وبرأسي فراغ غارق في الفراغ. لم أكن أفكر في شيء، حتى فمي الجاف ساعتها، ما كان ليجرؤ أن يتصيّد أي كلام يطلقه ساعة يتوقف الهاتف عن الرنين. كنت أنتظـر الصـوت.. صوتـه هو، أن يفتح باب الجحيم ويدفعني فيه، ولأسـقط حيثما أرادت لي الرغبة.

الآن وأنـا أذكـر ذلك، أتأمل لحظـات ضعفي لأدرك كم كانت صادقة فـي نفاقهـا. أدرك ذلـك وأنا أسـتحضر حديثنا حين رأف بـي الانتظار ورفع رضا الهاتف، وفمي قد هجره الجفاف كأنه لم يحل به قطّ:

- من معي؟
- أنا..

قلتُ وقد أدركت أن اسـمي لم يظهر على شاشـة هاتفه حين قرر أن يجيب. تهاوت على رأسـي مطارق الندم، ولكنها لم تكن قوية إلى حد أن تمنعني من الاستمرار.

- أنا.. جميلة.
- جميلة؟!
- جميلة.. تذكرني بالطبع؟.

وانغـرز الصمـت بيننـا. كان أكثـر إيلاما مـن الندم، وأكثـر مدعاة إلى السخرية من نفسي، فأي شيء كان سيجعله يتذكرني. لم أكن أكثر من فتاة رآها صدفة قبل شـهر. شـبح من الماضي السـحيق. خيال لزميلة دراسـة لم

يعرف عنها غير جهله بها.

في الأخير تذكّرني، وتحول صوته المشفوع بالتردد والحيرة إلى النوتة التي سمعتها تصدر منه حين التقيته منذ شهر. استرسلنا في الحديث وكأننا صديقان منذ الأزل. حدثته عن نفسي، عن أبي، عن وحدتي، عن الثوب الذي كنت أرتدي، عن ميتة جدتي، عن عماتي التسع.. حدثته عن كل شيء، ولم أكن لأجرؤ على الصمت حتى سألني أن نتوقف وقد قاطعنا الفجر، مؤذنا ليوم جديد. كان من حسن حظي أنني هاتفته وزوجته في بيت أبيها..

هو أيضا حدثني عن نفسه، ولكن بشيء من الريبة. كنت أشعر برغبته في التمادي. كانت رغبة خجولة تزحف نحوي، تقتحمني بلطف وحذر. أردت أن أخبره ألا جدوى من الخوف مني، ولكنني خشيت أن يذعر ويفلتني، وأنا للتو استحليت اقتحامه. كنت مجبرة أن أصغي لصمته وبداخلي صراخ ممعن في الصراخ.

في النهاية، بدأت تتهاوى دفاعاته، وأصبح أكثر جرأة، حتى إذا انقضى شهر آخر عن حديثنا الأول، بدأ يلج عوالم خلت أنه لن يلجها أبدا.. فأخيرا قرر أن يشفيني من السأم.

هكذ انطلق الجنون.. جنوننا نحن، غير آبه بالمسافة، غير راهب من أي شيء. وهكذا ابتدأت قصتنا يوم أحد، تماما مثلما ستختتم يوم أحد، وبينهما الانتهاء يفترش الوحدة حتى ينام بداخلي، لكنها كانت وحدة يحدوها الأمل، ولربما عاشرها الحلم أحيانا، على الأقل في تلك اللحظات الحميمة التي كانت تجمعنا كل ليلة بعد منتصف الليل. كنت أصغي إليه وهو يسرد حياته وكأنه يكتبها، ولعله كان يفعل ذلك حقيقة في رأسي، حتى إنني وبعد كل هذا الزمن الفاصل بين قصتنا ويومي هذا، أكاد أقسم أنني أحفظ كل أحاديثنا معا. لكن الذي كان يشدني في كلامه، هو تلك النبرة التي يفرشها لحديثه كلما انتصف الليل. كان صوته يتغير من دون أن يدرك، ليتحول إلى همس ظمئ، جائع، طامع في المزيد من الهمس. كنت أشعر

بـه وهـو يتسـلل داخلي، يسـرّع دمي ونبضـات قلبي، لتتحالف الأحاسـيس ضـدي، تخضعنـي، ويغمرنـي في النهاية شـعور دافئ بضـرورة التحوّل إلى جارية عاهرة.. أصبحُ من دون أن أدرك عاهرته هو.

أسـتحلي همسـه، جنونـه المتصابـي، فأسـأله المزيد. تـارة أرغب في الصمت وأركز سمعي لأصغي إلى أنفاسي وهي تتقطع حتى تمسخ شهقات بالـكاد أسـمعها، وكلما أصغيت، يتملكني شـعور غامـض بالتحرر، فأطلق صوتي غير آبهة إن كان أبي في الجوار سيسمع تأوّهي. أصبح ذئبة تعوي.. كلبة تنبح.. قحبة تتأوه".

***

ولسبب ما، كلما وصل ريماس إلى هذه المرحلة من النص المنقوش في رأسه، توقف عن استظهار بقية المشهد، مفضلا أن يلقي به في سرداب ذاكرته المظلم الذي، ومع مرور الوقت، امتلأ بذكريات وأوراق من الشائن بالنسبة إليه وهو الكاتب المشهور، صاحب الثلاثين رواية، أن تظهر للعلن.

لا أحـد يعلـم كيـف تمكّن ريماس ومنذ وقت طويل، ربما منذ أن بدأ يسطع نجمه في عالم الأدب، من التحكم في تقسيمات ذاكرته داخل مخه. فبقدرة غريبة غرابة حياته، جعل من ذاكرته سـكنا مقسـما إلى ثلاث غرف. كل غرفة تشكل قسما من ذاكرته: هناك صالة المعيشة وفيها ذكرياته السابقة لمرحلـة ريماس – الروائـي. (هـي غرفة لن نحاول ولوجها لسـبب بسـيط، وهـو أنـه كمـا قلنا منذ أربع سـنوات كُسـر مفتاحها في قفـل بابها الحديدي العتيـق. وسـيكون من السـخيف الآن محاولة إيجـاد طريقة لفتحها أو حتى إصلاح أو تغيير القفل.). وهناك غرفة تشبه في الحقيقة غرفة مكتبه بأثاثها وترفهـا، ولكنهـا على عكسـها غير مرتبة بحيث لم يعـد بمقدور ريماس أن يجـد فيهـا مكانا آخر يسـع كتبا جديدة غير رواياتـه الثلاثين. ومع ذلك كان يغمره الاعتقاد أنه بمجرد أن يبدأ شيء من جسمه في الانعكاس على مرايا واقعه، فسيجد طريقة لترتيب تلك الغرفة وكسب مزيد من المساحة لأعمال

أخرى. أما الغرفة الثالثة، فبمجرد ولوجها يبدأ سلم في الانحدار إلى أسفل يقـود إلـى سـرداب مظلـم، اعتـاد ريمـاس أن يضـع فيه كل ما من شـأنه أن يسـيء إليه، ولأنه كان يعلم أن ثمة من الأسـرار ما قد يتوقف عليها مصيره كروائـي مشـهور ومحترم، فقد جعـل فيها - لمزيد من الأمان - خزانة بقفل مشفر يحتفظ فيها ببعض تلك الأسرار. لعل أخطرها ذكرى رجل قام بقتله منذ سنوات، ولكنها ذكرى ولطول ما حبسها في الظلام، بدأت تتلاشى في عقل ريماس الباطن حتى بدا له أنه نسيها.

المشـكل في الإنسـان أنه لا يعلم متى تبدأ الأشياء السيئة في الظهور. ولـو أن كل واحـد منـا آمن بصدق بالمبدأ الفيزيائي القائل ألا شـيء يختفي حقا، وألا شيء يولد من العدم، لانسجمت حياتنا إلى درجة أننا كنا لنشطب عـن طيـب خاطـر لفظـة "السـر" من قواميسـنا بأية لغة كانـت. ولكنه أمر ما كنـا لنفعلـه بسـبب الفطرة التـي فطرنا عليهـا. إننا في النهايـة مجرد كائنات تسـعى إلى الكمال رغم علمها أنه يسـتحيل عليها ذلك، لا بسـبب أنه أمر غير موجود، أو لأنه صفة إلهية لا تليق بفانٍ، بل لأن نقائصنا هي في منظور الفيزياء عدم، ولا شـيء يولد من العدم. ثم إن "السـر" أمر وجد فيها لحظة وجودنـا. لـم يكـن أمـرا اخترعناه نحن، بل سـيرة فطرنا عليهـا، من يوم أن جعل الله "شـجرة المعرفة" سـرا منع آدم عنه. هنا بدأت علاقتنا بـ"الظاهر" و"الخفي". الظاهر تسـيره الصراحة والخفي يلجمه السـر. كان السـر، إذن، أمرا موجودا معنا، وما كان ليختفي، ببساطة لأن لا شيء يختفي حقا.

الفصل الثاني

غيـر بعيـد عن شـقة ريماس إيمي سـاك، وقف فـي الظلام رجل فارع الطول، بظهر مُحدَودب وكتفين منخفضتين، جعلتا رأسه يبدو بينهما متدليا بالكاد تبقيه رقبته في مكانه. كان يرتدي بدلة صوفية زرقاء من ثلاث قطع، بـدت لدقـة تفصيلها ولأصالة لونها الآيل للسـواد، وكأنهـا من النوع الغالي والمخاط عند الطلب. ولولا أن الظلام كان حالكا ساعتها، لتمكّن أي مارٍ بـه مـن أن يلاحـظ العقدة العريضة التي جعلها في رأس ربطة عنقه الحمراء ذات البقـع البيضـاء المصفرة، والتي تلاءمـت بنحو مدروس مع لون البدلة والقميـص الأبيـض ذي الكميـن الطويليـن، واللذيـن بـرزت نهايتهمـا عند المعصمين لتضيف إليهما أزرارهما الذهبية هالة تستحقها أناقة هذا الرجل. أما الحذاء فكان من النوع المسـمى "سـينتيبغو"، أسـود بنقوش جلدية على شكل دوائر صغيرة، وبعقب خشبي يحدث جلبة أينما عفس.

كان الرجـل وهـو يجيـل النظر في بـاب مقهـى "ثلاثون" – الزجاجية الضخمة – محملقا في يافطتها المكتوبة بالفرنسـية من دون أن يرفع رأسـه، يشـبه، بسـبب انحناء ظهره ورأسـه المتدلي، زهرة عباد الشمس في ساعات ما بعد العصر. إلا أن لا أحد كان بوسعه فهم تلك النظرة المنبعثة من عينيه الزرقاويـن وهـو يقـرأ تلـك اليافطة. ولـولا اليقين من أن الشـيء الذي كان يبحلـق فيـه ليـس إلا يافطـة مقهى، لكان افتراض أنه يتأمـل لوحة فنية ذائعة الصيت، الأقرب للتصديق..

بدا الرجل في وقفته تلك مترددا في دخول المقهى، أو هذا ما فكر فيه النادل ذو السـتين عاما وهو ينظر إليه عبر زجاج الباب. مهما يكن، اليافطة المعلقة فوق المقهى ليسـت لوحة فنية تبرر للرجل خارجا كل ذلك الزمن الـذي تظاهـر أنـه اسـتغرقه فـي تأملها. فاليافطـة لا تحمـل إلا كلمة واحدة

مكتوبة بخط مقروء وإن أصبح غير واضح بسـبب السـنين وعوامل الطقس التي تحالفت لتمحو حرفا أو حرفين منها.

تقـدّم النـادل ذو الجسـم الهزيـل والـرأس الصلعاء ببطء إلـى الأمام، دافعـا بجهـد قدميـه حتى رسـمتا على الأرض ما يشـبه الخطـوات. وإذ بلغ البـاب الزجاجيـة أشـار إلى الرجل بالقدوم مـن دون أن يبذل عناء للخروج مـن المقهـى. كان يحرك يديه نحوه بإشـارات اعتقـد أن الرجل في الخارج سـيفهمها، وفـي نفـس الوقت يلقي من شـفتيه بكلمات تشـرح ما أراده من الرجل خارجا. ومع أنه أعاد إشاراته وحركات يديه عشرات المرات، إلا أن الرجل بقي مسمرا في مكانه ينظر إليه باستغراب حينا وبرأفة أحايين كثيرة. ذلك أن النادل، رغم اجتهاده، لم تكن إشاراته تعني أي شيء على الإطلاق. ولولا الرأفة به (بسـبب سـنه المتقدم غالبا) لقلنا أنها كانت كحركات رجل ممعن في البدانة يحاول أن يساير إيقاعات الديسكو.

أمـا كلماتـه التي حين تجمعها تشـكل الجملة التالية: "تفضل سـيدي بالدخول"، لم يكن لها أن تصطف وتترتّب على هذا النحو أبدا، لتشكّل جملة مفيدة كالتي خُلقت لأجلها. ببسـاطة، لأن الباب الزجاجية الضخمة، بسـبب سـمكها، لم تكن لتسـمح لها بالمرور، وبالتالي بلوغ مسـمع الرجل الواقف في الخارج.

كل هذا لم يمنع الرجل من فهم ما أراده النادل منه. ليتقدم نحو الباب ويحقق له رجاءه.

وحين دخل إلى مقهى "ثلاثون" باغته النادل صارخا:

- خلت أنك لن تدخل أبدا.

ابتسم له الرجل على نحو أوحى برغبته في الامتناع عن الرد.

أضاف النادل وكأنه يعتذر:

- لا تؤاخذنـي، فلـم أكـن قـادرا على تخطـي عتبة المقهـى. حاولت قدر الإمـكان الترحيـب بـك، ولكن جمـودك خارجا جعلني أفقـد أعصابي وأرفـع صوتـي. ثلاثـون سـنة من الخدمـة ولا أحد من زبائني اشـتكى.

أعتقـد أنك سـتكون أول من أرفـع صوتي في حضرته.. بالطبع، هذا إذا افترضنا أنك زبون، ولكن لحسن الحظ أنك لست ولن تصبح كذلك.. يكاد الأمر أن يكون مستحيلا.

وأشـار بيديـه إلـى الصالة. وحيـن أدرك الرجل ما قصـده النادل وهو يرى كمّ الخراب الذي أصاب المقهى، حرك رأسه ذا الشعر الأشقر اللولبي واللحية التي كانت (من غير قذف مقصود) تشبه لحية تيس بالغ. فهم النادل مـن حركـة رأسـه تلك ومـن ملامح وجهه المصاحبة لها، بـأن الرجل أدرك مـراده. لهـذا لـم يجد حرجا من الاعتذار له مجددا. هذه المرة أجابه الرجل مبتسما:

- لا عليـك، لـم يكن من الممكن أن أفهم عنك بأسـرع مما فعلت. لقد كانت الباب موصدة ولم أسمع أي شيء مما تفوهت به.

- إذن، فقد فهمت من إشاراتي.

- ولا من هذه أيضا.

- فممَ إذن؟!.

سأله النادل بنبرة صوت صافحت كف الصراخ.

- من حركة شـفتيك لا أكثر. اسـتغرقني الأمر بعض الدقائق لأدرك بأية لغة تتحدث، وبعدها لم يعد الأمر مشكلا.

وإذ ذاك، رمقـه النـادل بنظـرة إعجـاب لم يهتم بهـا الرجل فيما يبدو. بحيث لم يمهله وسأله:

- ولكـن، مـا الـذي حـدث هنـا، حتى أصبحـت المقهـى على هذه الحـال.. أذكـر أنهـا كانت مزارا للكثيرين. حتى إنني مـا زلت أذكر بالضبط أين كنت أجلس دائما وبانتظام..

وأسرع مهرولا حتى بلغ طاولة بستة مقاعد، تقع في مدخل الصالة.

- هنا كنت أجلس وأصدقائي طيلة سنتين كاملتين من دون أن نملّ.

تنهّـد النـادل، متفحصـا وجـه الرجل، ثم خفض عينيـه مفلتا من فمه، الذي تراءت في تجويفه أسنان تشبه في بياضها الصلاح: "مستحيل". ورفع

عينيه ليتفحص وجه الرجل من جديد. هذه المرة لم يتحرج في سؤاله:

- أيعقل أن تكون أحد زبائني ولا أذكر؟

- بالطبع، بدليل أنني قادر على إخباركَ بأمور لا يعرفها إلا رجل كان زبونا هنا بحق.

- فاجئني..

قال النادل وهو يريح مؤخرته على أحد المقاعد.

ومثلما فعل النادل، جلس الرجل بدوره على مقعد مقابل، ووضع على الطاولة محفظة جلدية من دون يد، كان يتأبطها منذ حين.

كانا وهما جالسان يشبهان معلما يستذكر لتلميذه، وفي مثل هذه الصورة، ما كان لأحد أن يخطئ من المعلم ومن التلميذ، خاصة حين بدأ الرجل بالتحدث:

- هذه المقهى كانت تتميز بأمرين: لا يدفع ثمن المشروب الأول حتى وإن اكتفى الزبون به، هي المقهى الوحيدة التي كانت تحظر على الزبون التحدث مع شخص آخر لا يكون جالسا معه على نفس الطاولة..

ضحك النادل حتى كاد يسقط على قفاه، ولكنّه بمجرد أن هدأ قال مستذكيا:

- هذه أمور يمكن لأي واحد أن يعرفها، حتى الزبائن غير الدائمين كانوا على معرفة بها.

- هذا أمر مستحيل، فقد كان كل زبائن هذه المقهى زبائن دائمين. لم يتغير أي واحد منهم ولا مرة واحدة. حتى إنني سأقول لك أمرا أعلم أنك تعرفه. كان كل واحد منهم غير قابل للتبديل، فبمجرد أن يتم "توظيفه" ويغادر المقهى، لا يعود أبدا، ويبقى مقعده شاغرا.

ابتسم النادل وقد أدرك أنه بالفعل يحدث زبونا قديما، شاءت له الحياة أن ينسى وجوده تماما. لكن الرجل ظل يقدم أدلته واحدا تلو الآخر:

- .. هناك أمر آخر، وهو عدد الطاولات الذي لم يتغير رغم مرور الزمن.

- وكم كان عددها إن كنت تذكر؟.
- ثلاثون، تماما كاسم المقهى.
- في هذا أخطأت، فقد كانت..
وقاطعه الرجل:
- صحيح.. صحيح. كيف أمكنني أن أنسى ذلك. فلسبب لم أفهمه وقتها، قررت أنت أن تضيف طاولة أخرى. أذكر أنها كانت هناك..
وأشار إلى زاوية في آخر الصالة.
- كانت طاولة بمقعدين. أتذكر الأمر وكأنه حدث البارحة.
- هـذا صحيـح، مـع تعديـل طفيف وهـو أن القرار اتخـذه صاحب المقهى وليس أنا.
حينها اعتلت وجه النادل ملامح حيرة وكأنه أدرك متأخرا أمرا يجعل مـن احتمـال أن يكـون الرجل زبونـا قديما احتمالا غيـر صائب. وحين همّ ليقول شيئا قاطعه الرجل:
- ستسألني الآن، كيف تمكنت من العودة إلى هنا إن كنت كما أدّعي زبونا قديما.
ابتسم النادل مبديا دهشته لتمكن الرجل من معرفة ما جال برأسه.
- وتقرأ الأفكار أيضا..
- لو تذكرتَ من أكون لما سألتني. مثل هذه الأمور ليست موهبة يا صديقـي، معرفـة اللغـات وقراءة الأفكار وحتى القـدرة على العودة إلى هنا لم تعد مسائل مستحيلة بالنسبة لي. أعتقد أن صاحب المقهى يعلم أنني لم أعد مجرد اسم على قائمة. بالطبع أنا ممتن له أن جعلني بتوظيفه لي شخصا اسـتثنائيا، لكنني لم أعد راضيا على وضعي هذا. لهذا جئت اليوم إلى هنا، هكذا يمكنني أن أشرح له سبب عدم رضاي من وضعي الحالي. بمقدوري أن أقدم ما هو أفضل، بدليل أنني بفضل ما اكتسـبته من قدرات، اكتشـفتُ أمرا غاية في الخطورة. ثمة من يسعى لقتل سيدنا.
بدا الرجل وهو يتحدث عن القتل جادا إلى درجة أن ساورت الشكوك

النـادل الـذي تجمـد فـي مكانه وهو يتخيل ما سـيحل بعالمه إن تمكن أحد مـن قتـل صاحـب وظيفته. ولكنه حين فكر للحظات فـي الأمر، وجده غير معقول تماما: أولا لأن صاحب المقهى لا يوظف أحدا بنفسه أبدا، فما بال الرجل يتحدث عنه وكأنما لقيه؟. لا يمكن أن يحدث هذا، فحتى هو، رغم الثلاثين عاما التي قضاها في خدمة زبائن المقهى، وبالرغم من كل ما قاساه من ضجر ووحدة في السنوات الأربع الأخيرة، لم يبلغ بعد تلك المنزلة التي تجعله أهلا لرؤية رب عمله، ولعله لن يبلغها أبدا.

ثانيا، لا يتذكر النادل ولم يخطر بباله قطّ أن يكون رب عمله قد وظف سـواه مـن هـذه المقهى، فهو حتى حين يرغب فـي ذلك، يجلب أحدا يقوم بمثل هذه المهمة.

ثالثا وهذا هو الأهم، فإن فكرة أن يموت رب عمله، فكرة سخيفة غير قابلة للتصديق، ببسـاطة لأن الموت يعني في النهاية إنهاء لوجود الشـخص الميت، وهو أمر لا يمكن أن يحدث لرب عمله الذي أيسر ما يعلمه عنه، أنه كان قبل البداية وسيبقى حتى حين ينتهي كل شيء. إنه صاحب الفكرة في أن البداية نقطة لا قبل لها، وأن النهاية حدّ لا شيء بعده. وهي فكرة عبقرية بالمناسـبة، ذلك أن تجسـيدها يعني أن يتواجد صاحبها دائما خارج وداخل دائرة الوجود في نفس الوقت. هو في داخلها حين يكون للوجود مغزى، أي حين يترجم الوجود على أنه حياة. وهو خارجها حين يضيق الوجود ويفقد مغزاه لحظة الانتهاء، وهي لحظة يتجسد فيها العدم.

بالطبع لم يكن النادل ليقول هذا للرجل الذي ادعى معرفته بصاحب المقهى، لأنه في قرارة نفسه شعر أنه رجل طيب لم يفهم بعد قواعد اللعبة. وليثبت لنفسـه أنه أكثر طيبة، قرر أن يشـرح له بعض تلك المسـائل التي لم يسـتوعبها الرجـل الطيـب. لنقل إنها كانت مسـائل عالقـة، كان مصيرها أن تتضح، حتى وإن لم يلتق الرجلان.

– يا سيدي، يبدو أن الأمور قد اختلطت عليك. إن الذي وظفك لم يكن بالضرورة صاحب المقهى، فهذا لا يعتبر تكليف أحدهم يستحق عناء

محادثته أو حتى الظهور أمامه. غالبا من قام بتوظيفك رجل شاهدته بأم عينيك.

قاطعه الرجل:

- لا.. لا أدّعي أنني رأيته. ربما لم أحسن التعبير. أليس غريبا على رجل مثلي يحسن تسع لغات حية أن يسيء التعبير؟!.. أعلم أن صاحب المقهى كثير المشاغل ولا يسعه كلما احتاج إلى موظف جديد أن يقابله ويضيع وقته مع سيرته وإن كان عبقريا. أعرف ذلك جيدا وإن كنت أحتفظ لنفسي بأمل أن أراه يوما. ربما يحدث ذلك حين يعرف أي دور ألعبه الآن في محاولة كشف المجرم الذي يسعى لقتله.

- هذا أيضا جنون. صاحب المقهى ليس كما تتصور، على الأقل لا طريقة نعرفها نحن أو سوانا تجعله يكف عن الوجود. ليتني كنت قادرا على أن أشرح لك الأمر، فأنا أخشى لو فعلت أن تزول أنت من الحياة. في الحياة كما في الموت أمور من الأفضل أن لا نحاول السؤال عنها.

- إنك تهذي يا صديقي. أثمة من يكون عصيا على الموت؟.

- بالتأكيد.. صاحب المقهى، فهو عصيّ على الموت. أنت تعتبر الموت يا سيدي نقطة تحدد النهاية، أما بالنسبة لصاحب المقهى فهو مجرد موظف لا غير، ربما جعله أنيسا له في كثير من المرات، ولكن هذا لا يعني أنه أصبح عنده أكثر من موظف.

وكأنما أطلق النادل نكتة، أخذ الرجل يضحك حتى انقلب به الكرسي إلى خلف. ومع ذلك ظل يقهقه إلى أن جال بخاطره أمر، أدرك بفضله أن النادل لم يكن يهذي، والأكيد أن حديثه عن صاحب المقهى لم يكن نكتة تضحك أيا كان على الإطلاق. حينها ارتسمت على وجهه مسحة دهشة، مسخت ما جال في رأسه إلى كلمات تدافعت إلى حلقه ومنه إلى شفتيه، ليقول من دون أن يدرك: "أتقول أن صاحب المقهى هو ..".

لم يمهله النادل وحرّك رأسه صامتا أي "نعم".

لساعة من الزمن (أو لساعة من الزمن بحسب تقويم المقهى) ساد

صمت مبهم وكئيب بين الرجلين، جعلهما من دون أن يدركا يخوضان داخل رأسيهما في أسئلة تعني وجود كليهما.

كان النادل يتساءل داخل رأسه: "ما الغاية من وجودي هنا وقد أتممت مهمتي. كل الزبائن رحلوا، ولم يعد من المجدي أن أتواجد في هذا المكان، فلم يبقيني سيدي من دون غاية؟".

أما الرجل الطيب فقد تساءل بدوره داخل رأسه: "أيمكن لأحد أن يغير مصيره؟. ها أنا قد تسللت بين بنود عقدي وتمكنت من العودة إلى هنا، وفي ظني أنني سأقنع صاحب عملي بجدواي في منصب أفضل، لأكتشف في النهاية كم كنت أحمق طيلة تلك السنين، أخدم سيّدا وأنا أظن خدمة سواه. لماذا تركني سيدي أعيش كل ذلك القدر من العمر متوهما خدمة سواه؟. أيعقل أن وجودي لم تكن غايته ما قرأته بنفسي في كتابه، لأظل أعيش متوهما الغاية فحسب. إن كان الأمر بهذا النحو، فلم يبقيني سيّدي من دون غاية؟".

ولكنهما حين بلغا هذا السؤال، سؤال الغاية، رغبا عن معرفة الجواب. صحيح، لم يخطئ النادل حين قال منذ حين أن ثمة أمورا خفية من الأفضل ألا نسأل عنها. لهذا طعن النادل الصمت على حين غرة وقال:

- أتفهم خيبتك عزيزي، فأنت في الغالب حسبت أن الرجل الذي وظفك هو صاحب العمل.

- لا، ليس كما تتصور. كنت مدركا منذ البداية أنهما مختلفان. لا يمكن لذلك الشخص المتملق الذي وظفني أن يكون رب عملي. ولكنني لم أكن لأتصوّر أن يكون.. أنت تفهم قصدي بالطبع.

- بالطبع.. بالطبع.

واصل الرجل حديثه:

- إذن، فلا مناص بالنسبة لي على الأقل الآن إلا أن أعود إلى وظيفتي.

حينها أدرك النادل أنه لم يتعرف بعد على زبونه القديم. سأله مبتسما

بترجٍ:

- أرجوك أن تعذرني. نسيت لباقة الحديث. هذه أربع سنوات لا عمل لدي إلا محادثة نفسي حتى نسيت كيف أتكلم مع سواي. الآن فقط أدرك أننا لم نتعرف على بعضنا. أنا.. ماذا أقول، لن تهمك معرفة اسمي. كما تعرف أنا مجرد نادل فحسب.

ضحك الرجل، مادا كفه ليصافحه:

- أما أنا فلدي اسم، على الأقل كان هذا اسمي الذي قرره ذلك الرجل المتبجح. كيف كان اسمه.

- آه، تقصد الرجل الذي قام بتوظيفك؟.

- لا تعلم كم كنت أمقت تبجّحه وغروره. كان يظن أنه عبقري، وقد أوهم الناس بذلك جميعا. ولكنني عرفت سره، فمنذ أن خذلني وتركني كالبهيمة لأتعفن في "تندوف[1]"، وأنا أفكر في كشف سره للعالم. أتعرف أنه لم يكن هو من كتب كل تلك الروايات التي يزعم كتابتها.

- أنحن نتحدث عن نفس الشخص؟!

تساءل النادل، ثم قال معارضا:

- يجوز لك يا صديقي أن تشكك فيمن تريد، ولكن أحذرك من الخوض في سيرة هذا الرجل. يكفيه ما حدث له لحد الآن. ثم إنك بهذا تشكك في قدرة صاحب عملنا في اختيار رجاله.

- لا أشكّك، ولكنني أبرز وجهة نظر فحسب. ومع هذا سأسر إليك بأمر فكرت فيه طويلا مؤخرا: إن كان هذا المعتوه من كتب رواياته تلك، فلماذا يتحدث فيها دوما عن أمه وهو كما تعلم لم يملك أما قطّ. ثم هل قرأت روايته "الحكّاءة"، أيعقل أن يكتبها شخص لا يملك ذكريات؟!.. أقول لك: إن "إيمي ساك" هذا مجرد دجال، وأنا أعرف من كان يكتب له.

حين نطق الرجل بهذا، عاد الارتخاء إلى وجه النادل وكأنه لم

(1) ولاية في الجنوب الغربي من الجزائر.

يغادره قط. لقد أدرك أنهما لا يتحدثان عن نفس الشـخص. "مسـكين هذا الرجل – فكر النادل – أمضى حياته في خدمة سـيد لم يكن سـيده، واعتقد لأعوام أن صاحب الفضل في توظيفه رجل كان يسـعى دائما لعدم توظيفه في الحقيقة".

كان هذا الشـعور بالأسـى نحو الرجل الطيب، كفيلا للنادل ليقول له وهـو يقـوم مـن مقعده: "رغم أنني لـم أخدم زبونا منذ أربعة أعوام، إلا أنك ستكون زبوني هذه الليلة. لم تخبرني، أترغب في قهوة أم شاي؟".

الفصل الثالث

الساعة التي قضاها النادل والرجل الطيب في الحديث، مرت عليهما وعلى ريماس إيمي ساك اثنتي عشرة دقيقة فحسب. فقد كان ثمة شيء في هـواء المقهـى وفي شـقة ريماس قادرا على كسـر خـط الزمن، ليرغمه على التباطـؤ مـن دون أن يتوقـف فعـلا. ربمـا كان هذا سـبب بقـاء ريماس دون الخمسـين رغم مرور أربع وثلاثين سـنة منذ نشـره لأولى رواياته وقد جاوز وقتهـا الأربعيـن مـن العمر. حتى المرض لم يطـرق بابه ولا مرة واحدة في حياته. ولولا فقدان ذاكرته وعماه النصفي، لكان قادرا على القول من دون تبجـح أنـه كان "رجـل اللـه المختار". لكنه، وبعد ما أصبح يشـعر به مؤخرا من وهن، لم يعد واثقا من أنه سيصمد في الحياة سنينا أخرى. ثم ما مغزى هذه الحياة إن لم يكن المرء فيها قادرا على رؤية نفسه في مرآة؟. الأكيد إنها وإن عنت للبعض شـيئا حين يفقد بصره، فهي من دون معنى لرجل مغرور مثله، كل همه أن يعرف كيف يبدو انعكاسه على المرايا.

لـم يكـن ريماس قبل السـنين الأربـع الأخيرة من النـوع المرتاب في مسـتقبله. لقد كان دائما رجلا يعرف من أين تؤكل الكتف وعلى أية مائدة يستحسن أن تؤكل. ولكنه ومنذ اختفاء انعكاس صورته على المرآة وتوقفه عن الكتابة، بدأ في الارتياب من كل شيء. إنه يعيش اليوم حالة من الشك المستمر في التوالد بداخله، دفعه بعد وقت إلى طرح أسئلة ما كانت لتجرؤ وتتسلل إلى رأسه سابقا.

لعل أكثر أسئلته فتكا، سؤاله المتعلق بجدوى بقائه حيا إن تأكد موت المبـدع فيـه. ومـع أن الجواب عن هذا بديهي بالنسـبة لأي كاتب لا غاية له من الكتابة غير المتعة، إلا أن ريماس أوهم نفسـه أنه سـؤال فلسفي يستحق التوقـف عنـده لسـنوات إن اقتضـى الأمـر. لم يكـن ليجـرؤ أن يجيب: "لا

جـدوى مـن حيـاة لا إبداع فيها"، فقد كان إقراره بهـذا يعني قبوله بالموت، وهو أمر لم يكن ليتقبله لأي سبب.

غيـر أن الممتـع فـي كل هـذا، هـو أن ريماس لم يكن يعلـم بامتلاكه "موهبة القرار" إلا مؤخرا، فقبل أن يخلق الله "ملك الموت"، ويقرر بمشيئته أن المـوت هـو انتهـاء للحياة، وأن "الأجل" يعني نفاذ نقاط أحدهم في لعبة الوجود. قبل كل هذا، لم يكن للموت أي معنى، على أساس أن النهاية لم تكتسب بعد مفهومها الذي نعرفه الآن، بسبب تعلقها بالزمن كوحدة فيزيائية قابلـة للتقديـر، ومـا دام الزمن حينها لم يكن يعني شـيئا، فإن النهاية لم تعن بدورهـا أي شـيء. وبالتالـي، كان "الموت" و"الأجل" كلمتين لم تكتبا بعد في قاموس الوجود. إلا أن البقاء الأبدي كان من شأنه أن يصير مملا، لذلك منح الله مخلوقاته موهبة القرار. وكانت هذه تعني أن يملك المخلوق الحق في تقرير متى وأين يمكنه أن يكف عن الأبدية. وهي الموهبة التي امتلكها ريمـاس مـن دون أن يكـون علـى علم بهـا. غالبا، لأنه كان يعيش في شـقة يتباطأ فيها تدفق الزمن، بحيث أصبحت شقته امتدادا لعالم ما قبل الوقت.

سـؤال "المغـزى مـن الوجود" لم يكن وحده ما يشـغل ريماس إيمي ساك. ثمة أسئلة كثيرة احتشدت داخل رأسه لأزيد من أربع سنوات، جعلته يزداد ريبة مع مرور الوقت، حتى تصور في لحظة ما، أنها ملأت ذاته بنحو جعلت من فعل الكتابة أمرا مستحيلا بوجودها. كل تلك الأسئلة تدور حول حياته الكئيبة التي صار يعيشـها منذ وفاة زوجته وهجران ابنته له: لماذا لم يعد يتذكر شيئا عن ماضيه قبل أن يصبح كاتبا؟.. من كانت أمه وكيف كان شـكل أبيـه؟.. هـل له أصدقـاء من تلـك الحقبة أو حتى زمـلاء عمل؟. ثم فيـمَ كان يعمـل قبـل أن يبدأ في الكتابـة، وأين كان يقيم قبل انتقاله إلى هذه الشـقة؟.. ولمـاذا يشـعر بأنه أصبـح لا يتذكر وجه ابنته.. ماذا كان اسـمها؟ وزوجتـه.. متـى تعرف عليها، وبأي شـيء توفيـت؟.. هل كان وفيا لها رغم رغباتـه الجنسـية المتنامية التـي تطلع فـي رواياته؟.. هل كان حقا شـخصا شـهوانيا مثلما تصوره أعماله؟. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يشـعر بأنه لم

يمارس الجنس أبدا، وهل بالفعل مارسه من قبل؟ وإن لم يفعل، فكيف أنجنب من زوجته؟.. وهذه المسماة جميلة بوراس، من تكون؟ ولماذا كتب شيئا عنها، كلما استذكره شعر أنه عن ابنته؟.. أيمكن أن تكون هي ابنته؟!. ثم ما باله لا يشعر بأن شقته التي يعيش فيها هي الشقة التي يتصور أنه يعيش فيها؟.. منذ متى لم يخرج من غرفة مكتبه إلى غيرها من غرف؟.. منذ متى لم يشعر بالجوع ويطبخ لنفسه شيئا أو يطلب أكلا جاهزا يحمل إليه؟. والأهم من كل ذلك، لماذا أصبح في كل مرة يستيقظ من نومه يجد نفسه جالسا في المكتب والوقت ليلا؟.. صحيح، منذ متى لم ير ضوء النهار وشوارع العاصمة التي يحب الكتابة عنها؟.. أتلخص العالم بالنسبة إليه في زقاق ضيق ومنظر بائس لمقهى لا زبائن فيها؟...

كان هذا، بعض ما يحتشد في رأسه من أسئلة. لكنه هذا اليوم، قرر أن يبدأ في الإجابة عنها. سيكون أول سؤال يجيب عنه، ما تعلق ببقائه غير المبرر في غرفة مكتبه. هكذا قام من مقعده وتوجه نحو الباب وهم بفتحه.

للحظة تردّد كأنما خشي من أن يجد شيئا غير متوقع خلف الباب. ولكنه ما أن استعاد يقينه حتى رن هاتفه النقال.

عاد مهرولا إلى مكتبه حيث وضع الهاتف منذ قليل. لقد وصلته رسالة قصيرة. كان الرقم مخفيا هذه المرة أيضا، ولكنه رغم ذلك فكر في أن تكون لوكيله السيد هنري دوكلار، وهو رجل فرنسي تعاقد معه منذ عقود ليمثله لدى دار نشره في باريس.

فتح الرسالة وقرأ: "افتح إيميلك، هناك رسالة عليك أن تقرأها".

لم تكن هذه طريقة هنري دوكلار في المخاطبة. ومع ذلك لم يشأ ريماس أن يفقأ عين حسن الظن وفتح إيميله ليجد العشرات من رسائل المعجبين والمتذمرين من طول انتظارهم لروايته القادمة. في الوقت الراهن، لا وقت لديه ليقرأ تلك الرسائل. ربما يمنحها بعض الوقت لاحقا ولكن ليس الآن.

فتح رسالة بعنوان "ماذا لو علمت أنك ستموت قريبا!..". لم يشأ أن

يضيع وقته في معرفة اسم المرسل أو حتى إيميله، فتلك مسألة يسيرة تقبل التأجيل.

قرأ هامسا وكأنه رغب في أن يؤكد همسُه لأذنيه ما يُطبع من كلمات على مقلتيه:

"أظن أن الأمر قد حان لنسوي حساباتنا. لقد استغرقني التفكير أربع سنوات كاملة لأقرر أمرا كان يجدر بي أن أقرره قبل عقود خلت. ولكنه التردد والأمل الزائف في أن تفي بوعدك لي ما منعاني وقتئذ من اتخاذ القرار السليم.

لقد وثقت بك، إلى درجة أنني غيرت لغتي من أجلك حتى نتمكن من التواصل معا. ما شأني أنا بالفرنسية وإن كنت متمكنا منها لأجعلها لغتي. ولكنني وقتها قلت لنفسي لا بأس من التضحية من أجل هدف أسمى. لم أفكر أبدا في مكنة خيانتك لي من أجل الظهور في العالم كما يعرفك الناس الآن. يقولون بسذاجتهم: "إنه ريماس.. ريماس إيمي ساك، كاتب الروائع"، حتى صدقتَهم ونسيت أنك مجردٌ من كل موهبة. إن كل ما كتبته أنت لا يعدو أن يكون إلا زبدا، أية موجة تافهة تمحوه من الوجود.

إنني أتهمك سيدي بالقتل وأملك الدليل.

أتهمك بخيانة الأمانة وأملك الدليل أيضا.

أتهمك بنكث العهود ولي في ذلك ألف بيّنة.

إنني أتهمك بسلب ما لم يكن لك قط، فأنت مجرد مدّع، كاذب، سافل وحقير.

في النهاية أتهمك بانتحال شخصية ليست لك.

بعد كل هذا، لا أرى حكما يجبر ما أحدثت في عالمنا من ضرر إلا الموت.. سيدي أحكم عليك بالموت، وسأكون أنا الجلاد الذي يمعن القتل في شخصك.

ومع ذلك لن أفعل ما فعلته أنت منذ أربعة وثلاثين عاما حين اقترفت جرمك الآثم في حق من تعلم ومن دون أن تمكنه من الدفاع عن نفسه.

سأمنحك سيدي خمسة وعشرين يوما من الحياة، هكذا سيتسنى لك تقديم ما تشـاء من دفاع يسـقط الحكم عنك. خمسـة وعشـرون يوما، مهلة كافية لتبرئ نفسك أو تعترف بآثامك.

الآن يا سـيدي. أتعتقد أن ما اقترفته يسـتحق؟. أحقيقة تشـعر بالرضا على نفسك وعلى وضعك البائس؟!.."

***

كانت هذه الرسالة كفيلة بأن تنسي ريماس رغبته في الخروج من غرفة مكتبـه منـذ حين. ولعلها جعلته بطريقة مباغتة يتجاهل ملايين الأسـئلة التي ملأت رأسـه، ومع هذا تمكنت بطريقة مؤلمة في جعله يجيب على سـؤال المغزى من وجوده. إنه ومع ما يشعر به الآن من خوف وارتباك، مدرك أن مغـزى وجـوده فـي هذا العالم لم يكـن أكثر من وجوده بحد ذاته.. لقد كان مكتفيا بالحياة وسيظل كذلك حتى وإن خلت من أي إبداع.

لا تحتـاج، دائمـا، كل الحقائـق لظهورهـا إلـى نوع قاس مـن التأمل، فأحيانـا تظهـر مـن غير جهد يذكر. ثم إنه عادة ما يكون للحقيقة طرق غريبة للظهور.

مهما يكن. لم يستمر ارتباك ريماس إيمي ساك وقتا كبيرا. على الأقل، لم يرتبك طويلا بحسب تقويم مكتبه المبطئ للزمن. بحيث إنه وبمجرد أن انتهى من قراءة الرسـالة للمرة الخامسـة، شـرع في خطوات عملية تسمح له لاحقا بمعرفة الشخص المرسِل.

بدأ كخطوة أولى بحفظ عنوان المرسِل الإلكتروني. أعاد كتابته بخط يده على قصاصة ورقة بيضاء وجدها على سـطح مكتبه " telfer@gmail.com". لم يكن ذلك يعني أي شيء في هذه المرحلة. ثم ألصق الورقة على إطار الحاسوب.

هذه الرسالة أشعرته أن سره الكبير الذي احتفظ به في سرداب ذاكرته عـاد ليجعلـه مجبـرا على المواجهة. في الحقيقة كان يعلم أنها مسـألة وقت

فحسـب، ولكنه أمل أن لا يظهر سـره إلا حين يكون الوجود قد لفظه بعد عقود أو قرون ربما.

بعد قراءته الخامسـة للرسـالة، وضع سطورا تحت بضع كلمات بدت لـه أنهـا مفاتيح نفسـية لصاحب الرسـالة. لقد علمتـه التجربة أن لكل واحد بصمة كتابية تختلف عن بصمة سواه، بحيث ومهما بدا الكلام متشابها، فإنه يخلف في ألفاظه وفي طرائق بناء جمله وحتى بين سطوره آثارا تختلف من واحـد إلى آخر. وربما سـيأتي الوقت ويوجِد العلـم للبصمة الكتابية تطبيقا جنائيا كما أوجده سابقا للبصمة الجلدية والوراثية.

كانت الكلمات والجمل التي وضع تحتها سطرا هي: نسوي حساباتنا، هدف أسمى، سيدي، "الوعد – العهود".

في النهاية، كتب الملاحظات التالية:

- نسـوي حسـاباتنا: تؤكـد هذه الجملة أن الرجـل على معرفة أكيدة بي، أو على الأقل يعتقد هذا النوع من المعرفة.

- هـدف أسـمى: إنـه رجل مثالـي، حالم. هو من النـوع الذي يعتقد بقدرة الأشياء والمخلوقات على بلوغ الكمال.

- سيدي: هذا رجل يعتقد بوجوب احترام أي واحد مهما كان وصفه، كما يؤكد توظيفه لهذه الكلمة في أكثر من موضع، أنه ميال للإخضاع.

- "الوعـد- العهد": يؤكد هذا التوظيف لكلمتين مختلفتين تحملان نفس المعنى وفي حيز الرسالة الضيق، أن صاحبها غير قادر على الحزم في اختيار كلماته. إنها تؤكد أننا أمام شخصية مترددة في قراراتها، أو أن قراراتها ليست نهائية على الإطلاق.

فـي الأخيـر، ختم اسـتنتاجاته بالملاحظة التاليـة: "يبدو أنه تهديد غير جدّي. ومع ذلك من الأفضل التيقن منه بطرق أخرى".

وفي غمرة سعادته بانتصاره الأوليّ. تساءل ريماس عن الأخطاء التي مـن الممكـن أن يكـون قـد قـام بها، فهو بقدر مـا يتذكر رتـب للأمر جيدا. درس جميع الاحتمالات الممكنة لجريمته، ثم أخذ يراقب داخل رأسـه ما

قد يترتب عنها في الحقيقة، ليختار في النهاية طريقة لا تجعله بعيدا عن كل شبهة فحسب، بل تجعل من وقوع الجريمة أمرا مستحيلا.

أي طالب غبي في القانون كان ليقول بأنها جريمة مستحيلة، فلا أحد يمكن أن يقتل رجلا ميتا بالفعل. وهو بالضبط ما اقترفه ريماس في حق ضحيته تلك. صحيح وبطريقته الشيطانية جعله يبدو كالميت قبل أن يقتله، ولكنه مع هذا كان ميتا بالفعل وقتما أجهز ريماس عليه.

لم يكن ما اقترفه ريماس إيمي ساك إلا جريمة كاملة يستحيل تأكيد وقوعها أو إيجاد دليل واضح أو قرينة تشير إلى علاقته بالجرم. هذه كانت نقطة أخرى تؤكد عدم جدية التهديد الذي وصله للتو.

***

مع كل تلك التطمينات التي انتهى إليها من كون التهديد بكشف السر غير جدّي، لم يكن ليقبل بتجاهل أي احتمال، مهما بدا سخيفا، قد يقوده إلى الهلاك. فكر وهو يتأمل المسألة بشكل أعمق، في أن عليه الاستعانة بأحد يفهم في أمور التحقيق. لم يكن إبلاغ الشرطة أمرا محتملا بالنسبة له، فذلك يعني أن يفتح على نفسه بابا من الهباء فتحه (من أين أخذ هذا التعبير؟!). لذلك فعليه أن يستخدم محققا من نوعية خاصة.

حينها، تذكّر رجلا لطالما علم دوما أنه يتحين الفرص لخدمته.. كيف كان اسمه؟. لم يعد يتذكر. كل ما تذكره أنه كان شرطيا فاسدا تعرف عليه في مقهى "ثلاثون" مع شلة من الأصدقاء غريبي الأطوار، ما كان ليجمعهم مكان آخر سوى تلك المقهى. ومع أنهم بدوا مختلفين، إلا أن انسجامهم الغريب فيما بينهم، جعله يرغب في التقرب إليهم ومن ثم توظيفهم في أحد أعماله.

كانوا ستة: شرطي، عاهرة، مغامر مستهتر، سائق تاكسي، عتال يعمل في سوق خضر، ورجل طويل بوجه أوروبي، تزينه لحية شقراء.

ومع أنه كان قد وظف الشرطي في عملين سابقين، فإنه هذه المرة

وظفهـم جميعـا وبشـكل غايـة في الغرابة فـي روايته الثالثـة. وبنحو ما، قام بتجريـد الشـرطي مـن كل صفاتـه الأخـرى غيـر الفسـاد. وحيـن أدرك أن الشـخصية الحقيقيـة للرجـل الطويل قـادرة على ابتلاعه قـام بتقزيمها وهو يكتـب عنهـا. وباسـتثناء هذين التعديليـن، لم يبتدع ريماس إيمي سـاك في روايته أي شيء مثير. لم يكن في روايته تلك إلا مجرد محرر لقصة حدثت حقيقة، ومع هذا طمس الحقيقة كما اعتاد أن يفعل بالعبارة الشهيرة "إن كل تشابه بين أحداث وشخصيات هذه القصة مع الواقع مجرد صدفة".

الفصل الرابع

- أشعر بالبلادة حين خيّرتك بين الشاي والقهوة.

قال النادل للرجل الطيّب بمجرد أن وضع فنجان القهوة على الطاولة. أضاف مبتسما:

- وأنا أعدّ قدحك تذكرت من تكون، والأهم من ذلك من أين جئت. أنت فرنسي وكان من البلادة أن أعرض على فرنسي كوب شاي. هذا أمر لا يساويه حمقا إلا أن تقدم إلى إنجليزي فنجان قهوة من دون أن يطلبه.

وضحك بآلية جعلت الرجل الطيب يدرك أنها ليست خفة روح بقدر ما هي من متطلبات العمل. ومع ذلك سعد بأنه لم يعد نكرة لدى النادل.

قال بعد أن ارتشف من فنجانه:

- أحسب الآن وقد عرفتني، تتساءل كيف فعلتُ لأشيخ على هذا النحو؟

- صحيح.. لم يكن يجدر بك أن تصير إلى هذا العمر، ولا يفترض أن يتقدم أحد من الزبائن عن سنه التي وظف فيها.

- هذا يعتمد على ما إذا بقي الموظف في وظيفته. منذ أن ألقى بي ذلك النذل في تندوف، وأنا أحاول جهدي أن أجد سبيلا للخروج منها. أتدرك ما اكتشفتُ بعد سنين من المحاولة؟.. إن الاستقرار الذي وعدنا به صاحب العمل لم يكن إلا وهما. إن ما منحنا حين وظفنا لم يكن أكثر من أبدية زائفة، تماما كالتي قد تمنح لرجل كسيح، ما عساه يفعل بها يا صديقي.

وأخذ الرجل يسرد بالتفصيل كيف فرّ من وظيفته، وكيف حين فعل هذا اكتشف أن الموت والحياة مترادفتان لكلمة واحدة. ثم عرج على اكتشافه الأعظم المتمثل في قدرة الإنسان على فض بكارة الزمن، ليصير

مطواعـا لديـه، تمامـا مثلما فعل وأدرك حقيقة العالم الـذي كان يعيش فيه.
"إنه عالم واقع خلف المرايا، يجعلك تتصور أنك غير حقيقي تماما، ولكنك حيـن تعـود لتعيـش الحيـاة التي قدرت لـك، وتتمكن بفعل تلـك الحياة أن تنعكس في مقل من تعيش معهم، يتملكك شـعور آخر بأنك موجود فعلا. إنه يا صديقي عالم يجعلك مرئيا وغير مرئي، ظاهرا وغير ظاهر في الوقت نفسه".

بهذا حاول أن يشرح للنادل وجهة نظره، ومن هنا بدأ في شرح نظريته بخصوص علاقة الانعكاس بالوجود. فبحسب ما توصل إليه، فإن انعكاس الأجسـام علـى المرايـا، بقدر ما هـو دليل معقول عن وجودهـا المادي في الواقـع، بقـدر مـا هو دليل عـن انتفاء وجودها أيضـا. لأن المرايا لا تعكس من الأجسـام المعروضة عليها إلا بعدين منها فحسـب. أما الأبعاد الأخرى للجسم فتبقى مخفية خلف ما يظهر في الانعكاس. إن هذا يعني أن الاستمرار في عرض تلك الأجسام لوقت طويل على المرايا، هو تكريس لبُعدين فقط من الجسـم المعروض عليها. ما قد يفسـر على أنه إصرار على إفناء الأبعاد الأخرى بما يظهر من الجسـم. إلا أن اسـتمرار الجسـم في الوجود يسـتلزم استمرار كل أبعاده في الوجود ، وهو أمر يستحيل لفناء بعضها.

ومـع ذلـك تبـدو مراوغة هذا القانون الرابط بيـن الانعكاس والوجود أمـرا ممكنـا إذا أضيـف للنظريـة عامل الزمن، فعرض الجسـم الأبدي على المرايا يحيله إلى الفناء أسـرع مما يحيل الجسـم محدد الأجل. لذلك، فقد كان الرجل الطيب يعتقد أن تطبيقات نظريته لا تهم الإنسـان في النهاية، ما دام كائنـا محـدد الأجـل. فمهما عرض نفسـه على المرايا فلـن يعرّضه هذا للموت. لهذا تمنى وهو يعود إلى مقهى "ثلاثون" أن يجد صاحب المقهى ليطلـب منـه أن يعرّفه علـى بعض موظفيه ممن يمتلكون "موهبة القرار" من أجل تطبيق نظريته عليهم.

كان الرجـل الطيـب مقتنعـا بنظريته، بدليل أنه حين طبقها على نفسـه تمكـن مـن الإفـلات مما خال أنـه مصيره المحتوم. بالطبـع حين فعل هذا،

استعمل "موهبة القرار" التي أدرك أنه يمتلكها حين لاحظ بعد مضي سنوات من إقامته في تندوف، أنه لم يكن يتقدم في العمر. وبمجرد أن استعملها، دفع بعجلة الوقت، ليبدأ العداد في احتساب عمره المتبقي.

***

ووقتما كان الرجل الطيب يتهيأ لبلوغ نهاية حديثه، شاءت الصدف أن يلمح النادل خيال رجل آخر يقف أمام باب المقهى. لهذا قام لفوره ليتأكد من يكون. وما هي إلا لحظات حتى عاد بوجه شاحب وعينين سارحتين.

أدرك الرجل الطيب أن صاحبه على غير ما يرام، لهذا قال مازحا:

- وكأنك رأيت شبحا للتوّ؟!..

- لقد كان كذلك. أقسم إنه كان كذلك.

لم ينبس الرجل الطيب ببنت شفة، وترك الصمت يذرع المسافة بينهما حتى أضاف النادل:

- أتذكر الشاب الذي كان يجلس برفقة ريماس على تلك الطاولة؟.

وأشار إلى طاولة بمقعدين، منزوية بآخر المقهى.

أضاف:

- أكاد أقسم أنني رأيته منذ حين.

أجاب الرجل الطيّب بخفوت:

- مستحيل.. تعلم مثلي أنه مات..

- هذا ما خلته أنا أيضا، لكنني متأكد أنه كان هو، كتأكدي من أنني في الأسابيع الماضية صرت أراه كل يوم يقف عند الباب من دون أن يدخل. بالأمس كان أيضا هنا، في مثل هذه الساعة بالضبط، وفعل نفس الشيء. ثمة أمر في نظراته يجعلني أعتقد أنه حين ينظر إلى هنا لا ينظر حقيقة إلى هنا.. أعني.. أقصد..

قاطعه الرجل الطيب:

- تقصد أنه لا يرى ما هو متواجد أمامه. لم يعد يرى المقهى؟!

- بالضبط.. بالضبط..
- ومع هذا يستحيل أن يكون هو. لقد مات منذ أمد. أنت أدرى بذلك مني.
- بالطبع، لا يساورني الشك في هذا، فقد أخبرني صاحب المقهى بكل التفاصيل وهو كما تعلم لا يخطئ أبدا.
- أما أنا فلم يعد بمقدوري أن أجزم بأي شيء.

ومدّ يده إلى محفظته التي كان قد وضعها منذ حين على الطاولة وسحب مظروفا ضخما وسلمه للنادل.

قال وهو يشاهد حيرة صاحبه:

"قبل أن تسألني عن هذا، دعني أشرح لك بالتفصيل أسباب عودتي الحقيقية. منذ أسبوع وجدت هذا المظروف على عتبة بابي. لم يكن يحمل أي تنويه يبرر وجوده هناك ولا أية إشارة تدلّ على مرسله. المهم حين فتحته أدركت أنه مخطوطة كتاب. كُتب على الصفحة الأولى "اقرأه صديقي، بعدها ستعرف ما العمل؟". وهكذا فعلت لأكتشف أنه لم يكن إلا رواية عن سيرتي، كتبت بتفصيل أعجزني حتى أنا صاحب السيرة.

لم يكن الكتاب موقّعا، وكان هذا متعمدا لأنني بعد الانتهاء منه فهمت الغاية من كتابته. لم يكن هذا الكتاب إلا محاولة من صاحبه لمنع الموت عن أحدهم. أعترف الآن أنني كنت مخطئا حين تصورت أن المهدد في حياته كان صاحب المقهى، فالإشارات التي وجدتها في الكتاب كانت تتحدث عن رجل يستغل حيوات الناس في كتاباته ومن ثم يوظفهم فيها، بحيث يجدون أنفسهم من دون أن يشعروا مجرد مساجين داخل رأس الكاتب. كان يمنحهم شيئا يشبه الأبدية مقابل أن يمنحوه الحق في تقرير مصائرهم. الآن أدرك أن المعني بهذا الكتاب هو ريماس إيمي ساك. لقد كتبه أحدهم ليضع ريماس اسمه عليه. هكذا يكسر لعنة الثلاثين ويضمن لنفسه أبدية غير تلك التي تصورها.

عليك صديقي أن توصل إليه هذا الكتاب بأية طريقة، فلربما بعد نشره

ينجو من القتل، وننجو نحن أيضا معه."

ومن دونما مقدمات، انصرف الرجل الطيب مهرولا، تاركا المخطوطة بيـن يـدي النادل. وبمجرد أن اختفت قفاه عن ناظريه حتى شـرع النادل في قراءة المخطوطة:

" سيباستيان؟!.. نعم، لا زلت أذكر هذا الاسم. فقد كان هذا اسمي الأول..

ولدت في شهر ڤاندمبير[1] بشارع القديس هونور، حيث كانت أشباح الحالمين أمثالي تمنع الضياء من بلوغ أجسـادها، وقد طوّقتِ التويلري من كل جانـب، وأنـا أرانـي بينهـا، واقفا، وقد أدركت للتو أيـة خطيئة اقترفت.. هكذا أقول لخلّاني كلما سـألوني عن مولدي، وليس يحضرني إلا الموت يتحسـس وجهي وتعكسـه مقلتاي معلقا على جدران كنيسة القديس روش، وكأنه يسأل الشيطان المزيد من الجثث. ومع أن جسدي لم يكن بينها، فقد أدركت أن الجندي الذي كنته قد مات بطعنة الحقيقة.

ففـي السـابعة عشـر مـن العمـر ولدتُ مـن جديد، وبفمـي طعم دماء ساهمتُ في سفكها، حين أجبرني قائدي أن أضرب بالمدافع عُزّلا لا ذنب لهـم إلا أنهـم صدقوا وهما حسـبتني أدافع عنه، وأنا أصـرخ "تحيا الثورة.. تحيا الثورة"، وفي ظني أنني أصرخ بالحق.

فـي الحقيقـة، لـم أكـن أصرخ إلا بالمـوت. وما كان لشـيء أن يحيا، غير جنون ذلك الكورسـيكيّ اللعين السـائر على بحر جثث، تغرقها أمواج الدماء، وهو سـعيد بعربون الشـقاء الذي قدمه لمجده، هذا الذي ادعى أنه مجد فرنسا التليد.

أية لعنة أصابتنا حين قررنا أن نصافحه؟. أم أن الألف والأربعمائة جثة لـم تكـن لتجعلنا ندرك – كما أدركت أنـا يومها – الهول الذي نعانق ونحن ننكث بوعود الثورة وعهودنا للرب أن نكون إخوة، سواسـية تحت سـمائه

(1) من شهور التقويم الفرنسي القديم.

حتى ساعة يدركنا الموت؟..

هكذا خرجتُ مني إليّ أول مرة، لأعاهد السيّدة العذراء أن لا أحمل في يدي، مجددا، هبة الموت. أقسمت لها ولجميع القديسين على أن أتوب مـن خطايـاي وأبـدأ من جديد. هذا ما تلفظت به عشـية الخامس من أكتوبر 1795 علـى مسـمع القديـس جيـروم بمصـلاه[1].. أنا سيباسـتيان هنري دي لاكروا[2]، ابن روز بيير ماكسمليان، وهنري المعروف بجوزيف، أشهر بائعي السمك في سوق طولون. ".

---

(1) إشارة إلى مذبحة قصر التويلري التي قادها نابوليون بونابارت والتي صنعت اسمه لاحقا.

(2) إحدى شخصيات رواية "هلابيل" لسمير قسيمي.

الفصل الخامس

احتاج الأمر وقتا ليرفع عثمان بوشافع سماعة هاتفه. فمنذ خمسة أيام وهو يرن مرتين أو ثلاثا في نفس التوقيت من كل ليلة. ولأن رقم المتصل لم يكن معروفا، لم يشأ أن يغامر ويرفع السماعة ليكتشف على الطرف الآخر أي شخص ممن لا يحب ولا يقدر على مكالمتهم في الوقت الحالي. لقد مضت إحدى وثلاثون سنة منذ آخر حديث جدي أجراه مع أحدهم، ومنذ ذلك الوقت وهو يحاول أن يتوب من خطاياه التي كلفته غاليا. وكانت الثقة في نفسه آخر ما كلفته خطاياه.

ومنذ تسـريحه من العمل بسـبب تخليه عن منصبه كمحقق شـرطة من دون عذر، وهو يعيش حالة انتظار مزمنة أملا في أن تتحسن الأوضاع. كان يعلـم أن الرجـل الـذي وظفه منذ البدايـة والذي بدوره أوهمه أن لديه عملا له يسـتحق كل تضحية بما فيها فقدان عمله الأول، هو الوحيد القادر على إخراجه من الدائرة المفرغة التي صارت حياته منذ عقود. ولكن هذا الرجل، وبمجـرد أن هـام عثمـان بوشـافع على وجهه بحثا عن حقيقـة كلفته منصبه كمحقق شرطة، اختفى وكأنه لم يكن.

صحيح أنه كان يقرأ اسمه على صفحات الجرائد كل يوم، ولكن شيئا ما أفقده القدرة على تتبعه ومن ثم الوصول إليه لتذكيره بوعده له. كان هذا الرجـل يملـك قـدرة غريبـة في إعجـاز كل مقتفٍ لأثره، حتـى هو المحقق الـذي لـم تعجـزه آخر قضية تولاها منذ أزيد من ثلاثين عاما، والتي بسـببها اعتبر مقصّرا في عمله، لم يسـتطع الوصول إليه. كل ما يعلمه عنه أن اسـمه "ريماس إيمي سـاك"، وأنه كاتب مرموق يكتب بالفرنسـية، يسكن شقة تقع فـي عمـارة تطـل إحدى غرفها على زقاق ضيق من دون منفذ، تقع في آخره مقهى اسـمها "ثلاثون". وهي التي لم يتمكن من إيجاد موقعها مرة أخرى،

رغم أنه كان من زبائنها لثلاث سنوات كاملة.

إلا أن سبب إدمانه للانتظار، هو إيمانه بأن ما حدث له وما قد يحدث له لاحقا كان لتحقيق غاية ما. بمعنى أنه كان يعتقد بغاية الوجود، حتى وإن بدا هذا الوجود في شطحاته غير مفهوم على الإطلاق. لذلك لم يكن يأبه بطرح أسئلة يرى ألا جدوى من طرحها. ولو أنه فعل، لتساءل كيف يمكن لأي شخص أن ينسى موقعا ارتاده ثلاث سنوات بشكل منتظم، وكيف اختفى أصدقاؤه الذين اعتاد مسامرتهم في مقهى "ثلاثون" كل تلك السنين، وكيف يمكن لمحقق متمرس مثله أن تعجزه مسألة تافهة كتلك المتعلقة بمكان ريماس إيمي ساك، وهو الرجل الشهير صاحب الثلاثين مؤلفا. ولو فعل أيضا لتساءل عن السبب الذي جعله لأزيد من ثلاثة عقود لا يخرج من منزله أو حتى عن السبب الذي جعله لا يتقدم في العمر قيد ثانية رغم مرور كل تلك السنوات.

ولكنه لم يسأل عن ذلك لأن الانتظار عنده صار إدمانا على الأمل.. أمل أن يعاود ريماس الاتصال به ويفي بوعده له.

ربما لم يكن عثمان بوشافع مخطئا في اعتقاده، ففي تلك الليلة المباركة بالنسبة إليه، قرر أن يتجاوز مخاوفه ويرفع سماعة هاتفه. وكان الرقم نفسه ككل ليلة منذ خمس ليالٍ. لهذا حين رفع السماعة لم يبادر بالحديث. أراد أولا معرفة صوت المتصل ومن ثم يقرر هل يستمر في الكلام أم يقطع الخط.

- ألو.. عثمان، معك ريماس إيمي ساك.

"أيعقل أن يكون هو؟!". فكر عثمان للحظة قبل أن يجيب:

- السيد إيمي ساك.. الكاتب الشهير.

- هو بعينه يا أحمق. لا وقت لدينا لنضيعه. هناك أمر خطير علينا تباحثه.

حتى وإن أكد الصوت أنه لريماس، فقد ساور عثمان بوشافع بعض الشكوك. فقد بدا له أن صوت محدّثه رخوا، خافتا بالكاد تلتقطه الأذن.

حتى إنه كان صوتا لا يليق إلا برجل ضعيف تحمل نوتاته بعض الوهن. أما ريماس الذي عرفه قبل عقود فكان يملك صوتا قويا بنبرة صارمة، توحي إلى من يصغي إليه أنه في مواجهة رجل سيسود عليه يوما.

كان هذا التحليل رغم بساطته، مبعث سعادة هائلة غمرت عثمان بوشافع على حين غرة. لقد استعاد للتو قدرته على التشكيك، وهي كما يعلم أهم ما يشترط في شخصية أي محقق طموح. لم يعد ثمة من شك، لا بد أن الذي على الطرف الآخر من الخط هو ريماس إيمي ساك بشحمه ولحمه. وحده من كان يملك القدرة على بعث هذه القدرة فيه. فلسبب يعرفه وغير قادر على البوح به، كان يؤمن أن مواهبه التي فقدها كمحقق لن تعود إلا بنقرة من يد ريماس. تلك النقرة لم تكن إلا هذه المكالمة بالذات.

يمكنه الآن أن يطمئن نفسه ويتحدث مع السيد إيمي ساك من دون ريبة. أما عن صوته المختلف، فسيقول لنفسه أنه بسبب السنين التي انقضت، فالأشياء لا يمكن أن تبقى على حالها مع الوقت. هذا ما فكر فيه عثمان أيضا، رغم علمه أن الوقت لا قيمة له بالنسبة لريماس، وأنه هو وكل أشياء عالمه لا يمكن أن تتأثر بالزمن.

- تفضل سيدي. أنا في خدمتك، لطالما كنت أعلم أنك ستستعين بي مرة أخرى.

ومن دون مقدمات، أخذ ريماس يشرح لعثمان سبب اتصاله به. أخبره عن الرسالة التي وصلته وعن التهديد بالقتل الذي تلقّاه وعن المهلة التي منحها إياه له القاتل وقد انقضى منها خمسة أيام.

- ولكنك سيّدي تقول أن تحليلك التعبيري لرسالته تجعلك تعتقد أن تهديده غير جدّي. "قال عثمان حين انتهى ريماس من عرضه للوقائع".

- صحيح، ولكن حدث ما جعلني أعيد التفكير في المسألة، فمنذ بداية المهلة التي منحني القاتل، بدأت أشعر بالوهن. كل يوم يمر أزداد ضعفا، حتى إنني اليوم فقدت القدرة على استعمال ذراعي اليسرى. لو كنت معتادا على الخروج أو حتى على استضافة الناس في بيتي، لظننت

أنها أعراض سم بطيء يسري في دمي. ولكنني أؤكد لك أنه أمر يستحيل حدوثه. مهمتك الآن أن تجد القاتل بأية طريقة. افعل أي شيء لتجده قبل انتهاء المهلة، وبعدها أعدك أنني سأمنحك الحياة التي رغبت دوما فيها.

- أيعني هذا أننا لن نلتقي؟!

- لا.. لا يمكننا أن نلتقي إلا حين تنتهي من مهمتك.

- ولكنّني أفكر أن أبدأ التحقيق من عندك، على الأقل من المكان الذي تسكن فيه. ربما أحدهم رأى شيئا، من يدري؟..

- افعل ما تراه مناسبا ولكن لا تحاول رؤيتي. ستكون العواقب وخيمة لو فعلت.

- هناك مشكل يعترض التحقيق..

قاطعه ريماس:

- أعرف.. لم تعد تعرف على وجه الدقة موقع مقهى "ثلاثون". لا تهتم للأمر، سأفعل ما يلزم لأدلّك عليها. كل ما عليك الآن أن تشرع في البحث عن هذا السافل.

- هناك نقطة أخرى.. عليّ أن أعرف الحقيقة..

- أية حقيقة تقصد؟!

- هل قمت بالفعل بقتل الشخص الذي تتحدث عنه الرسالة؟.

وقطع ريماس إيمي ساك المكالمة. حينها أدرك عثمان بوشافع، أن ما يجب فعله الآن هو التأكد من المعلومات الواردة في الرسالة، والأهم من ذلك معرفة ما إذا قتل ريماس أحدهم حقا.

الفصل السادس

وبمجـرد أن قطـع ريمـاس إيمي سـاك المكالمـة، أدرك فظاعة الخطأ الـذي اقترفـه للتـوّ. لـم يكن يجدر به عدم الردّ على سـؤال المحقق، فذلك من شـأنه أن يفتح له باب الفضول على مصراعيه. لاسـيما إذا كان المحقق هو نفسه عثمان بوشافع.

إنـه يذكـر جيـدا مـا بذله من جهد ليجهض جهود عثمان حين أمسـك بتلـك القضيـة التـي كان يرغـب إيمـي سـاك أن تبقى غامضة مـن غير حل. وهو يعترف الآن أنه هو من اختار عثمان بوشـافع لتوليها وهو يظن أنه من البـلادة والفسـاد ما يجعـلان إمكانية حلها أمرا مسـتحيلا، ولكن في النهاية فاجـأه عثمـان حيـن قرر الاسـتمرار فـي البحث. ولـولا أن ريماس كان من الفطنـة وقتهـا ووجـد حلا مناسـبا، لتمكن عثمان من الوصـول إلى النهاية، وهـو مـا كان مـن شـأنه أن يُحدث كارثة بالنسـبة إليه وإلى كتابـه الذي ألفه مستغلا شخصية عثمان.

أول مهمة كلفه بها كانت منذ أربع وثلاثين سـنة. كان عثمان بوشـافع وقتهـا ضابط شـرطة فـي المحافظة السادسـة بالجزائر العاصمـة، وكان من البدانة والتكرّش ما جعله يدرك أول ما وقعت عيناه عليه، أنه الشخص الذي يبحث عنه ليسـتغله في عمله الروائي الأول. فقد كان يحتاج إلى رجل فظ من دون أخلاق، بملامح جسدية منفّرة.. كيف وصفه آنذاك.. ما زالت تلك الفقرة التي اسـتعملها في وصف عثمان تبعث في نفسـه الكثير من السـرور: "لقد ترك مشهد الشرطي أثرا في نفسي. كان في طوله يشبه إنسان نياندرتال ولكنه أكثر بدانة، فقد خيّل إلي وهو يدخل الرواق أن بطنه العظيمة وصلت إلى حيث كنا قبل أن تفارق قدماه عتبة قاعة الاستقبال. في حين كانت جبهته عريضة كسـبورة سـمراء، رسـم عليها الزمن أخاديد لم تزده إلا قبحا يضاف

إلى قبح وجهه المستدير المفرط في الدهن، في وسطه أنف عريض يرقد على شارب أضربت عنه الشفرات، فكان نسيا منسيا"[1].

ومع هذا، كان يعترف أنه وإن تذكر بعض ملامحه فقد أضاف إليها ما جعل المحقق تجسيدا مضحكا للبشاعة. ليس لأنه كان يمقت عثمان لأي سبب، بل لأنه في تلك المرحلة كان يشعر بضغينة نحو كل مؤسسة تمتُّ بأية صلة بالسلطة، وسبب ذلك ما غرسه فيه الشاب الذي كان يجالسه في مقهى "ثلاثون" من حقد على السلطة أيا كانت. كان هذا الشاب روائيا مغمورا كتب أربع روايات بالعربية لم تبع منها ولا نسخة واحدة، دخل بالصدفة كما اعتقد مقهى ثلاثون، وفيها تعرف عليه ريماس وصادقه لثلاثين سنة لاحقة.

وقبل الخوض في تلك العلاقة. لا بأس هنا أن نوضح أمرا في غاية الأهمية. وهي أن الصدفة التي تصورها الكاتب الشاب لم تكن إلا محطة غير ظاهرة في الخارطة الكبرى، تلك التي كان ريماس إيمي ساك على معرفة بها، حتى إنه وهو يدخل مقهى "ثلاثون" كان يعلم وبالتفصيل أين كان الشاب جالسا وماذا طلب كمشروب أول، وحتى عدد القطع النقدية التي كانت في جيبه. وهو أيضا من أومأ للنادل أن يحضر للشاب علبة سجائر لعلمه المسبق بعدم حمله أية سيجارة، رغم أنه كان مدخنا مدمنا منذ وقت طويل.

المهم، أثر الشاب لأربع سنوات كاملة في ريماس إيمي ساك، بحيث كانت أعماله الأولى بشكل أو بآخر، أعمالا مناهضة للظلم وداعية لعدالة اجتماعية معينة. كان الشاب يؤمن بدور المثقف العضوي في أي مجتمع، وبالتالي بدوره النقدي أيضا. وهي مبادئ غرزها بنحو ما في رأس ريماس إيمي ساك، حتى أصبح من دون أن يشعر لسانا غير ناطق لهذا الشاب الذي تأثر به. إلى درجة أنه وفي لحظات شك نادرة كانت تنتابه، تساءل عن أصالة

---

(1) نسيا منسيا: تعبير خاص بالمترجم وليس مذكورا في النص الفرنسي بهذا النحو.

أعماله: هل كانت أعماله هو أم كتابات هذا الشاب وإن لم يقم بتحريرها.

وبمجرد أن أدرك خطورة تأثير هذا الشاب عليه قرر التخلص منه. بالطبع لم يكن قادرا على مفارقته في تلك المرحلة من حياته، فمهما يكن، فلا مناص من الاعتراف أن لهذا الشاب يدا في موهبة ريماس، وبطريقة ما، قد تكون هي الأكثر أصالة، كان هذا الشاب تجسيدا بشريا لموهبة ريماس. ولأنه كان على معرفة بتفاصيل الخارطة الكبرى، فلم يشأ أن يجازف بالتخلص من الشاب. لذلك أبقاه معه طيلة سنوات إبداعه الثلاثين.

أما نحن فسنجازف ونرفع الستر عن سر ريماس، سنقول بكل بساطة أنه وبعد أن نشرت راويته الثلاثين، قام بالإجهاز على صديقه. لقد كان أمرا بشعا إلى درجة أن الشاب وبكل مقدرته على الوصف – وكان وصَّافا رائعا بالمناسبة – ، ما كان ليصف ما حدث له وإن بُعث إلى الحياة من جديد. وكان هذا السرّ بالذات ما اكتشفه صاحب الرسالة التي وصلت ريماس إيمي ساك منذ خمسة أيام.

بيد أن أبشع ما في تلك الجريمة، هو أن ريماس لم يكن مجبرا على اقترافها، فبعد ثلاثين عاما من الملازمة، انقلبت علاقة التأثير بينهما، حتى لم يعد الشاب يؤثر حقيقة في ريماس. بدليل أنه ومنذ روايته الخامسة تخلَّص من مثاليات الشاب واقترب أكثر من نار السلطة، حتى إنه أصبح وفي وقت وجيز أهم كلابها المحترمين على الإطلاق. تهاطلت عليه الدعوات من كل جهة، وفتح لنفسه اشتراكا يوميا مع كل الجرائد، حتى لا يكاد يمر يوم إلا وتقرأ عنه شيئا مهما أو تافها. ولأجل أن يبلغ هذه المكانة لم يكن يجد حرجا في عمل أي شيء يضمن له البقاء على قمة الهرم. لن نعرض هنا أسماء كتاب فرض عليهم أبوته قسرا، ولا حتى دسائسه التي بسببها قبرت مواهب أكثر عبقرية منه، ولا كل تلك الجوائز الأدبية التي تحصل عليها بالعلاقات تارة وبالرشاوى والتهديد تارة أخرى. لن نفعل ذلك، لأنه بعد مقتل الشاب، تغيرت بعض التفاصيل الصغيرة في الخارطة الكبرى، بحيث أصبح كل تشهير يمس به، يمس بدوره الكاتب الشاب الذي لم يكتب قبل

دخوله إلى مقهى "ثلاثون" إلا أربع روايات، لم تبع منها ولا نسخة واحدة.

***

ربما تمنى ريماس إيمي ساك أن يُعلم عثمان بوشافع بهذه المسألة، إلا أن الأمر الآن – ولسوء حظه – خرج من بين يديه.

الأحرى أن نقول "خرج من يده". فقبل ساعات، استيقظ هذه الليلة بيد لم يعد قادرا على استعمالها. بدت ثقيلة على نحو أجبره على استعمال يده الأخرى لرفعها. أدرك ساعتها أنه سائر إلى الموت ببطء، فقبل خمسة أيام وهن أصبعان من كفه لتشل في اليوم الموالي كفه كاملة بحيث لم يعد قادرا على بسطها أو شدها. ثم في اليوم الثالث تجمد ساعده أيضا، ليمتد الشلل في اليومين التاليين ويشمل كل ذراعه.

لم تكن هذه مصادفة أن يتلازم شلله مع بداية العد العكسي لمهلة الخمسة والعشرين يوما. ما أصبح ريماس إيمي ساك متأكدا منه الآن، هو أنه في مواجهة مجرم عبقري وجد طريقة ذكية لتسميمه وقتله بالتدريج، وكأنه يستمتع بموته البطيء.

فكر وهو متأثر بفقدان اليد التي يكتب بها في أن ثمة طريقة أخرى، غير تحقيق عثمان بوشافع، تسمح له بمعرفة القاتل. كان يدرك أن في مكان ما من ذاكرته سيجد الشخص المطلوب. الاحتمالات كثيرة والمهلة الممنوحة لا تسمح بتضييع الوقت. عليه أن يشرع الآن في البحث، طالما ليس متأكدا من وجهة الشلل القادمة، فمن يدري؟ ربما يستفيق غدا بنصف ذاكرة أو من دون ذاكرة.

هكذا شرع ريماس إيمي ساك في سبر أغوار ذاكرته.

الآن هو متواجد عند العتبة. يبدو المكان موحشا وباردا إلى درجة أن لف نفسه بذراعيه. هنا على الأقل يمكنه أن يسترجع يده التي شلت في الحقيقة.

تقدّم خطوتين فتراءى له رواق لانهائي الطول يفصل بين غرف

ذاكرته.. تقدم أكثر حتى بلغ صالة المعيشة، حيث كان بابها موصدا فحاول دفعه، ولكنه ومع المحاولة الثالثة، تفطّن إلى أنها المكان الذي حفظ فيه ذكرياته السابقة لحياته ككاتب. وإذ ذاك توقف عن المحاولة لإدراكه أنها ذكريات تافهة لن يجد فيها مبتغاه. لم يكن وقتها شيئا، بهذا أقنع نفسه وهو يتجه يمينا إلى غرفة المكتب، وبالكاد تمكن من فتح بابها بسبب كل تلك القذارة والأتربة والغبار على بلاط أرضيتها، والتي بمرور الزمن احتلّت كل أرجائها حتى غدت شبيهة بمكان منكوب عبثت به الكوارث.

أول ما لاحظه، كانت تلك الفوضى التي ملأت المكان. في ذاكرته لم يعد مكتبه غرفة منظمة طالما عَنِيَ بترتيبها في الحقيقة. حتى كتبه الثلاثين بدت من موقعها غير المعتاد، أسفل الرفوف تماما، كروايات إيروتيكية سعى صاحبها إلى وضعها في مكان لا يشد الانتباه.. ولأول مرة في حياته، شعر – وهو يرى ما حل بفلذات كبده – بالأسى نحو أي شيء. ولولا أنه كان متيقنا من أنه في ذاكرته هو، لفكر في أن ثمة أحدا دخل غرفة مكتبه ليعبث بما فيها. إلا أنه وهو يفكر في هذا الاحتمال غير المعقول، شعر بالخوف من إمكانية حدوثه، لكنه سرعان ما طيّر هذا الوسواس الغريب من رأسه واستمر في محاولة حدس أي شيء يمكّنه من إيجاد طريقة لمعرفة شخصية القاتل.

كان في وقت سابق قد خبأ بعض الملفات في درج سريّ بمكتبة كتبه، هي في الأصل ملاحظات ترصد بعض وقائع رواياته وسِيَر أبطاله الرئيسيين. بالطبع، فقد كان من المجهد تماما أن يعيد قراءة كل تلك الملفات، ولكنه كان يملك فكرة محددة عما يبحث، فقد كانت تساوره الشكوك حول شخصية استعملها في السابق مرة واحدة، اختفت فجأة بعد نشره لروايته تلك. حتى إنه وبعد سنين من البحث عنها، أدرك أنها شخصية استثنائية لم تقع في غرامه ولا في إدمان المشاركة في أعماله اللاحقة كما يحدث غالبا لشخصياته.

فتح ملف الشخص المطلوب. كان ملفا لا يحمل اسما على خلاف

الملفات الأخرى، والأدهى أنه لم يحو أي شـيء غير تسـجيل صوتي لهذا الشخص محفوظ في مسجلة صغيرة. شغّل إيمي ساك الشريط وأخذ يصغي:

"يبدأ الطموح كبيرا ولكنه سرعان ما يتقلص. وكلما تقدّمنا في العمر تتركـز خياراتنـا علـى الأقـرب فالأقرب، ثم علـى الممكن فالأكثـر إمكانا. وسـرعان مـا تنعـدم خياراتنا لنحـاول اقتناص الموجود فحسـب. ومع هذا تجدنا رغم تحسّـرنا في داخلنا نتظاهر بالرضا على ما نحن عليه. ندّعي أن مـا انتهينـا إليه مآلا مرسـوما لنا قبـل خلقنا، منذ الأزل.. علاقـة نعلق عليها خيبتنا، فشلنا، انكساراتنا.. أسميناها ببركة السماء.. القدر".

وبمجـرد أن انتهـى مـن الإصغاء. فتح ريماس عينيه ليخرج مجبرا من ذاكرتـه ويعـود إلـى واقعه، حيث كان يحـاول أن يكتب بيد لن تألف الكتابة أبدا، على الأقل لن تكتب شيئا بهذا العمق، ليس لأن أصابعها لم تتعوّد بعد على مسك القلم، بل لأنها لن تجد أبدا كاتبا قادرا على أن يملي عليها مثل تلك الجمل. ببساطة، لأنه قرر ذات يوم التخلص منه.

الفصل السابع

بالنسـبة لرجـل لـم يمـارس التحقيق منذ عقود، فقـد كان تحديد نقطة البداية بالنسـبة لعثمان بوشـافع أمرا مسـرفا في السهولة. الخياران المتاحان له الآن يجعلانه مضطرا لإيجاد حل سريع لتصدّده، فإما أن يستسلم لعجزه فينحره النسيان، وإما أن يجد طريقة يبدأ بها تحقيقه فيعود إلى الحياة.

ولأن الأمر كان محسوما بالنسبة إليه، وهو الذي انتظر كل تلك السنين ليحظـى بأيـة فرصـة، فقـد قـرر أن يبدأ من الشـيء الذي يبدأ بـه أيّ محقق مبتـدئ. بمعنـى أن يطـرح الأسـئلة الاعتياديـة في أية جريمة قتـل أو تهديد بالقتل. كان عليه تحديد مبرر للجريمة وكذا تحديد المستفيد منها، وهو ما يعني حصر جميع المستفيدين من قتل ريماس إيمي ساك وكل أولئك الذين يملكون مبررا معقولا لقتله.

ولكنـه حيـن فكـر في الأمـر برويّـة، أدرك أن وضع مثل هـذه القائمة يحتـاج إلـى جهـد فريق قوامه مائة محقق علـى الأقل، ذلك أن ريماس كان يملك موهبة خاصة في استعداء الناس، حتى لم يعد ثمة في كل عالمه من يمكن ألا تشمله هذه القائمة. وإذ فكر في ذلك، لم ينكر بينه وبين نفسه أنه كان سـيجد متعة كبيرة لو أن أحدهم سـجل اسـمه فيها، حتى إن هذه المتعة كانت لتجعله أكثر سعادة لو جُعل اسمه بين الأسماء العشرة الأولى.

لهـذا قـرر، عـوض أن يضيّـع وقتـه فيمـا لا يجدي، أن يبـدأ بتفحص الرسائل التي وصلت ريماس منذ أيام، والتي كان ريماس قد أرسلها إليه عن طريق إيمايله. كانت لديه رسالتان وصلتا عن طريق هاتفه النقال ورسالة عبر بريده الإلكتروني. ولو أن ريماس سـمح له بالاسـتعانة بالشـرطة ووسائلها، لكان من اليسير معرفة صاحب الهاتف الذي أرسلت منه الرسالتان أو موقع الحاسوب المستعمل في إرسال إيمايل التهديد. لهذا لم يبق من سبيل آخر،

بالنسبة إليه، إلا قراءتها من جديد وتحليلها بنحو يسمح له من تقليص قائمة المشتبه فيهم.

أول ملاحظة سجلها عثمان بوشافع تتعلق بالرسالتين القصيرتين. فبحسب ادعاء ريماس فإن اسم المرسل كان مخفيا. وهو أمر يستحيل حدوثه فعليا عند إرسال أيّ أساماس. يعني ذلك افتراض أحد الأمرين: إما أن ريماس يكذب وهو أمر يستحيل تفهم أسبابه، وإما أن ثمة تكنولوجية لم تبلغ عثمان تسمح بمثل هذه المناورات. وهو ما يصعب تصديقه في زمن لا يمكن فيه إخفاء أي شيء. أما الاحتمال الذي لم يطرأ على باله، فهو في الحقيقة ما كان يجدر به التفكير فيه لو أن إيمي ساك حدثه بالتفصيل عمّا صارت عليه حياته منذ وفاة زوجته وتوقف الإبداع عنه.

لا أحد يعلم بالضبط ما جعل ريماس يخفي عن محققه بعض الأمور. وفي هذه المرحلة لا بأس أن ندعي أن إخفاءه لها لم يكن له علاقة بطبعه المستعلي الذي يجعله يصرخ بأنه في صحة وعافية حتى وإن صار كسيحا وفقد كل حواسه. سنقول – حسنَ ظنٍّ به – إنه لم يذكر لمحققه كل شيء لعدم اعتقاده بوجود علاقة بين ما حدث له والتهديد المفضي إلى قتله.

ومع أن تلك كانت ملاحظة مهمة، إلا أن عثمان تجاهلها لاحقا، فقد تكون سببا في هدرٍ لوقت لم يعد يملكه. لقد كان ريماس واضحا، لم يعد أمامه إلا عشرين يوما ليجد الفاعل. ولو طرحنا هذا اليوم من المهلة لما تبقى له إلا تسعة عشر يوما فحسب.

الملاحظة الثانية، كانت سوء تقدير ريماس لجديّة التهديد الذي وصله، بدليل أنه اليوم فقد الاحساس بذراعه اليسرى. ما يعني أنه يواجه قاتلا محترفا، تمكَّن بدهاء من مراوغة رجل عبقري كريماس عبر رسالته المشفرة، بحيث استطاع إعطاءه شيئا يتسبب في شلل أعضائه من دون أن يدرك ذلك. وهو أمر يستحق الوقوف عنده احتراما لهذا القاتل الداهية.

"ولكن كيف؟!"..

تساءل وهو يدرك أن أمر تسميم إيمي ساك يوشك أن يكون مستحيلا،

فالرجـل لا يخـرج إلا نـادرا من بيته. وإذا خـرج فلا مكان يقصده إلا مقهى ثلاثـون، وهـو بحسـب علمه لم يخـرج من منزله منذ وفـاة زوجته ولـم تطأ قدمـاه المقهـى منـذ أربعـة أعوام. حتى إنـه لا يزور ولا يسـتقبل أحدا، ولا يشـتري أي أكل مـن الخـارج، أما ما يصل إلـى منزله من مواد غذائية، فالله وحـده يعلـم كيـف يفعل ذلك. أما الأصدقاء فليـس له إلا صديق واحد هو ريماس.. فكيف يمكن أن يقوم أحد بتسميمه؟!.

وحيـن انتهـى إلـى ذلـك، أدرك مدى صعوبـة هذه القضيـة، لأنها في النهاية ليسـت أكثر من قضية طرفاها ضحية يشـبه في حياته الظل، ومعتدٍ لا يترك خلفه إلا السراب.

وبالرغـم مـن صعوبـة القضية ومـا تطرحه من تعقيدات قـرر أن يفكّ عقدهـا وطلاسـمها، فـلا خيار لديـه إلا أن يجد الفاعل مهمـا تطلب الأمر. ومع ذلك كان متفائلا للغاية. وتخيل وهو يستعد للخروج أنه سمع أحدهم يهمـس فـي أذنـه ".. لهـذا اليـوم رائحة تشـبه البداية"، انتابه شـعور غامض بالسعادة، حتى طفت على شفتيه ابتسامة خال منذ تقاعده أنها لم تعد جزءا من ملامحه.

بهذه الابتسـامة وبكل ما كان يعتمر قلبه من سـعادة وجد نفسـه أسفل العمارة حيث تقع شقته.

***

كان الوقـت ليـلا. وكعـادة الليـل في حيه بـ"سـاكري كـور"، لم يجد مكانـا ليلقـي بظلمتـه في الأزقّـة ذات الإنارة القوية، حتى ظن عثمان نفسـه في مكان ارتكن فيه النهار ليستريح. ولولا أنه نظر إلى السماء لما أدرك أبدا أن أول عودة له إلى الحياة كانت ليلا.

ولأنـه الليل، فقد شـعر عثمان بالظمـأ. تذكر عادة قديمة كانت تجعله يخـرج مـن بيتـه ليـلا حين يكون منشـغلا بقضية هامة وليس في برّاده شـيئا يصلح للشـرب، فلطالما اعتاد أن يملأه بكل ما طاب من خمور تجعله في

منأى عن الوحدة والضجر.

هكذا انقاد لرغبته القديمة واتجه صوبا نحو الطريق الرئيسي لشارع ديدوش مراد، ولكنه حين سلك نهج ديبيسي تذكر أنه عند نهاية النهج، على اليسار تماما، ربما على بعد خمسين أو مئة متر يوجد محل خمور لا يغلق أبوابه حتى ساعات الفجر. "كيف كان اسمه؟!"، تساءل وهو يسير في اتجاهه، وقبل أن يبلغ موقعه بأمتار عاودته الذكرى مجددا.. "نعم.. هو ذاك". صرخ في رأسه وهو يستعيد اسم المحل.

حيث يفترض أن يجد محل بيع الخمور، وجد جدارا إسمنتيا لا علاقة له بمباني العاصمة. كان أسود كقلب حاقد في صدر رجل يدِّعي الطيبة. أو لعل عثمان حين أمعن النظر في بشاعته تراءى له كلسان يخرج من فم فاتنة تملؤه البثور.

شعر بالاشمئزاز وهو يحملق في الجدار وقد أدرك أنه بُني ليغلق مدخل المحل، ولكنه مع ذلك لم يفقد الأمل وظن أن بناءه حيث هو، كان بغاية تحويل المدخل فحسب، لذلك لم يجد بأسا من سؤال فتية كانوا وقتها يتسامرون في مدخل إحدى العمارات القريبة. غالبا كمعظم العاصميين في مثل أعمارهم، اعتاد هؤلاء الفتية على مدينتهم التي كلّما أجلسها الليل على حجره تظاهرت بالموت حتى يبدأ نهار جديد. لم يكن لأحد من مكان يمكن أن يجلس فيه لشرب فنجان قهوة أو قدح شاي أويمنحه فسحة للحياة غير الفنادق الفخمة التي لا يلجها إلا أنصاف الآلهة والنوادي الليلية التي في ظاهرها نوادٍ وفي الحقيقة مواخير رخيصة.

- عفوا، من أين مدخل المحل الذي كان هنا؟

سأل عثمان فتية كانوا فيما يبدو مستمتعين بلعب الديمينو أو ربما بلعبة تعرف بالأبيض المضاعف. وفي حين أن جميع اللاعبين تجاهله وكانوا أربعة. ردّ عليه خامسهم ظهر له أن مهمته تسجيل الحساب.

- لا يوجد محل هنا.

قال ذلك بصوت مبحوح تلاعبت بنبرته آلاف السجائر التي دخنها منذ

سنين. ثم أضاف وهو يرى الدهشة على وجه عثمان:

- منذ بدأت التذكّر..لا أعتقد أنه كان هنا محل من قبل.

وهزّ البقية رؤوسهم مؤيّدين صديقهم. ولعلهم وقد فعلوا ذلك، لم يكونوا مدركين أن ما يتذكرونه من حياتهم، وكل ما قد يتذكره أولياؤهم من حياة أبنائهم هؤلاء، ليس في الواقع إلا جزءا بسيطا من حياة رجل كعثمان بوشافع، فالسنين التي قضاها قابعا في شقته ينتظر فيها الفرج، لم تأخذ من حياته إلا بضع سنين لا يكاد أثرها يظهر عليه. وحين يقولون، بتبجح ويقين، إنهم لا يتذكرون وجود المحل الذي يسأل عنه، فإن هذا لا يعني عدم وجوده. لهذا تجاسر عثمان وقال مجدّدا:

- لا يمكن فقد كان هنا محل خمور.

- ربما تقصد المحل الذي على الطريق الرئيسية، تماما أسفل بناية البريد، ولكنه في هذا الوقت مغلق.

- لا. هذا أعرفه، أقصد محلا صغيرا كان موجودا هنا.. بالضبط هنا. كان مدخله يقع تماما في مكان هذا الجدار. لم يكن مدخلا حقيقيا، أي كما جرت العادة، بل مجرد نافذة، منها يستلم صاحب المحل النقود وعبرها يقدم السلعة للزبون.

وتضاحك الجميع في وقت واحد من دون أن يتفقوا على التوقيت، ولا حتى على السبب الذي وإن بدا مستبعدا فقد كان نفسه أيضا.

قال الفتى المكلّف بالحساب:

- يبدو يا صديقي أن الأمور اختلطت عليك. في كل العاصمة لا يوجد إلا محل واحد بهذه المواصفات. أنت في الغالب تقصد محل السندويتشات بالشراقة، فذلك وحده من جعل فيه نافذة يبيع منها ويقبض الثمن.

واستمروا في الضحك للحظات حتى قاطعهم عثمان:

- أنا أقصد محل "طابس راسو". تسمعون به.. كان هنا بالضبط..

وانحنى إلى الأمام وكأنه يركع في صلاة. حتى إذا بلغ رأسه مستوى

معين قال:

- عند هذا المستوى.. كانت النافذة التي كنا نأخذ عبرها حوائجنا. نطأطئ رؤوسنا لنستطيع تقديم الطلبية، لهذا أسميناه "طابس راسو"..

واستمر عثمان في وصف المحل والمكان حتى يئس وأدرك ألا فائدة من الإفاضة في الشرح والتفصيل. لقد تيَّقن أن العالم الذي عرفه قبل سنين لم يعد هو نفسه عالم اليوم.

بالطبع، لو أنه كان حاضرا في حياة ريماس إيمي ساك في الثلاثين سنة المنصرمة، لواكب أحداثا كثيرة غيرت وجه العالم. إنه عالم مختلف لا يشبه الذي عرفه والذي تقاطع فيه وجوده بوجود ريماس، فبعيدا عن الحروب والمجاعات وسقوط الأنظمة والإيديولوجيات واختراع كلمات وألفاظ جديدة وظهور الإنترنيت وقيام الثورات، واختفاء مدن وظهور أخرى. فإن أهم شيء لم يواكبه عثمان بوشافع اختراع اسمه العولمة. وهو شيء، لو سأل عنه لاحقا، لعلم أنه يشبه نزع جلد الوجه ولكن بألم مؤجل إلى حين.

***

كان خبر اختفاء محل "طابس راسو" كافيا لعثمان بوشافع ليطير عنه الظمأ. عادة ما يكبح الموت رغبات الناس حتى وإن تعلق ببناية عشقوها أو بمقهى اعتادوا على زيارتها أو بزقاق تافه في مدينة أتفه. فلتلك أرواح يصعب الشعور بها ولكنها أرواح ذكية، عصية على التجسد في أي شيء. كانت كضوء الشمس تتوزع في الصدور في صورة ذكرى ما. لا أحد كان قادرا على وصفها ومع هذا كان الجميع يشعر بها.

وإذ ذاك، قرر التوجه إلى مقهى "ثلاثون"، فلم يعد من سؤال يستحق الطرح إلا ذاك الذي طرحه منذ حين على ريماس إيمي ساك.. "هل حقا قتل أحدهم؟".. وما دام ريماس لم يجب، فسيجد الجواب لوحده. وليس أفضل من مقهى "ثلاثون" لتكون نقطة البداية.

هذه المرة، لم يجد أية صعوبة في تذكّر موقعها. لقد كانت مكالمة

ريمـاس لـه منذ حين بمثابة "النقرة" التي سـمحت له بولـوج عالم ذكرياته، بحيث تمثل نفسه في سيارته "الهوندا سيفيك" ذات اللون الأزرق السمائي يقودها إلى هناك: ينعطف ببطء إلى اليمين في اتجاه "نهج الكولونيل كريم بلقاسـم" وبعده بأمتار قليلة يأخذ "طريق السـفنجة"، على اليسـار أيضا. ثم يسـير علـى يمينـه حتى ينتهي الطريق. وهناك يسـتدير يسـارا فـي اتجاه حي المـوز. وهـو ليس نفسـه الحي الموجود بباب الزوار شـرق العاصمة. ومع أول مفتـرق ينعطـف يسـارا ليلـج "طريـق البرليـي" ومن ثم يتجـه إلى نهج الكولونيـل بوقـارة . ومـع تقاطع هذا النهج وشـارع "مودوي" ينعطف يمينا حتـى يدخـل نهـج "مصطفـى علي خوجة" ويسـتمر في السـير على الطريق رقم 41 حتى يصل نهج "محمد طالب" والذي ينتهي بمفترق طرق، يوصله المخرج الرابع منه إلى نهج "بوقانة بوعلام"، وحين ينعطف يسارا في طريق "القطَّار"، تصبح مسألة وصوله إلى باب الواد محسومة، تماما كوصوله إلى "الساعات الثلاث"، حيث مقهى "ثلاثون" غير بعيدة عنها.

الفصل الثامن

حين عاد من رحلته إلى ذكرياته، شعر ريماس إيمي ساك برغبة في كتابة شيء ما. لم يكن يعلم على وجه اليقين ماذا سيكتب بالتحديد، ولكن الرغبة جرفته بحيث لم يلاحظ أنه ولأول مرة سيكتب شيئا لم يخطط له من قبل. ثمة ما تغيّر فيه منذ تأكده من شلل ذراعه اليسرى. لقد أصبح أكثر وهنا وأقلّ تواطؤا مع الغرور. ففي وقت سابق، حين كان يشعر بمثل هذه الرغبة الفجائية، يقوم بتجاهلها على اعتبار أنه لا يبدأ الكتابة عن أمر لا يعرف إلى أين يقوده، فلطالما كانت الكتابة بالنسبة إليه عملا ممنهجا لا غير.

أما الآن وبعد أربعة أعوام من البوار، لم ير حرجا في الخضوع لرغبته تلك.

"وليكن..".

فكر وهو يرفع ذراعه اليسرى بيمينه ليضعها على حجره كي لا تزعجه حين يهم باستعمال يد لم يكتب بها منذ أربعة أعوام. فبعد وفاة زوجته وهجران ابنته له وفقدانه للموهبة بعد ذلك، لم يستعمل للرقن أو للكتابة إلا يده اليسرى. وهو أمر غريب بالنسبة لرجل قضى كل حياته يكتب بيمناه. فقد صحا ذات يوم وقد تحول إلى أعسر لسبب ظل غامضا لسنوات.

اليوم سيرى إن كانت يمناه لا تزال تحفظ مسكة القلم.

هكذا شرع في الكتابة بأصابع ترتجف من الارتباك. أصبح الأمر واضحا الآن. لن يتمكن أبدا من استعمال هذه اليد ليكتب أي شيء. لهذا فتح حاسوبه من جديد وأخذ يرقن بأصبع واحدة:

" ما رأته على وجه أبيها لحظة دخلت عليه لم يكن إلا الرضا، فلربما كان في الرضا شيء آخر غير السعادة، ليس الرضا، فقط، نشوة انتصار أيٍّ كان. إن رؤية الرجل لوجهه على المرآة ساعة الصباح، ونفضه لثيابه

بعد الوقوع في بركة يملؤها البراز، ومصافحة رجل غريب من دون سبب، وموت من تحبّ على فراش المرض.. هي أيضا حالات رضا".

تأمل هذه الفقرة وهو بالكاد يصدق أنه كتبها.. أيكون الإلهام عاوده بعد كل هذا الوقت؟!. وإن عاد، أيكون بذلك استرجع انعكاسه على المرايا؟!.. ما أن فكر في ذلك حتى رفع رأسه وأخذ يحدق في إحدى مرايا جدران غرفة مكتبه.

ربما يكون قد أمضى ساعة وهو ينظر إلى نفسه غير مصدق لما يرى. ولو أن أحدا سواه رأى ما رأى، لبقي محدقا، مبحلقا، تائها فيما يشاهد إلى أن يقبّله الموت. ولكن ريماس، ولأنه ريماس إيمي ساك، لم يستغرق إلا ساعة من الدهشة ليستعيد نفسه.

لم يدهشه أن الغشاوة ملأت عينيه من جديد، بحيث لم يتمكن من رؤية انعكاسه. فبعد أربع سنوات لم يعد الأمر يثير في نفسه أي شعور. ولكنه هذه المرة وهو ينظر إلى نفسه، انقشعت الغشاوة لتسمح لعضو من جسده بالانعكاس. لم يصدق نفسه حين رأى أن المرآة عكست يده اليسرى فقط دون أيّ عضو آخر من جسده. وحين فكر في رفعها في الهواء، ظلت جامدة، مشلولة في الحقيقة ولكنها تحركت مرتفعة في الهواء في انعكاس صورتها على المرآة.

هذه المرة لم يعد قادرا على تجاهل حديث قديم، جرى بينه وبين صديقه الذي قتله غدرا ومن دون سبب. وكان يجدر به تذكره بمجرد أن أصبح جسمه عِصيّا على الانعكاس. كان هذا قبل أن يصدر آخر رواياته.

وقتها، كان ريماس مسيطرا على العلاقة بينهما، ولم يعد الكاتب الشاب كما كان في بداية علاقتهما متسرعا وصريحا في كلامه. حتى أنه لم يعد يقول ما يفكر فيه بمجرد أن يفكر فيه، مثلما كان يفعل في السنوات الأولى من تعرفه على ريماس.

لم يكن يتذمر من شيء. لكن ريماس كان يقرأ من نظراته أن سأما مزمنا بدأ يفتك به رغم محاولاته الكثيرة لإسعاده. حتى إنه فكر في أن

الشـيء الوحيد الذي يبقيه معه هو تلك الروايات التي كان يكتبها ويحررها له الكاتب الشاب. إلا أن هذا لا يعني أن الكاتب الشاب كان مجرد مصفف أو سـكرتير لريمـاس، فعلاقتهما ببعض تجـاوزت مثل هذه العلاقة، لتصبح منذ أن تقابلا مسـرفة في الاندماج، ولو أنه أصبح اندماجا مؤقتا خاصة في السنة الأخيرة من علاقتهما.

يومان قبل مقتل الكاتب الشاب، التقيا كالعادة في مقهى "ثلاثون".

فـي ذلـك الوقـت انقـرض زبائـن المقهـى حتى لـم يعد يجلـس فيها سـواهما. وبدأ شـعور كئيب بالخراب يسـري فيها. لم تعد تفتح أبوابها إلا ليـلا، وحـال طـلاء جدرانهـا، وانمحت الرسـوم المذهلة التـي كانت تزين سقفها ولم يبق منها إلا صورة رجلين عاريين، أحدها بلا عينين والآخر بلا يديـن. وخفـت الضـوء فيها على نحو لم يعـد يضيء إلا مؤخرة المحل أين اعتادا الجلوس منذ تعارفا.

قال له ريماس وهو يربت على مخطوطة روايته:

- لـم أكـن أظنك سـتنتهي مـن رقنها بهذه السـرعة. كتاب بمثل هذه الضخامة كان ليحتاج من راقن محترف عمل سنة كاملة.

ابتسم الكاتب الشاب من دون أن ينبس ببنت شفة، وقال:

- هذا لأنني صاحبها.. هذه روايتي، رغم أن اسمك هو الذي سيكتب على غلافها.

وارتسـمت ملامـح شـفقة على وجـه ريماس، مـع أن عينيـه احتفظتا ببعض القسـوة. كان يرغب في أن يعيد على مسـمعيّ صاحبه الدرس الذي سـبق وحـاول شـرحه لـه آلاف المرات. إلا أن شـيئا جعلـه يتراجع ويفتعل ضحكة تشبه في صدقها تكبيرة داخل ماخور.

قال وهو يشير إلى السقف:

- أترى هاذين؟

وحين رفع الكاتب الشاب رأسه إلى السماء، أضاف ريماس:

- نحـن كهاذيـن تماما. مهما فعلنا فلسـنا أكثر مـن هاذين.. أنا مبتور

اليديـن وأنـت الرجـل الكفيف هنـاك. أنا من يرى العالـم ويصفه وأنت من يكتـب مـا أرى. يا صديقي لسـت أكثـر من كفيف مهما بلغـت بصيرته فلن يسـتطيع الإبصـار أبـدا. أنا وحدي من جعلك تبصـر العالـم بعينيّ لأزيد من ثلاثين عاما من دون أن أمنّ عليك، ومن دون أن أنكر أيضا فضلك في كتابة أعمالي، ومع هذا تجرؤ بعد كل ما أمضيناه سـوية أن تنسـبها إليك. أيعقل أنك صدّقت حقا هذه الترهات التي في رأسـك؟!.. لسـتَ شـيئا بدوني، أما أنا فكل شيء من دونك.. هذه الحقيقة الوحيدة التي يجب أن تؤمن بها، إذ لا حقيقة سواها.

ثم قام من مكانه مسـتعدا للانصراف لولا أن الكاتب الشـاب أمسـكه من كمّه.

- أيـة حقيقـة تتحـدث عنهـا.. أنـت بالـذات لا يجدر بـك أن تذكر الحقيقة. هذا عالم لم تخلق فيه لتفهمه.

- ماذا تقصد؟!..

- أترى هاذين. صحيح نحن مثلهما ولكن ليس كما تصورت أنت. ألم تكن أنت من علمني كل تلك السنين كيف يمكن للتفاصيل حتى التافهة منهـا أن تغيـر أي مجـرى، فلمـاذا لا تحـاول أن تنظر إلى تلـك اللوحة كما علمتني أن أنظر.. أخبرني الآن وأنت تنظر، أي شيء يجعل هاذين مختلفين عن بعضهما غير ما ذكرت من عمى وبتر.. لن تجد أي اختلاف بينهما حتى تكاد تقول أنهما واحد، بحيث لو وضعنا صورة أحدهما على الآخر، لوجدنا أنفسنا ننظر إلى رجل واحد كامل الأعضاء.

- أتقصد أننا واحد أنا وأنت؟!.. أيعقل أن تصدق هلوسة كهذه؟!

- لسنا واحدا.. هذا أمر مفروغ منه. أتعلم لمَ؟.. لأننا لم نكن اثنين من قبل. الفكرة يا صديقي أننا حين نكون في مركز عالم كله مرايا، فتنعكس صورنا عليها، يُتخيّل إلينا أننا أكثر من واحد. ثم حين نطيل المكوث هناك محدقين في انعكاساتنا يساورنا الشك في النهاية أينا الصورة وأينا الانعكاس.

وقبل أن يقول ريماس أي شيء، انصرف الكاتب الشاب من دون أن

يلتفت خلفه. ولو أنه فعل لرأى النادل العجوز ذا الستين عاما وهو يصعد فوق أحد الكراسي غير آبه بوجود ريماس وفي يده دلو طلاء. وإذ بلغ الكاتب الشاب باب المقهى قال مبتسما معزيا ريماس: "لا تأبه، لن يطول به الأمر ويعود". قال ذلك وهو يطلي الجزء المرسوم من السقف. ثم تمتم حين انتهى: "خلت أنني لن أفعل هذا أبدا". ومضى إلى حال سبيله من دون أن يسأل ريماس كعادته هل يرغب في شرب أي شيء.

الفصل التاسع

صحيح أن عثمان بوشافع لم يشعر بمرور إحدى وثلاثين سنة وهو قابع في منزله ينتظر أية فرصة للعودة إلى الحياة. وصحيح أيضا أن ما مرّ من الزمن لم يكن بحسب تقويم أصحاب موهبة القرار إلا بضع سنين لا أكثر. إلا أن كل ذلك الوقت فعل فعلته في سيارته "الهوندا سيفيك". حتى بدت له، وهو يتفحصها، كأنها كومة حديد لا أكثر.

آخر مرة ركبها كان يوم عاد إلى شارع بيردو يبحث عن امرأة اسمها نوى. عاهرة تعرّف عليها في تندوف وعادا سوية إلى العاصمة حيث كانت تقيم، ثم اختفت مع السرّ الذي كان عثمان بوشافع يرغب في كشفه. يومها علم أنها باعت شقتها وسافرت إلى الخارج، لتختفي إلى الأبد. أما هو فقد علِق في بحثه عنها، حتى لم يعد يتذكر أي شيء حدث معه مباشرة بعد نزوله درج العمارة التي كانت نوى تسكن فيها، ولا كيف عاد إلى بيته ليسجن فيه واحدا وثلاثين عاما.

ومع أنه عاش تلك القصة بتفاصيلها الغريبة، إلا أنه ولسبب ما، كان يعلم أنها لم تكن تلك حياته. كل ما هو متيقن منه الآن، أن ما يتذكره من تلك القصة ليس إلا حياة واحدة من حيوات كثيرة عاشها من قبل، لا تشترك إلا في أمر واحد، هو أنه في كلها كان يلعب دور الشرطي الفاسد.

حتى نوى لم تكن دائما نوى، فهو يذكرها مرة سجينة قام بالتحرّش بها. ومرة في حياة أخرى يتمثلها فتاة ساذجة مفتونة بالجنس، ومرة ثالثة لعبت دور امرأة تعرضت للاغتصاب. وفي كل حياة كانت تحمل اسما آخر غير "نوى".

والحقيقة أن عثمان رغم كثرة ما يتذكر من حيوات عاشها من قبل. كان متيقِّنا أن ثمة حياة سابقة لها جميعا، كان فيها إنسانا عاديا يملك القدرة

على الاختيار، ولعله لو سمح لنفسه بالبقاء فيها، لكان كبر وشاخ كما يفعل أي كائن محدود الأجل. ولكنها حياة قايضها بأبدية زائفة، تلك التي قضاها كالأحمق في الانتظار.

الآن وهو يرى ما أصاب سيارته مجبر أن يسير على قدميه إلى مقهى "ثلاثـون". مجـرد التفكيـر فـي ذلك جعله يشـعر بالتعـب، إذ لا مناص له مـن نـزول منحدر بيردو حتى يبلغ شـارع أودان من الجهة المقابلة لمحطة الحافلات بميسـونيي. وهناك يسـير يسارا عبر شـارع أودان ذي الواجهتين الفاصـل بينهمـا الطريق الرئيسـي، ويبقى سـائرا حتى يبلـغ النفق الجامعي الذي يوصله إلى شـارع باسـتور ذي الطريق المنحدرة والمنتهية عند ساحة البريـد المركـزي المتصلة بشـارع العربي بن مهيـدي. وحين يصل إلى هذا الشـارع ينعطـف يسـارا حتـى يبلـغ نقطة تقاطعـه مع نهج "علـي بومنجل" وشارع باتريس لوممبا، لينعطف يمينا ويأخذ منحدر "على بومنجل". حتى إذا تـراءى لـه المسـرح الوطني قطع الطريق إلـى باب عزون، بحيث يجعل حديقة بور سـعيد خلفه في اتجاه سـاحة الشـهداء. ومن هناك تصبح مسألة الوصـول إلـى باب الـواد تحصيل حاصل، ما دام أنه من هناك لن يفعل إلا السـير في اتجاه واحد إلى الأمام. أما بقية الطريق إلى مقهى "ثلاثون" فلم يشأ أن يفكر فيها، خشية أن يتملكه التعب ويعود أدراجه إلى بيته من دون أن يقصد المقهى.

هكـذا حـرّك سـاقيه ليبدأ مسـيرته لاكتشـاف الحقيقـة، ولكنه بمجرد أن قبَّل الرصيفُ قدمَيه خمس مرات حتى تحسـس شـيئا في جيب سـرواله الأيمن. كان حادا وباردا على نحو أشـعره بالانزعاج، ليُدخل يده في جيبه ويدرك أنها مفاتيح صغيرة، سـرعان ما أخرجها وأخذ ينظر فيها. ثم ضغط أحد الأزرار الثلاثة الموجودة على حمالّتها البلاسـتيكية السـوداء. وما كاد يفعـل حتـى انطلـق إنذار سـيارة كانت مركونة في الحي. تقـدم نحوها، فإذا هي "شوفرلي سبوت" عام 2010، سوداء اللون بزجاج مضبب.

فتـح البـاب وجلـس علـى مقعد السـائق خلـف المقود الرمـادي ذي

الغلاف الجلدي، وبحركة آلية لم يقصدها ولم يفكر فيها، رفع مغلاق العلبة بجانب محدد السرعة وأخرج منها حافظة جلدية سوداء، سرعان ما أدرك أنها تخصه حين وجد فيها رخصة سياقة وبقية وثائق السيارة. الغريب أنها كانت جميعا موقعة ومختومة في نفس تاريخ اليوم.

لم يحتج عثمان بوشافع إلى الكثير من الذكاء ليدرك بأن هذا الأمر من فعل ريماس إيمي ساك. فمن خلال تجربته معه، عرف كم يحب ريماس التفاصيل في كتاباته، بل كان يتلذذ في وصف نفس الشيء بكذا طريقة، حتى وإن بدا ما يصفه مجرد شيء تافه لا يؤثر بأي شكل في روايته.

المهم، لم تنقض عشر دقائق حتى وجد عثمان بوشافع نفسه أمام مقهى "ثلاثون". كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. ولعله لم يكن كذلك، فمهما عَنِيَ ريماس إيمي ساك بالتفاصيل، فإنه هذه المرة لم يعر بالا لهذه التفصيلة، ولو أنه فعل، لجعل عثمان بوشافع يحمل ساعة يد، أو على الأقل، كان ليجعله يقرأ الساعة من لوح قيادة السيارة أو يلاحظ الوقت وهو يمر بالساعات الثلاث قبيل وصوله إلى مقهى ثلاثون.

مهما يكن، كان الوقت ليلا. ومع ذلك لم تمنع الظلمة عثمان من معرفة موقع المقهى الذي كان مضاء والنادل ذو الستين عاما واقفا أمام الباب الزجاجية في الداخل وكأنه ينتظر قدوم أحد.

تقدم عثمان نحو المقهى ورفع رأسه ينظر صوب شقة ريماس، حيث غرفة مكتبه مضاءة أيضا. لم يفاجئه الأمر طالما أنه يعرف ولع ريماس بالكتابة ليلا وبالتحديد في مثل هذا الوقت، تماما وقتما يعير الناس حيواتهم إلى موت مؤقت يسمونه النوم.

ومن دون أن ينتظر دعوة النادل، دخل المقهى راسما على وجهه ابتسامة تفرضها اللباقة. أما النادل فبقي واقفا في مكانه، متجهم الوجه، وبعينين تحدقان في وجه عثمان بنحو تجعل من يراهما على هذه الصورة يجزم بأن هناك عداء قديم بينهما لم تمحه السنون.

قال عثمان من دون أن يسلّم أو يصافح النادل:

- يبدو أن ريماس أعلمك بقدومي.

أجـاب النـادل بلسـان متثاقل، حتى بدت كلماتـه وهي تخرج من فمه كأنها محمولة على ظهر السأم:

- ريماس؟!.. هذا رجل لم أره منذ أربع سنوات.
- مهما يكن، لم آت إلى هنا إلا بسبب قضية تخصّه.
- مازلـتَ إذن تعمـل عنـد هـذا النـذل. حسـبته توقـف نهائيـا عن الكتابة..

وأضاف هازئا:

- فـي أي شـيء ورطـك هذه المرة.. أعرف أنـك لا تصلح عنده إلا للمهام القذرة. ألم تكتف بعد من أدوارك البائسة؟!..

ثم بجدية:

- ولكن ما عساه يفعل؟!.. أنت مجبول على أن تكون كما أنت، ولم يوظفك ريماس إلا فيما تحسن عمله. أعرفك جيدا، وأعرف أن خسَّتك لم تكن بسبب ما وظفك فيه ريماس، بل لأنها كانت فيك من قبل.

وأخـذ يعرض عليه حيواته السـابقة، حيـاة بعد حياة. وما كان ليتوقف عن الحديث والاستهزاء به، لو لم يقاطعه عثمان بوشافع سائلا:

- وماذا كنتُ قبل كل تلك الحيوات؟

حينها، لاذ النادل بالصمت وحاول تغيير مجرى الحديث:

- إذن، فالقضية تخصّ ريماس..

كان عثمـان بوشـافع، رغـم أنـه سـأل، متيقنـا من أن النـادل لن يجرؤ ويجيـب علـى سـؤاله. حتـى ريماس مـا كان ليجيبه إلا بمزيد من الأسـئلة. فلطالما فكر أن ثمة هاوية بين حيواته التي يتذكرها بالتفصيل وحياته الأولى التـي افتـرض أنهـا حياة واقعة فـي الحقيقة. لم يكن هنالك ما يؤكد أنه فعلا عرف تلك الحياة غير حدسه الذي قاده إلى هنا ليبدأ تحرّيه عن القاتل.

- نعم، فكما قلت لك، هناك من يهدد ريماس إيمي ساك بالقتل.
- هذا أمر أعرفه.

- وماذا تعرف أيضا؟
- لا شيء إلا ما أخبرني به صديقك المستعرب.
- صديقي المستعرب؟!
- نعم سيباستيان.. تذكره طبعا؟..
- هل أعاده ريماس أيضا؟
- لا.. ليس مثلك يا صديقي. مهما حاولت أن أشرح لك فلن تفهم. المهم، إنه يعتقد أن أحدا سيقتل ريماس، وأحسب أن ريماس مثلكما يعتقد أن هناك من سيحاول قتله، بدليل أنه استعان بك من جديد.
- يبدو أنك لا تصدق حدوث هذا..
- صحيح.. لا أصدق حدوثه.

قال ذلك بثقة جعلت عثمان بوشافع يركن إلى الصمت لحظة.

أضاف النادل وقد انمحت من عينيه نظرات الحقد التي غشيتهما ساعة أن رأى عثمان وهو يدخل المقهى:

- ماذا تعرف فعلا عن ريماس.
- أعرف أنه كاتب روايات مقتدر.
- وغير هذا؟
- متزوج ولديه ابنة.
- هل تعرف شكلهما؟
- لا.
- وهل سبق أن رأيت ريماس من قبل؟
- بالطبع.. ليس كثيرا ولكن سبق أن رأيته.
- تقصد هنا، في آخر القاعة. كنت تراه دائما برفقة شاب في آخر القاعة.
- هو ذاك.
- إذن فأنت تتذكّر شكله.. أقصد يمكنك أن تصفه.
- بالطبع.. بالطبع..

وإذ ذاك. أخـذ عثمـان بوشـافع يحفر في ذاكرته وهـو يحاول أن يعثر على أية صورة تصلح أن تكون لريماس إيمي ساك. ولكنه بعد كذا محاولة، أدرك أن الأمر لم يكن سهلا كما يجدر به.

الفصل العاشر

"دعابة بصرية لا غير..". فكر ريماس وهو يبحلق في انعكاس يده المشلولة على المرآة، وقد بدت أكثر تهرؤا من يده هو. ولكنه عوض أن يمعن النظر فيها ويرى أن خاتما في بنصرها على عكس بنصره في الحقيقة، راح يفكر في أمر بدا أنه لا يقبل التأجيل، خاصة وأنه منذ دقائق بدأ يشعر بالخدر في قدمه اليمنى، تماما مثلما شعر سابقا مع يده قبل أن تشل تماما.

أمام هذه الحقيقة الجديدة، لم يعد بقاؤه في المكتب آمنا. إذ ماذا سيحدث له لو شُلَّت ساقاه أيضا. هذا السؤال جعله يتذكر رغبته القديمة في الخروج من غرفة مكتبه التي لم يعد يتذكر منذ متى وهو فيها.

وفيما كان يفكر في طريقة عملية تمكّنه من التنقل إلى غرفة نومه – حيث قرر أخيرا أن يتوجه – من دون أن يضطر للزحف. شعر بأن خروجه من مكتبه قد يعني – إذا استمر الشلل في الاستيلاء على أعضائه – أنه خروج بلا عودة.

لم يكن يتصور كيف ستكون حياته وهو بعيد عن كتبه الثلاثين بكل ما عنته له طيلة عمره، ولكنه في المقابل حين وازن بينها وبين مسألة بقائه آمنا لبعض الوقت فقط. لم يجد صعوبة في الاختيار. كان في قرارة نفسه مدركا أن أدبه لم يكن أبدا بالنسبة إليه إلا وسيلة للوصول إلى شيء ما. وكل رواياته مهما بلغت من جودة لم تكن أكثر من مجرّد أوراق لطّخها بالحبر. على عكس قتيله الكاتب الشاب الذي كان يعتقد بتلازم الحياة والكتابة، بدليل أنه فضّل أن يبقى متواريا عن الأنظار ومتصلا بالأدب، على أن يستمر في وجود لا أدب فيه.

هكذا وجد ريماس إيمي ساك نفسه في غرفة نومه مستلقيا على سريره، محدقا في إحدى زوايا السقف تآكلت بفعل الرطوبة، راسمة شكلا

بدا لريماس أنه يتغير كلما رمش بعينيه.

ولأول مرة منذ أعوام، شعر ريماس بأنه ينظر إلى إيحاء بصري يصلح ليكون بداية لرواية جديدة، ولولا الشلل الذي تمكن أخيرا من ساقه اليمنى لنهض مسرعا إلى مكتبه وكتب شيئا ما.

في الحقيقة، لم تنقض دقائق على استلقاء ريماس على سريره حتى بدأت الجمل تصطف داخل رأسه وتتدافع رغبة في الخروج إلى عالم الورق. ولأنه لم يكن قادرا على النهوض، فضل أن يحاول تشتيت فكره حتى لا يزداد الألم الذي بدأ يشعر به حين أدرك أنها جمل لن يُقدّر لها أن تكتب أبدا. ومع ذلك استمرت الجمل في التدافع، وعوض أن تخرج مثلما كان مقدرا لها، نقشت في رأسه تماما كالنص الذي غُرز في ذاكرته عن جميلة بوراس. إلا أنه هذه المرة، كان متيقنا أن ما في رأسه كان نصه هو، لذلك حين لم يستطع احتمال الألم أكثر، ترك عقله يقرأ تلك الجمل:

" كنت متعبا.. تعبا جعلني أشعر برغبة في إطباق جفنيّ من دون أن أفقد الوعي، وكأن ثمة من يجلس عليهما يجبرهما على الانطباق. حتى العمش الذي قلَّما كنت ألاحظه في السابق، تسلل بين رموشي وتبلل عليها وجف كذلك، ليتحول إلى ما يشبه الغراء اللزج ولكن من دون رائحة. ومع ذلك، تمكنت من فتح عينيّ على صورة سقف تآكل من الرطوبة حتى تعرّى من طلاء غرفة النوم الوردي، فبدا كصورة نفسية من تلك التي اعتاد النفسانيون تقديمها لمرضاهم كلما رغبوا في الوقوف على خطورة أمراضهم.

تأملت الصورة في السقف، فبدت لي كمسخ يحاول أن يتشكَّل من جديد.

فكرت في عدد الأشكال المحتملة في الصورة، فخلصت إلى أنه لا نهائي، ولكنه في النهاية لن يؤول إلا إلى الواحد، فتلك الصورة رغم ضبابيتها ورغم تفاصيلها الكثيرة والمتعددة والمتغيرة أيضا، لا تكاد تمثل إلا واحدا من عشرة مما أشعر به تجاه نفسي، ففي النهاية لا توجد في

كل هذا العالم صورة حقيقية للمسخ سواي، وإن وجدت، فلن تكون أكثر أصالة مني.

هذا الشعور بالقرف من نفسي، جعلني أنسى آخر قبلات النوم التي تخيّلت أنها طُبعت على جبيني حين حاولت منذ ساعة أن أنام، ولكنني ما لبثت أن شعرت بشيء جعلني أخرج من غرفة نومي إلى المطبخ، لأستسلم أخيرا للأرق ولرغبتي في قراءة شيء كتبته منذ وقت، حين توهمت – بسبب قراءاتي الكثيرة – أنني قادر أن أكتب رواية من جديد، فمنذ أربعة أعوام وأنا أحاول أن أبدأ، أقصد أن أنتهي من لعنتي وأكتب ما وعدت بأن أكتبه، ولكنني وفي كل مرة أبدأ في الكتابة أشعر بالملل فأتوقف، وكأن لا شيء عندي لأرويه.

اليوم أشعر أنني تحررت من قيدي، أشعر أنني قادر على أن أكتب من جديد، كما كنت قبل سنين عقمي، حين كنت "ريماس إيمي ساك" كاتب الروائع. أذكر أول مرة أقرأ اسمي على جريدة، كان مشفوعا بوصفي "ظاهرة". كان هذا قبل أربع وثلاثين سنة، عندما ظهرتُ من العدم مثلما أحبَّ أحدهم تذكيري ببدايتي، ولكنني وعلى عكس تخميناته كنت قبل أن يكون ريماس هذا، بيد أنهم قرروا في لحظة حسد وغرور إعدامي بتجاهلهم. وقتها فكرت أن ثمة خطبا في بدايتي تلك. فكرت كثيرا وقررت الابتعاد عنهم وعن لغتهم قدر ما أستطيع. هكذا وجدت نفسي أقرأ مرة أخرى فقرات قرأتها قبل اليوم مئات المرات، ولكنني هذه المرة بمجرد أن انتهيت من قراءة آخر حرف منها رأيت ما قد يسميه كاتب محترف "استرسالا" تفرضه الجمل. بالطبع لم يكن لي أن أسمي ذلك بهذا، ولكنني شعرت به كما يشعر الصبي بالرغبة من دون أن يكون قادرا على وصفها أو فهمها.

نظرت حولي وكأنني خشيت أن تستفيق زوجتي من نومها فتعكر عليَّ مزاجي، ولكنني حين سمعت ما يجدر بأي كان أن يسمعه في مثل هذا الوقت الليلي الهادئ، أي لا شيء، عدت للنظر إلى شاشة الحاسوب،

وفي رأسي ما حدث البارحة حين عجزت عن الكتابة مرة أخرى، أو ككل مرة منذ أربع سـنوات، ثم تذكرت خشـيتي من أن تستفيق زوجتي فابتسمت بمـرارة، ذلـك أنهـا توفيت منـذ أربعة أعوام، غادرتني يـوم غادرني الإلهام، وكأنهمـا تحالفـا ضـدي، ليتركاني وحيدا وفي أنفي رائحة كان من الهباء أن أحاول فهم سبب وجودها حتى.

هذه المرة لم أستسلم، فلهذا اليوم رائحة تشبه البداية..

كم أحب اسـتعمال هذه الجملة في رواياتي، لا أمل أبدا من تكرارها مـن دون خشـية فـي أن يملها قرائي، حتـى أن أحد النقاد، أقصد أحد الذين لا عمل لهم إلا تقفي عثرات أمثالي، كتب سـاخرا: "ريماس إيمي سـاك أو السيد صاحب الرائحة التي تشبه البداية".. كتب ذلك وفي ظنه أنه نكلَّ بي وعرّانـي أمـام الجميـع، وهو في الحقيقة لم يفعل أكثر من خدش مرآة بظفر مقلم.

وقبل أن أعيد قراءة ما كتبت للمرة الثانية، شـدتني رغبة غريبة في أن أتمدد على سريري مرة أخرى. لم يكن التعب ما استلّ رغبتي تلك، ولكنه أمـر آخـر خطـر على بالي في لحظة إشـراق ظهر لي، وهـي تملأ قلبي، أنها نهاية لكل مآسيّ.

تمدّدت مرة أخرى، وأطبقت جفنيَّ على صورة السقف المتآكل، من غيـر أن يعنينـي مـا قد تحولت إليه في الأخير وأنفي يلتقط رائحة الاسـتثارة المنبعثـة مـن ذكـرى زوجتي. ربمـا تكون ميتة ولكن ذكراهـا ورائحتها بقيتا معي، والغريب أنهما التصقتا بغرفة النوم أكثر من أي مكان آخر. (لا أعرف ما يجعلني متأكدا من هذا، غير الشعور الذي ينتابني كلما دخلت إلى غرفة نومي).

للحظة شـعرت بالهدوء وأنا في ظلمتي الاختيارية أتأمل نفسـي، ربما كنـت لحظتهـا قـد تماهيـت مع الأعمى الـذي في داخلي، ولكنـه كان تماه غيـر صـادق أو لنقـل غير مجد إلى حد ما، ما دمت أعلم أنني في أي لحظة يمكننـي أن أفتـح عينيّ وأخرج مـن عالم العميان إلى باحة المبصرين. ومع

ذلك حاولت أن أصدق شعوري بالعمى وأسير في ظلمتي الاختيارية، وأرى ما يمكنني أن أجد.

المهم، أغمضت عينيّ لأجدني في الظلام، ليس كبطل بول أوستر في "رجل في الظلام"، بل كبطل روايتي "انتحار" تلك التي حملت الثناء إليّ، حين قرر أن ينتحر بالعمى، فألصق جفنيه بلاصق قوي، وظل على هذه الحال عشرة أعوام حتى توهم أنه أصبح كفيفا بشكل نهائي.. الفكرة، إنني حين وجدتني في الظلام، أيقنت حقا أن لهذا اليوم رائحة تشبه البداية، تماما مثلما كانت تقول أمي كلما حاولت أن تقوم من مكانها لتشتغل على أي شيء، كانت تطمع نفسها بالبداية وهي تدري أنها فوتت تلك المحطة باكرا، ربما قبل أن تقولها بسنوات، ومع ذلك كانت تقولها لتأمل أو تتمكن من الاحتمال.

في ظلمتي تلك، خُيّل إليّ أنني أرى صورة السقف من جديد. بدا المسخ واضحا بشكل بعث الذعر فيّ وكأنني أراه، ولولا أنني تذكرت عماي لازددت ذعرا. كنت أقول لنفسي يكفي أن أفتح عينيّ ليختفي المسخ، فلم أكن مجبرا كبطل روايتي "انتحار" أن أعاشره عشرة أعوام، ولم أكن أملك العشرة أعوام هذه لأهديها له وقد طرحت من عمري سبعين سنة.

كان المسخ يشبهني إلى حد القرف، ولكنه وعلى عكس وجهي المتبشش دوما كان عابسا حتى لا أقول حزينا وكأنه حين رآني تملكه السأم.. أيمقتني مثلما أمقته؟!.. ولكن علامَ وأنا الذي بعثته في وجه حمله إلى الحياة. ألم يكن وجها عاديا، يوجد في العالم منه الملايير، وجعلته وجها خالدا خلود ريماس إيمي ساك وخلود رواياته الثلاثين، حتى إنني كرمته ذات مرة حين همست لنفسي أن تجعل منه شخصية في رواية لم تكن تحتاج إليه في شيء، فقط لأنه وجهي، فعلام يتقزز مني إذن؟!..

وحين شعرت بالذعر وتذكرت عماي المؤقت فتحت جفنيَّ على

صورة المسـخ على السـقف، ولكنه على عكس ما بدا لي في الظلمة، كان مسخا أقل تشوها مني.. ربما الضياء ما منع تطابق الصورتين"..

***

وقتما انتهى ريماس من قراءة جمله في رأسه، شعر بالسعادة والاكتئاب في نفس الوقت. كان سـعيدا أن تمكن أخيرا من تأليف أي شـيء، ومكتئبا لأنـه رغـم ذلك لـم يكن قادرا على كتابة ما ألّف. ولولا أن غروره منعه من رؤيـة الصـورة كاملة، لشـعر بالأسـى أيضا علـى قتيله الكاتب الشـاب وقد أمضـى ثلاثيـن عامـا يسـتحضر هاذين الشـعورين في كل مرة يصـدر رواية جديـدة. كان مثلـه أيضا، طيلة تلك السـنين يشـعر بالسـعادة والاكتئاب في نفس الوقت.

الفصل الحادي عشر

كان سرّ امتناع صورة ريماس إيمي ساك عن عثمان بوشافع، هو نفسه السر الذي يجعل الإنسان غير قادر على تصور الله. ليس لأن ريماس كان إلها على أيّ نحو. بل لأن عثمان وقد رهن حياته له، جعل منه إلها بالفعل.

ولئن كان يبرر تأليهه لريماس بتورطه في رواياته، فإن الحقيقة كانت أبسط من هذا. ذلك أن عثمان بوشافع لفرط ما استلهم ريماس من حياته، أدمن وجوده في كتبه، حتى تماهى وجوده الحقيقي مع وجوده الورقي في البداية. ومع مرور الوقت زال وجوده الحقيقي تماما، ولم يعد ثمة إلا عثمان بوشافع الشرطي الفاسد الذي أطلقته روايات ريماس إلى الوجود.

لا أحد، غير صاحب المقهى، كان يعرف من كان عثمان بوشافع قبل أن يدمن الوجود في روايات ريماس، ولا حتى سيباستيان الذي بدأ يشعر أن هناك خطبا ما في وجوده. ربما كانت كثرة التفاصيل التي تميز أسلوب ريماس إيمي ساك ما جعلته يرتاب في عالمه. إذ لا يوجد عالم حقيقي يسعى إلى الكمال مثلما تسعى إليه عوالم ريماس. على الأقل، ليس إلى درجة أن تختفي فيها كل الشخصيات الطارئة، لتبدو عوالم وجدت لتحوي أشخاصا بعينهم، وهو رسم معكوس للوحة الوجود الحقيقي الذي تخلق فيه العوالم قبل الأشخاص.

ربما لهذا ابتكر سيباستيان نظرية الانعكاس التي حدّث النادل عنها، ليبرر من دون أن يقصد وجوده في عوالم ريماس رغم عدم وجوده في العالم الحقيقي. ومع أنها نظرية تدعو للتأمل، إلا أنها أغفلت أهم حقيقة وجدت منذ ابتكار المرايا، وهي أنه لا انعكاس لشيء غير موجود في الأصل.

ومن جميع من كان يرتاد مقهى "ثلاثون"، كان النادل وحده من يعرف الحقيقة. لهذا لم يشأ أن يخبر سيباستيان بفساد نظريته لئلا يدفعه إلى التفكير

مجـددا فـي وجـوده، ومن ثم يصل إلى الحقيقة التـي بمجرد الوصول إليها ينتفـي وجـوده معهـا. ولهذا أيضا لم يشـأ أن يتمادى مع عثمان بوشـافع في الحديث عن حياته الأولى. لأنه في عالم الأبدية الذي اختاره يصبح "القبل" عدما، ما يعني أن السعي إليه انتهاء.

***

كان النـادل وهـو ينتظـر إجابـة عثمـان التي لن تأتي، مشـفقا عليه من الجنـون. ربمـا وهـو يسـأله لم يكن ينفـذ إلا رغبة قديمـة تملكته منذ عرف الحقيقة. وهي أن يجد طريقة ما للانتهاء من الأمر. فلطالما فكر أن صاحب المقهى يجد متعة رهيبة في جعل زبائنه يدورون في حلقات فارغة. يوهمهم بأنهم يعيشـون حياتهم، وهي في الحقيقة ليسـت أكثر من أدوار مقيتة كتبها لهـم وأجبرهـم علـى لعبهـا. لـم يكن ثمـة من خيار فـي نهايـة المطاف إلا الاسـتمرار في الدوران. حتى إنه حين أعطاه سيباسـتيان مخطوطة الكتاب، أدرك لتوه أنها لم تكن إلا خدعة جديدة من خدع صاحب المقهى ليسـتمر اللعـب إلـى ما لانهاية. كان يعلم أن تسـليم تلـك المخطوطة لريماس يعني إبقـاءه علـى قيـد الحيـاة، ومن ثم تعود مسُـخه إلى ارتياد مقهـاه من جديد. لن يحتاج ريماس بعدها، إلا لاسـم جديد ولشـاب أرعن ذي موهبة خارقة ليوهمه أنهما شـريكان في الكتابة، وتبدأ بالنسـبة إلى النادل مأسـاة أخرى، وحيـاة كحياتـه التـي قضاها في خدمة أشـخاص لا غاية لهم في الوجود إلا إمتاع صاحب المقهى.

فـي الحقيقـة، كان للنـادل شـريك غير متوقع. حتـى صاحب المقهى مـا كان ليفكـر فيـه. كانا في سـعيهما إلـى القضاء على ريمـاس، قد بدآ في خطـة تنتهـي باسـتقدام جميع من اسـتلهم ريماس إيمي سـاك مـن حياتهم، حتـى أدمنـوا تواجدهـم في أعماله. بالطبع لم يكن ممكنا أن يسـتقدما تلك الشخصية التي استعملها ريماس في أحد أعماله والتي لم تكن تحمل اسما. أولا لأنهـا لـم تدمـن التواجد فـي روايات ريماس، وبالتالـي بقيت محافظة

علـى وجودهـا الحقيقي، وثانيا لأن تلك الشـخصية لم تكن في الحقيقة إلا الكاتب الشاب الذي قتله ريماس.

- لا بأس إن لم تتذكر شكله عزيزي.

قال النادل مواسـيا عثمان بوشـافع الذي بدا تائها على نحو أفظع مما كان عليه وهو حبيس شقته لأزيد من ثلاثين سنة.

أضاف النادل حين شعر بأن عثمان لم ييأس بعد من محاولة التذكر:

- مهما يكن، بمجرد أن تراه بعد قليل ستتذكره كأنك لم تنس وجهه أبدا.

- أتقول أنني سأراه اليوم؟!

- هو ذاك، أنت وجميع أصدقائنا.. جميع زبائن المقهى سـيزورونه الليلة.

وأضاف مصطنعا الحزن:

- الرجل يحتضر، ولعله لن يشهد ليلة أخرى. وفي مثل هذه الأوقات يجدر بكل من عرفهم أن يكونوا برفقته حتى تحين ساعته.

- يحتضر؟!

صـاح عثمـان غيـر مصـدق، فلـم تنقـض سـاعة بعـد منـذ أن هاتفـه ريمـاس. ولئـن بـدا ضعيفا فقد كان صوته - وهو يكلفـه بمهمة البحث عن القاتل - مفعما بالحياة. حتى إنه بعد ذلك رسم له مساره إلى هنا بالتدقيق، بحيث لم يغفل أية تفاصيل تسـتحق. وكل ما حدث له: اسـترجاعه لذاكرته وعودة حدسه كمحقق حذق، كان بفضل ريماس، كل ذلك يرجِّح أن مسألة احتضاره ليست أكثر من ترهات لا يقبلها عقل.

بمثـل هـذا فكر عثمان لحظتها، ولكنه بالمقابل كان يعلم أن النادل لا يمكن أن يتفوه بأية حماقة.. إنه النادل، اليد اليمنى لصاحب المقهى. وحده من كل مَن تواجد في مقهى "تلاثون" كان على علم بكل تفاصيل الخارطة الكبرى. ووحده أيضا من كان يعرف أسرار كل الزبائن، حتى أسرار ريماس لـم تخـف عنه. ورغم أنه لم يخـرج ولا مرة من مقهاه إلى العالم الحقيقي،

فإن صاحب المقهى عوضَّه عن ذلك بالقدرة على رؤية العالم، كل العالم، من دون أن يضع قدما في الخارج.

وإذ ذاك انتبه عثمان بوشـافع إلى أمر أغفله منذ البداية. اليوم انقضت خمسـة أيـام مـن المهلـة التـي منحهـا القاتل لريمـاس، ولكنها خمسـة أيام بحسـب تقويـم أصحاب موهبـة القرار. ولا أحد، حتى ريماس نفسـه، كان قـادرا علـى الجـزم إلى أي العالمين ينتمي القاتـل. بالطبع كان الأمر ليكون مفروغا منه لو أنه كان من ذوي موهبة القرار، فإن هذا يعني أنه لم تزل أمام ريماس عشـرون يوما أخرى، وهي مهلة كافية لعثمان بوشـافع ليمنع القتل عن ريماس. ولكن ماذا ستكون عليه المسألة إن كان القاتل ينتمي إلى العالم الآخر. هذا الذي عاش فيه عثمان بوشافع في حياته الأولى حين كان مجرد فانٍ لا يفهم من "الأبدية" إلا ما يقرؤه عن الله.

الآن، ومـع مـا قالـه النادل، أصبـح الأمر واضحا. حتـى ريماس بكل عبقريته وبكل ما يمتاز به من اعتناء مفرط بالتفاصيل، لم ينتبه إلى أن المهلة تنتهي بانقضاء هذه الليلة أو ربما بعد ساعات قليلة أو ساعة من الزمن.

حينئذ، شـعر عثمان بوشـافع بالانهيار. لا حزنا على ريماس الذي لا يسـتحق حـزن أي واحـد عرفه علـى حقيقته، ولكن على نفسـه، حين أدرك أن انتظـاره للآتـي لم يكن إلا انتظـارا للموت.. موت ريماس لم يكن يعني إلا المـوت بالنسـبة إليـه، وهـو كالأبله قد خرج عن النـص الذي وضع فيه منـذ البدايـة، لتغويه وعود ريماس ويتورط في قضية لن تنتهي إلى أي خير. أيمكنه التراجع الآن والعودة إلى شـقته ليظل فيها إلى الأبد، بطلا في قصة عاشها منذ أزيد من ثلاثين سنة، كمحقق نذر حياته لمعرفة الحقيقة؟!.. لو تمكن من ذلك، فلن يعبأ بمصير ريماس هذا. فلطالما كانت الحياة هكذا.. يموت الكاتب ويبقى ما يكتب..

فـي الحقيقـة، كان يعلـم أن الخـروج عن النص الأصلـي لا يعني إلا دخـولا إلـى نـص آخر. وسـواء اكتمل هـذا أو لم يكتمل، فسـيرتبط مصيره بـه. لا يمكـن أن يجبـر خطـأه، ولا مجال للتوبة أيضـا. كان عزاؤه الوحيد،

أنه في لحظة انتهاء كل شـيء، لن يكون وحيدا في الموت. أخيرا سـيعيش ولـو للحظـات متعة اللاوحدة، حين يسـتجيب زبائـن المقهى لدعوة النادل ويخرجون بدورهم عن نصوصهم. حتى همُ، لا مجال للعودة بالنسبة إليهم.

ووقتمـا اسـتعاد عثمان بوشـافع رباطة جأشـه. بدأ زبائـن المقهى في التوافـد. ولـم تنقـض دقائـق حتى امتـلأت المقهى وكأنها عـادت إلى عهد عزهـا. ثلاثـون طاولة بكراسـيها، تعج بزبائن وإن بـدت ملامحهم لم تتغير فـي شـيء، إلا أن انضباطهـم لم يعد نفسـه. كانوا يتحدثـون مع بعضهم من دون أن يعبـأوا بأهـم قانـون وضعـه صاحـب المقهى "يحظـر الكلام إلا مع الذي تجالسـه على نفس الطاولة". ومع هذا لم يبد على النادل أي انزعاج علـى الإطـلاق. فقـد كان وجهه العتيـق ذو الألف تجعيدة نضـرا وكأن ثمة من حقنه بالشـباب. ربما ما ارتسـم على وجهه سـاعتها لم يكن إلا سـعادة طالما بحث عنها في الامتثال لأوامر صاحب المقهى من دون جدوى. أما الآن، فهو يشعر بشيء يشبه السعادة.. يشبهها فحسب. لأن مثل هذا الشعور لا يمكـن أن يعتـري المـرء إلا حيـن ينجز ما يبرره. وهـو لحد الآن، وحتى وإن لم يبق عن إتمام المسـألة إلا أيسـر الأعمال، لن يسـمح لنفسـه ويتوهم السـعادة مثلما كان يفعل في سـنوات إيمانه بأن طاعة صاحب المقهى تعني بلوغ منتهى السعادة.

ومع ذلك يمكنه أن يحسّ ببعض الرضا، وهو ما شـعر به حين وضع الكرسـي الـذي اعتـاد ريماس إيمي سـاك الجلوس عليه طيلة ثلاثين سـنة. جلس على الكرسيّ ثم أخذ يمسح الغبار من على الطاولة الواقعة في آخر الصالـة. ولحظـة مـا انتهـى، انتقل لينفـض الغبار من على كرسـي الكاتب الشاب بعناية نادل ينتظر أن يدخل عليه زبون قديم.

الفصل الثاني عشر

على المرآة ارتسم جسد كامل من دون رأس. لم يعد الأمر يقبل أي تخمين آخر. إنه جسد رجل هرم بلا ريب.

فكر ريماس من دون أن يرغب في التحقق ما إذا كان الشلل انتشر في كامل جسده. كان يكفيه ما أصبح يظهر على مرايا خزانة غرفة نومه ذات الأبواب الستة، ليعرف أي عضو منه توقف عن الحركة للأبد. لم يعد يملك إلا رأسه، ولن يطول الأمر لينتقل الشلل إليها وينمحي من الوجود.

هكذا أدرك ريماس أنه أقرب إلى الموت مما كان عليه من قبل. ربما لم يعد يفصله عن النهاية إلا دقائق. لا شيء مؤكد مع السرعة التي ينتشر بها الشلل.

الآن أصبح الأمر مؤكدا، قاتله من العالم الحقيقي، فالخمسة والعشرون يوما التي أعطاها له مهلة لينفذ حكم الإعدام فيه لم تكن في عالمه إلا خمسة أيام فحسب. وهي في الحقيقة خمس ليال فقط بسبب أنه منذ أربعة أعوام لم يستيقظ إلا ليلا. لقد قضى كالأحمق جلّ ما تبقى له من العمر نائما، وها هو الآن مقبل رغما عنه على نوم لا صحو منه.

في هذه الأثناء تمنى لو أنه لم يتسرّع بالخروج من غرفة مكتبه. كان خيارا ساذجا ما قام به، فلو أنه بقي هناك لتعاطى مع موته بشكل أفضل. فهناك، كانت نهايته لتكون أقل مأساة مما هي عليه الآن، لسبب بسيط وهو أنه حينها لن يموت بمفرده، فكل كتبه الثلاثين بكل ما فيها، كانت لتحمله إلى الموت على أجنحة الرضا. أما الآن فلم تعد هناك فائدة ترجى من الندم. ما حدث قد حدث، وليس أمامه إلا أن يغلق عينيه ويستقبل الفناء.. يغلقهما وهو يفكر في نفسه، في ريماس إيمي ساك، كاتب الروائع.. هذا العبقري الذي قلب العالم برواياته الثلاثين.. هذا الذي صنع من اللاشيء شيئا وخلق

عوالم لا يعلم إلا الله كيف صنعها.

ولكنه حين همّ بإطباق جفنيه سمع جلبة وأصوات تزداد قوة كلما مرت الثواني. أسعده الأمر أن أذنيه ما زالتا سليمتين ولم يبتلعهما السكون بعد. وحين هم ليهمس لنفسه بسعادته تلك، أدرك أن شفتيه لم تعودا تستجيبان لأوامره. لقد باغته الشلل ومسح على رقبته وذقنه وفكيه، وحينما فعل ذلك رسم قبلة على شفتيه لم يشعر بها إلا الآن.

واستمرت الأصوات تزداد قوة، حتى إنه للحظة شعر أنها في مكان ما داخل شقته. ربما يكون أصحابها قد اقتحموا بيته وهم الآن يلهون في غرفة مكتبه. لم يشأ أن يفكر في مصير كتبه الثلاثين بين أيدي هؤلاء. أي ألم هذا الذي يفرضه مثل هذا التخمين؟!..

وحين أصبح الألم لا يطاق، تجاهل ريماس تلك الأصوات وأطبق جفنيه. كل ما كان يرجوه أن يجد في تلك الظلمة التي يلجها بعض الراحة. هناك تمكن من استعادة جسده، ولكنه كان جسدا هامدا كالذي رآه على المرآة. ومع ذلك اختلف الوضع في أنه استعاد تحكمه في شفتيه. يمكنه الآن أن يتكلم، أن يضحك، أن يصرخ.. والأكيد يمكنه الهمس أيضا.

وإذ ذاك، فكر في لو أنه يدخل مرحلة أخرى من التخيل، كأنْ يتخيل شيئا آخر داخل تخيله الآن. سيكون الأمر ممتعا ورائعا لو تمكن أن يعيش خيالين في نفس الوقت.. خيال داخل خيال. إن الأمر يشبه في تركيبته الدمى الروسية، ثماني دمى في دمية واحدة. يمكنك أن تركب كل واحدة على حدى وتكون بذلك قد امتلكت ثماني دمى. ويمكنك أيضا أن تدخل كل واحدة في الأخرى، وفي النهاية تحصل على دمية واحدة رغم أنها ثمان في الحقيقة.

هكذا فتح ريماس إيمي ساك عينيه في خياله من دون أن يفتحهما في الحقيقة. ولكن بمجرد أن فتحهما حتى تراءى له وجه من الماضي.

- حليم؟!

- كيف تشعر سيدي؟

سأل الشاب الذي كان فيما يبدو في الأربعين من العمر. ولكنه بسبب هندامه وتكرشه المبالغ فيه وذقنه سيئة الحلاقة، بدا أكبر من عمره.

- ألا يفترض أنك مِتّ؟!
- بالطبع أنا ميت.. أنت أعلم بهذا.
- أيعني هذا أنني مت بدوري.

ضحك الشاب، مربتا على كتف ريماس:

- ليس بعد.. ربما قريبا جدا ولكنك لم تمت بعد.
- أنا إذن أتخيلك فحسب..
- لطالما تخيلتني. هذا ليس أمرا جديدا.
- ولماذا أفعل الآن؟.. لقد مر وقت طويل، حتى إنني بالكاد أذكرك. ألم يكن يجدر بي أن أتخيل من هم أقل قدما منك؟!.
- ربما، ولكنني أعتقد أنك ترغب أن تستشيرني في أمر ما.
- أي أمر؟!
- الموت.. ترغب في معرفة كيف يكون الموت.
- وهل تعلم أنت؟
- في الظاهر نعم، ولكن في الحقيقة لا.
- ألا يمكن أن تكون أكثر تحديدا. لا وقت لديّ لحل الألغاز.
- لا أعلم إلا ما علمتني أنت. لا تنس، أنت من جعلني أموت.
- صحيح.. صحيح أنا من قتلتك في النهاية.

وكأنه تذكر شيئا، تملكه الضحك للحظة ثم أضاف:

- كان موتا مضحكا، ألا تعتقد.. أقصد هذا الذي منحتك إياه.
- لا.. المضحك موتك أنت.

أضاف مبتسما بخبث:

- أليس من الطريف أن تموت بنفس الطريقة.
- أنت مخطئ عزيزي. ليس بينهما أي تشابه. أنا أموت مقتولا، أما أنت فقد اخترت موتك بنفسك. أقصد حين قررت أن تنتحر بتلك الطريقة

السخيفة. أنا لم أمنحك إلا ما رغبت فيه. تذكر.. حاولت تحدّي القضاء، ورحت تحسب لموتك بالوقت والمكان. لقد منعتك أن تنهي حياتك بطريقتك وجعلتك تموت بالطريقة التي تفيد غيرك بعد أن ترحل.

- هه.. ما زلت معتوها ريماس، حتى في ساعة موتك. ألن تعترف أنك جعلت مني أضحوكة حين قررت أن أموت بتلك الطريقة. دعني أنعش ذاكرتك وأعيد ما كتبته عني، ربما بعدها تعترف أنك قررت بشكل ما أن يكون موتنا متشابها.

- ليس عليك أن تفعل، لم أنس شيئا كتبته في حياتي. ولكنني أصر أنني لم أفعل هذا لأسخر منك. كل ما في الأمر، أنني لم أحب أن تستسلم لليأس مثلما فعلت. فلسبب ما كنت أراني فيك، وحين لم أستطع ثنيك، جعلت موتك كوميديا حتى لا أشعر بالذعر.

أضاف حين انتهى من الاعتذار:

- المهم.. كيف وجدت الموت؟

- لا أعرف بالضبط. كل ما يمكنني أن أقول عنه أنه ليس نهاية لأي شيء.

- كيف؟!..

- ربما.. ربما لأن الحياة لم تكن قط بداية لأي شيء..

***

في هذه اللحظة أدرك ريماس إيمي ساك ألا جدوى من بقائه هنا. ليس ثمة خيال كاف يمنع الحيرة عنه. لهذا أطبق جفنيه في خياله الثاني ليتمكن من العودة إلى ظلمة خياله الأول. وهناك فتح عينيه من جديدة ليلج الواقع الذي حاول الفرار منه قبل قليل. ولكنه هذه المرة فتحهما على ما لم يتوقع على الإطلاق.

شعر وهو ينظر حوله محركا حدقتيه أن ثمة خطأ ما حدث في حركة الوجود. "لا يعقل ما يحدث". حدث نفسه وهو يحلق في وجوه طوقته

أجسـادها مـن كل جانـب. كانـوا من الكثرة مـا جعلهم يتزاحمـون بجنون. يتدافعون رغبة في رؤيته ممددا في مكانه، وكأنه أصبح مسـخ سـيرك يرغب الجميع في إلقاء نظرة عليه.

ومع كثرتهم، تعرف ريماس عليهم من دون جهد: هذا عثمان بوشافع، وتلك نوى شيرازي والآخر ما اسمه.. نعم بوعلام عباس. أما ذلك الرجل الفـارع الطـول الشـبيه بقرد شـنبازي لا بد أن يكون حسـان ربيعـي، بجانبه نبيلة ميحانك وخلفها تختبئ نيسـة بوتوس خشـية أن يراها عمار الطونبا.. جميعهـم كانـوا هنـاك. كل الذين كتب عنهـم، وكل من أجبرهم على إدمان قصصه، حتى فقدوا بسببه حياتهم الحقيقية ليصبحوا مجرد أسماء لا تاريخ لها إلا ما شاء لهم ريماس.

وبقدر ما بدا الأمر مستحيلا، فقد تساءل ريماس إيمي ساك عن الشاب الذي استعمله في روايته الأولى. هذا الذي لم يحمل اسما. ألم يكن يجدر به أن يكون هنا مع كلّ هؤلاء؟!

تسـاءل فحسـب. لأنه لحظة ما رغب في التفكير في الجواب. أدرك أن الشلل انتقل إلى أذنيه وبدأ يشعر به يزحف نحو عينيه. لم يعد هناك من سؤال يستحق عناء طرحه إلا واحد قبل أن يغادر الحياة: "لمن هذا الجسد الـذي يتشـكل علـى المـرآة؟". وإذ ذاك حرك حدقتيه ناظـرا إلى مرايا خزانة نومه. أصبح للجسد نصف وجه الآن: ذقن، فم، أنف وأذنان.

لحظـات فقـط ويكتمـل الوجـه. حينهـا سـيتمكّن ريماس مـن معرفة صاحبه. هذا إن أمهله النور ثوان قليلة ليراه قبل أن يعمى.

ولكنه قبل أن يرى آخر أمانيه يرتسم على المرآة، لاحظ أن يد الجسد مسبوطة على نحوٍ يوحي بأنها كانت تمسك بشيء ما. ركز نظره أكثر، فرأى كومـة مـن الأوراق متناثـرة على الأرض. حاول أن يقرأ شـيئا منها ولكنه لم يسـتطع. ثـم حـرك حدقتيه من جديد بنحو يسـمح له بالتركيز على الجسـد في المرآة، فذعر حين أدرك أنه لم يعد الجسـد وحده مرسـوما عليها. لقد انعكسـت صور الذين يطوقونه بأجسـادهم. كان الأمر غريبا أن يحدث مثل

هذا، لأن هؤلاء لم يكونوا إلا أسـماء لا تصلح أن تنعكس على أي شـيء. إذ لا يمكن أن تعكس المرايا أجسادا لا وجود لها في الحقيقة.

ولكنـه حيـن نظـر حوله اكتشـف أمرا أكثر مدعاة للغرابـة. لقد اختفى الذين طوقوه منذ حين، ولم يعد لهم وجود إلا في الانعكاس. حينئذ أدرك الحقيقـة التـي حـاول تجاهلها وهي أن عالمـه، كل عالمه، كف عن الوجود وتشكل على نحو ما خلف تلك المرايا. أما هو فلم يكن يحق له أن يتشكَّل إلا في صورة رجل آخر ممدد هناك بدوره. لن تنقض إلا ثوان ويعرف من يكون.

وبالفعـل، حيـن انتقل العمى إلى عينه اليمنى، تشـكلت عين في وجه الرجـل المتمـدد داخـل المـرآة. وفي اللحظـة التي تلتها بدأ يشـعر ريماس بالظلمـة تبتلـع عينـه الأخـرى. ثم مـا هي إلا أجزاء من ثانيـة حتى بدأ النور ينحسـر عنهـا. ولكنـه تمكن رغم ذلك من خطف نظرة سـمحت له بمعرفة الرجـل الممـدد على سـريره. نظرة واحدة جعلته يعـرف أن الرجل لم يكن إلا الكاتب الذي قتله منذ أربع سـنين. ولسـبب غامض شـعر ريماس وهو يختفـي مـن الوجـود بالرضا ليكون آخر ما حملـه في ذهنه إلى عالم العدم، صورة رجل مسـتلق على سـريره بعينين مفتوحتين تبحلقان في وجهه وقد عكسـته مرايا خزانة نومه ذات الأبواب السـتة. بدا له أن على وجهه تيبّسـت ملامح دهشة صبيانية شبيهة بالتي ارتسمت على وجهه وهو ينظر إليه، مفلتا آخر قطرة نور من عينيه ليسير صوب العدم.

الجُـزء الثـَاني

"لقد كنت مؤمنا على الدوام بأن الحبّ قادر على إنقاذ الجنس البشري من الدمار، وهذه العلائم التي تبدو ارتدادا إلى الوراء هي على العكس من ذلك تماما في الحقيقة: إنها أنوار أمل."

غارسيا ماركيز

حوار غير ودّي
مع كاتب لا يعرفه أحد (2)

– 1 –

س: أتقول إن المجنون من كتب هذا؟

ج: بالضبط، ولكن لماذا تصرين على وصفه بالمجنون. على الأقلّ أذكريه باسمه "ريماس".

س: يعني أن اسمه كان حقيقة "ريماس إيمي ساك"؟

ج: هذا ما تصورتُه في البداية. ولكنني اكتشفت لاحقا أنني مخطئ. ثم تساءلت عن السبب الذي يجعل الواحد يكتب عن موته؟

س: مع كل احترامي. السؤال الأجدر بالطرح هو عن عوالم هذا الكتاب الغريبة. الآن فقط عذرت نفسي حين لم أفهمه في البداية، فقد كتبه شخص مجنون.

ج: أنا بدوري مع كل احترامي، أقول لك أن عدم فهمك لا علاقة له بجنون كاتبه. لكن لا أعتقد أن علينا الخوض في ذلك، لأن غاية هذا الحوار هو تبرئتي من تهمة سرقة الرواية.

س: رائع.. أحمد الله أنك تذكرت، لأننا يمكن أن نوقف الحديث عند هذا، فأنت أخيرا أثبت التهمة على نفسك. لا مجال للشك الآن ما دمت اعترفت أن مريضك المجنون من كتب "مسائل عالقة" وكما تذكر فهي أول جزء من روايتك "ثلاثون".. يكفيني هذا الدليل.

ج: حقا؟!..

س: أكيد. لن أحتاج إلى شيء آخر.

ج: وماذا ستقولين.. إنني سرقتها من رجل مجنون وجده المسعفون في الشارع؟

س: بالضبط.. أليس هذا ما اعترفتَ به.

ج: (يضحك).. لا تنسي بالمناسبة أن تخبريهم عن هويّته الحقيقية..

س: هذه لا أعرفها.

ج: بالضبط.. لهذا ستحتاجين إلى المزيد لإثبات التهمة عليّ.

س: وماذا ستستفيد أنت؟

ج: بعض الوقت لا غير.. بعض الوقت لأثبت لك أنك مخطئة.

س: أنت حقا غريب الأطوار.. طيّب، وبعد أن قرأتَ "مسائل عالقة"، ماذا حدث؟

ج: فكرت في أن من كتب مثل هذا العمل، لا بدّ وأن يكون متمرّسا في كتابة الرواية. لهذا جعلتُ زهية زوجتي تقرأ المخطوطة بدورها. وكان ما اكتشفته أمرا يستحق عناء البحث.

س: لا تقل لي أنها عرفت من يكون كاتب العمل.. بالمناسبة لم تخبرني فيمَ تدرِّس زوجتك؟

ج: أستاذة في الأدب العربي. وكما أخبرتك فقد كانت مهووسة بالروايات. وعلى حسب زعمها فقد قرأت كل ما كتب فيها عربيا.

س: رائع.. من المؤكد إذن أنها عرفت صاحب "مسائل عالقة" إن كان كما خمّنتَ متمرسا في الكتابة.

ج: ليس بهذه البساطة، فبمجرد أن فرغت منها حتى أخبرتني بما لا يقبل أي شكّ بالنسبة إليها، أن من كتب هذه المخطوطة استعان ببعض الفقرات التي سبق أن قرأتْها في روايات أخرى. كانت متأكدة من ذلك ولكن لم تعرف على وجه الدقة في أي أعمال قرأت تلك الفقرات. ولمعرفة ذلك شرعت في البحث. والحق إنني حاولت مساعدتها ولكن ضعف قدرتي على التركيز جعلني أتراجع أمام الكمّ الهائل من الصفحات التي يفترض قراءتها لإيجاد ما نبحث عنه. أما زوجتي فلم تهتم بذلك واستمرت.

ذات مـرة وبينمـا كانت زوجتي منهمكة فـي بحثها، رغبتُ في تصفح المخطوطة من جديد. تمدّدتُ على السرير، رافعا الرواية في الهواء، محاولا العثور فيها على أي شيء يدل على صاحبها، فقد كان الدكتور رزوق واضحا في مسألة أن المصابين بالهوس الإبداعي المصحوب بالشيزوفرينيا، يرغبون دومـا فـي ترجيح كفة إحدى الشـخصيات التـي يتقمصونها. وكان يعتقد أن مريضنا يحاول إظهار شـخصيته الحقيقية وترجيحها من خلال العمل الذي كتبه. لم يكن يملك أدنى شك في أن المريض كان مؤلفا وكاتب رواية.

بينما أنا كذلك، غلبني النعاس لدقائق. أفقت وقد سقطت المخطوطة مـن بيـن يـدي علـى الأرض، لهـذا قمت لتـوي أجمعها وأرتبهـا من جديد بحسب ترقيم الأوراق. حين انتهيت وضعتها على السرير. وتمددت مجددا علـى الجنـب، وجهـي إلى خزانـة الثياب وظهـري إلى الحائـط. وكنت قد جعلـت المخطوطـة أسـفل قدمـيّ. ومن دون أن أتعمد الأمـر، أخذت أنظر إليهـا مـن خـلال مرايا خزانـة النوم. وما كدت أفعل حتـى خطر على ذهني أمرا ما كنت لأفكر فيه سابقا. حاولت التلهّي بقراءة صفحة العنوان وعوالم المرايا التي تحدث عنها المجنون في كتابه تتملك تفكيري. تساءلت حينها ماذا لو كانت تلك العوالم حقيقية على خلاف ما نعتقد؟. ولـم أكد أسألُني ذلك حتى خطر لي أن أقرأ بداية الرواية من انعكاسها على المرآة. كم كانت مدهشـة تلك اللحظة التي قرأت فيها اسـم "ريماس إيمي سـاك" على المرآة مقلوبا: "سامير كاس إيمي". كتبته مجددا بالفرنسية "RIMAS IMISSAK" وقرأته بالمقلوب مرة أخرى: "SAMIR KASSIMI". لن تعرفي أبدا كم كانت دهشة زوجتي حين أخبرتها بذلك.

***

س: أيعقل؟!

ج: بالضبط. اسـتعملت زوجتي نفس التعبير لتقول دهشـتها. لم أكن أعرف من يكون هذا الـ"سـمير" ولكنها أخبرتني أنه روائي كتب لحد الآن

أربع روايات. وحين قالت ذلك تذكّرت الفقرة التي في "مسائل عالقة" التي كانت تتحدث عن مقتل روائي شـاب كتب أربع روايات فاشـلة لم تبع ولا نسخة منها، وهو ما نفته زوجتي، على اعتبار أن "سمير قسيمي" كتب أربع روايات ولكنها قوبلت باستحسـان النقد. لكن هذه التفصيلة لم تمنعني من ملاحظة أمور أخرى، جعلت افتراض كون المجنون هو نفسـه هذا الروائي أمرا مفروغا منه، أهمها إيمايل الرجل الذي أرسل رسالة تهديد إلى ريماس إيمـي سـاك. لقـد كان "telfer@gmail.com". و telfer بالمعكـوس هـي reflet وهي كلمة فرنسية تعني "انعكاس". لم يكن ثمة من شك بالنسبة لي أن "مسـائل عالقة" لم تكن إلا طريقة المريض في ترجيح شـخصيته العاقلة المتمثلـة فـي "سـمير قسـيمي" هـذا. وبمجـرد أن خلصت إلى هـذه النتيجة قامـت زوجتـي بالبحث عـن تلك الفقرات التي قالت أنها قرأتها سـابقا في روايات قسيمي. وأكدت نهاية بحثها استنتاجاتي على نحو مطلق.

- 2 -

س: يعني أن المسألة حُسمت ولم تعد شخصية المريض مجهولة. لقد كان هو نفسه "سمير قسيمي" الروائي.

ج: هذا ما اعتقدته أنا أيضا، لو لم يحدث أمر قلّب كل شيء.

س: يا ألله.. لا تقل لي أنه لم يكن هو. لا بد أن يكون سمير قسيمي، كل القرائن تؤكد هذه النتيجة.

ج: ومع ذلك لم يكن هو، فبمجرد أن رأته زوجتي في المستشفى أكدت لي أنه ليس هو، فقد سبق أن حضرت له بيعا بالتوقيع وأخذت صورة معه، بل وتحدثت معه في أكثر من مناسبة.

س: هكذا عدنا إلى نقطة الصفر. لا تزال هوية المريض مجهولة.

ج: ليس بالضبط، فقد كتب مريضنا شيئا آخر جعلني أتأكد أنه في الطريق ليكشف عن نفسه بنفسه. قال لي الدكتور رزوق أنه يمنحنا الفرصة لنتعرف عليه بطريقة ما، ولكنها مسألة وقت ويكشف عن نفسه إذا تأكد له أننا لم نستطع تحييد شخصيته العاقلة فيه.

س: تقصد رواية أخرى؟!..

ج: بالضبط ولكن فيها شيء منعها من أن تكون مستقلة عن الأولى وكأنها تتمة لـ"مسائل عالقة"، من دون أن تكون كذلك بالفعل.

س: لا تقل لي أنها "المترجم" الجزء الثاني من روايتك "ثلاثون".

ج: هي بالذات..

المترجم

الفصل الأول

جلستُ وليليا أنطون بشرفة كافيتيريا "ميلك بار" بعد أن انتظرتها قرابة الساعة ببهو فندق "ريجينا" حيث كانت تقيم. ففي صبيحة ذلك اليوم هاتفتني حوالي العاشرة تخبرني أنها وصلت الجزائر قادمة من بيروت وحجزت غرفة بالفندق، وأن علينا أن نلتقي حوالي الواحدة زوالا. لم تضف شيئا إلا أن الأمر مهم ولا يجب أن أتأخر عنها.

كانت ليليا ربّة عملي. هكذا أحبّ أن أعتبرها. تعارفنا منذ عشرة أعوام بالصدفة حين بعثت لدار نشرها مخطوطة رواية كتبتها. كنت وقتها في العشرين فحسب. ومع ذلك لم تكن تلك إلا واحدة من أربع روايات كتبتها في وقت سابق. ففي تلك السنة، شعرت أن المخطوطة التي أرسلتها إلى ليليا تستحق أن تنشر. لا أعرف سبب ذلك الشعور إلا اعتزازي بها، فهي لم تكن رغم ما اجتهدتُ في اختلاقه، إلا قصة حقيقية حدثت معي.

المهم، لم تمرّ ثلاثة أشهر حتى وصلني ردّ ليليا الذي يمكن أن أصفه بصفعة حررتني من أوهامي. كتبت تقول:

"عزيزي..

وصلت روايتك وعرضت على لجنة القراءة. وحتى لا أطيل عليك فقد كان رأيها سلبيا مشفوعا بما معناه أن ما قرأوه لا يمكن أن يعتبر نصا أدبيا أيا كان نوعه. وخشية من أن تكون اللجنة قد تشدّدت في معاييرها فقد قرأتها بدوري، ووجدت عند الانتهاء منها أن اللجنة كانت غاية في اللطف معك، حين لم توجه إليّ إنذارا بعدم قبول استلام أي عمل يحمل اسمك في العقدين القادمين على الأقل، فأنا ومع احترامي لحلمك في أن تكون روائيا، أنصحك قبل أن تبدأ في كتابة أي شيء تصفه بالرواية لاحقا، أن تقرأ جميع ما كُتب لحد الآن في هذا الفنّ. وحين تنتهي، فحاول ألا تجرؤ على القلم

وتمهّل حتى تقرأ ما سيكتب في العشرين سنة القادمة. وبعدها سيكون من حقك تضييع وقت أيٍّ قارئ..

محبّتي الخاصة.

ليليا أنطون".

بمجرد أن قرأتها تملّكني الغضب. أخرجت ورقة وكتبت من دون أن أفكر:

"عزيزتي..

وصلني ردّك ورأيك في روايتي. ومع شكري الخالص لك على نصائحك الصادقة، لا يسعني إلا أن أصارحك بما لم يستطع أحد مصارحتك به من قبل. أقول لك بكل حب.. أنت عاهرة بحق.

محبتي المفرطة

سمير قسيمي".

ثم وضعت الرسالة في مظروف وأرسلتها إلى دار نشرها.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر على هذا النحو. بل وكان يجدر به أن ينتهي هكذا، فمع مرور الوقت أتذكّر ما حدث فأضحك على نفسي، أوّلا لأنني حاولت أن أكون شخصا لم أكنه، وثانيا لأنني تجرّأت ووصفت سيدة مجتمع معروفة كليليا بالعاهرة. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد وصلتني بعد أشهر رسالة أخرى من ليليا، تعتذر مني على تجرئها عليّ، وتنصحني، إثباتا لحسن ظنّها بي، بإعادة كتابة روايتي من جديد، مع وعد بنشرها إذا شعرت بوجود تحسّن فيها. وهكذا فعلت وأعدت كتابتها ستّ مرات وأرسلتها إليها. وبالفعل نشرتها ليليا حين رأت بأن النص أصبح قابلا للقراءة.

بعدها لم أنشر أيَّ عمل. حتى إنني لم أحاول كتابة أي شيء أدّعي لاحقا أنه رواية. واكتفيت بترجمة الأشعار وبعض القصص القصيرة. وحين بدأت أتحكّم أكثر في ناصية الترجمة خضت غمار الروايات المكتوبة بالفرنسية، وتخصّصت في بعض كتابها، حتى بدأت كبريات دور النشر

العربية والفرنسـية تسـتعين بخدماتي، لاسيما وأنني كنت أترجم من اللغتين العربية والفرنسية وإليهما أيضا.

لا أذكر أنّ هناك نصا جعلني أقضي فيه أكثر مما أُمهل نفسي لترجمته، إلا "الحـكاّءة" لريماس إيمي سـاك، الـذي جعلني ألعن اليوم الذي تجرأت فيـه علـى الترجمـة. كان نصـا معقـدا، بحبكة لا يمكن القبـض عليها، حتى الزمن فيه كان متشابكا، إلى درجة أنني كنت أضيع فيه من دون أن أعي حقا في أيّ شيء يخوض إيمي ساك: في واقع بطلته "الحكاءة" أم في خياله هو. ولكن باستثناء هذا النص، لم يعجزني أي عمل من أعماله، حتى تلك التي صنعت بريقه على غرار "انتحار"، "الجدار" و"رسل الحقيقة". لهذا اعتُبرتُ وقبـل أن أبلـغ الثلاثيـن من العمر متخصّصا في ترجمة أعمال ريماس إيمي ساك، حتى أنني ترجمتها أكثر من مرة وبمستويات أدبية مختلفة.

لـن أدّعـي بالطبـع أن عالم الترجمة جعلني أرغـب عن كتابة الرواية، لأن المسـألة لـم تكـن تتعلق بالكتابة بقدر ما تعلقت بالشـعور الملازم لها، فلقد أدركت من خلال محاولاتي اللاحقة لنشـر روايتي الأولى أنني كاتب جيد. ومع ذلك كانت كتاباتي خالية من الشعور. وحين أقول ذلك فأنا أعني الهوس والجنون والرغبة والاندماج والإيمان.. كل الأحاسيس التي تتقمص الكاتب الحقيقيّ حين يشتغل على الكتابة.

هذا ما أخبرتُ به ليليا بعد أن توطدت علاقتي بها، رغم أنها استمرت تسألني مرارا أن أحاول من جديد. فقد كانت تشعر بأنها السبب في توقفي عن الحلم. ولعل شـعورها بالذنب نحوي جعلنا نتقرب من بعضنا أكثر، ونمزج بتجرؤ كبير لاحقا بين علاقتنا المهنية وعلاقتنا الشخصية التي تطورت لتصبح "صداقـة ببعـض المنافـع". منافـع كنا نقطفها كلّما تواجـدت ليليا في الجزائر لسـبب أو لآخر، بحيث أمنع عنها شـعور الغربة وتمنحني بالمقابل بعض ما يجعل الحياة قابلة للاحتمال. وفيما عدى تلك الساعات التي اعتدنا قضاءها معا مرة أو مرتين في السنة. لم نكن إلا صديقين يشغلنا الأدب عن الحياة، إلى درجة أنني كثيرا ما اعتبرت أن ما أقوم به من ترجمة وتصحيحات وملخصات

لصالـح ليليـا ليـس عمـلا بحدّ ذاته. ولولا الشـيكات التي كانـت تصلني بين الحين والآخر من دار نشرها، لاعتبرت الأمر تطوّعا يستحق مجانيته.

كانـت ليليا تكبرني بنحو عشـرين سـنة. ومع ذلك لـم أهتم يوما بهذا الفـارق فـي العمـر بسـبب أننـا كنا منسـجمين على نحـو كبير. ولـو أنها لم تكـن متزوجـة لكنت فكرت فـي أن أعرض الزواج عليها، فكثيرا ما حلمت بـأن تكـون المـرأة التي تقاسـمني حياتي امـرأة تفهم في الحـرف. أما كيف يكون شـكلها، فهذا أمر ما كان ليشـغلني على الإطلاق، ما دمتُ أملك من الخيـال مـا يجعلنـي أعجنها على الشـكل الذي أرغب فيـه حتى وإن كانت تشبه الجاموس.

مهما يكن، كان أول سؤال طرحتُه على ليليا بمجرد أن طلبنا المشاريب "لماذا حجزت في فندق ريجينا ذي النجمتين ولمَ أصرّت أن نلتقي في شرفة كافيتيريا "ميلك بار" بالتحديد؟"، وهي التي أعرف ولعها بالفنادق الفخمة بكل مـا فيهـا مـن ترف. ثم إنها لم تكن تعرف من العاصمة إلا موقع المطار وفندق "سان جورج" الذي اعتادت الحجز فيه، فكيف اكتشفت وجود فندق ريجينا هذا، وعرفت أسماء الشوارع المحيطة به. فبمجرد أن خرجنا من الفندق سألتني أن آخذها إلى "ميلك بار" ولكن عن طريق شارع "مصطفى بن بولعيد".

ابتسـمت ليليـا وقالـت وكأنهـا لم تصغ إلـيّ: "آه.. كدت أنسـى". ثم أشارت إلى النادل وطلبت فنجان قهوة إكسبريس ببعض ماء الزهر.

أدهشـني أنها تطلب مثل هذا، وهي التي كثيرا ما عنّفتني على شـرب القهـوة. كانـت تقـول لـي بالحـرف الواحـد "إنك يـا حبيبي تشـرب موتك سائلا". ولكن الذي أدهشني أكثر أن تطلب مع قهوتها قطرات ماء الزهر.

قلت مجددا: "تبدين مختلفة حبيبتي.". فأجابت بدلال: أتعتقد؟..

أدركـت حينهـا أن تلـك لـم تكن ليليا التي عرفت مـن قبل. فقبل هذا اليـوم كنـت لأقسـم أنـه لا توجد في كل قواميس العالم أية كلمة من شـأنها إذا نطقنا بها أن تظهر الأنثى في ليليا في غير أوقات الجنس. فلطالما كانت مـن النـوع الصارم في أحاديثها حتى العاطفية. أما دلال المرأة الشـرقية فلم

يكـن يظهـر فيها إلا في سـاعات حميمياتنـا لا أكثر، فإذا انقضت ولو بدقيقة واحدة تعود لتتقمص جسد امرأة أعمال متأصلة في الحساب.

فـي الحقيقـة، كان هذا مـا أحببت في ليليا. أقصد قدرتها على الفصل بين رغباتها وحياتها العادية، والخوض فيهما بمنتهى الصدق. قدرة ما كنت لأحلـم بامتلاكهـا حتـى وإن تظاهـرت بذلك، ليس خوفا من أي شـيء، بل لأنني ومنذ وقت طويل أدركت في أي مجتمع أعيش. لهذا فضلت أن أختار لـي وجـه الرجل الطيّـب، ذي الملامح الصبيانية البريئة، رغم أن في داخلي كانت براكين الرغبة لا تكفّ عن الثوران. ربما لم أكن في ذلك مختلفا عن سواي إلا في كوني لم أنافق نفسي كلّما واتتني الفرصة. وكانت ليليا فرصة جنسية جعلتني أرضى بالصوم لأشهر من دون أن تستثيرني أية أنثى.

قلت وأنا أرى ابتسامتها طافية على وجهها: "أكيد. أنت مختلفة اليوم. صبغت شعرك كما أرى. كنت أعتقد أنك تمقتين هذا اللون".

"كنت مخطئة فيما يبدو..".

قالـت وهزت رأسـها ليتدلى شـعرها الأشـقر المتمـوّج. لا أنكر أنني وددت لـو فعلـت هـذا ونحن بمفردنا، فقد بدأتُ أشـعر لحظتها أن عليّ أن أتـدارك الأمـر وأضـع أي شـيء على حجـري. لطالما كان مـن المحرج أن يحدث لي مثل هذا في مكان عرضة للتلصص.

- أكيد.. كنتِ مخطئة بلا ريب..

قلت ومططت شفتيّ رغبة في ترطيبهما وقد جفّتا على حين غرة. ثم أضفت حين شعرت بأنها كانت تحاول بنظراتها أن تورطني مع رغبتي فيها:

- لم تخبريني عن سبب حجزك في هذا الفندق وجلوسنا هنا.

لم تجب واسـتمرّت في نظراتها إليّ. وما هي إلا دقائق حتى أدركتُ أن وضع شيء على حجري لم يعد أمرا يقبل التأجيل.

ومـن دون أن ترتشـف قهوتهـا، قامت ليليا مـن مكانها ومالت نحوي وكأنها كانت سـتقبّلني. أحرجني الأمر أن تفعل ذلك في مثل هذا المكان. ولكنني في قرارة نفسـي وددت لو أنها تفعل حقا، فتلامس شـفتاها شـفتيَّ

وتـدرك أيّ نـار كانت تلتهمني سـاعتها. ولكن مـا أن بلغ فمها وجهي حتى همسـت لي "أنا في الغرفة 142، احجز لنفسـك غرفة أيضا". وانصرفت من غير أن تلتفت.

لـم أكـن محتاجـا إلـى المزيد مـن التفكير لأوقـن أن بليليـا خطبا ما. ولكننـي ومـع كل مـا كنـت أقاومـه لحظتها لـم أفكر إلا في أن أجد أسـرع طريقة تجعلني أخمد كل تلك البراكين التي ثارت داخلي في وقت واحد.

حيـن هـدأت، دفعت الحسـاب وقمت مسـرعا لألحق بليليـا، ولكنها كانت قد سبقتني إلى الفندق بلا شك، فالوقت الذي استغرقته للهدوء كان كافيـا لتبلـغ الفندق وتصعد إلى غرفتها، ولربما أيضا لتسـتحم وتغير ثيابها. فلطالمـا كنـت مـن النـوع الذي يحتـاج إلى الكثيـر من الوقت ليفـرِّغ أولى حمولاته. ولعلّ من عرفنني من النسـاء كنّ يزددن فيّ غراما لهذا الأمر، أو لعله كان وحده ما يجعلهن يغرمن بي في الأصل.

مـا أن دخلـت الفنـدق وحجزت غرفة حتى هاتفـت ليليا. وصفت لي موقـع غرفتهـا. كانـت فـي الطابـق الثالـث تطلّ علـى مبنى المركـز الثقافي الفرنسي من الجهة الخلفية، ولكنها استمهلتني لما بعد العصر، فلم أجد بدّا من الموافقة. فقد كنت أعلم أن لليليا طقوسـها في الجنس، فهي من النوع المرتاب في جسـدها وأناقتها. وحين تواتيها مناسـبة للمضاجعة لا تترك أي شـيء للصدفة. ومع علمي بذلك وددت لو تخلصت من عاداتها تلك هذه المرة.. فقط هذه المرة إلى حين ترسي سفينتي، لئلا تغرق وتغرقني معها.

وكانت الثالثة والنصف مساء حين فكرتُ في الخروج لأقضي ما تبقى من الوقت في التسـكّع. هكذا يمكنني احتمال وطأة الانتظار، ولكنني حين هممت بذلك هاتفتني ليليا لتخبرني أنها قريبا سـتكون مسـتعدة، وأن موعد ما بعد العصر قد يتغير في أية لحظة. لذلك ألغيت فكرة الخروج وحاولت إلهاء نفسي بمشاهدة التلفاز حتى رنت الساعة الخامسة.

أمهلـت ليليـا نصف سـاعة أخـرى ولكنها لـم تهاتفنـي، فخمّنت أنها ترغـب فـي أن أهاتفهـا أنـا وفعلت. لكـن هاتفها بقي يرن مـن دون جواب

لقرابة ربع الساعة. وحين يئست كلّمتني وادعت أنها كانت نائمة ولم تشعر بالوقت. لم أحاججها وانطلقت مهرولا إلى غرفتها.

دخلت وفي رأسي مشاريع أسرعها إنجازا ينتهي في منتصف الليل. ولكنني بمجرد أن تجاوزت عتبة الغرفة رأيتها واقفة بجانب السرير ذي المكانين في كامل أناقتها. قالت لحظة رأتني أنها فكرت في أن نتعشى أولا حتى لا نضطر للخروج ليلا. ومن دون أن تسمع رأيي، تجاوزتني ووضعت المفتاح في قفل الباب وأضافت "أسرع، دعنا نذهب لنعود بسرعة. لا تعلم كم اشتقت إليّك حبيبي".

هكذا خرجنا وقضينا ساعات بين عشاء لم أستلذه وأحاديث فارغة لم تكن لتهمني في شيء. ولعلّ أهم جملة قالتها في كل تلك السهرة، ما تعلقت برغبتها في أن نعود إلى الفندق لنكمل ما لم نبدأه في الأصل.

هذه المرّة صعدنا إلى غرفتها معا رغم ادعائنا أمام أمين الفندق أننا لا نعرف بعضنا كي لا يفكر في أي شيء بغيض، فالحبّ في هذا البلد -كالموت تماما- يحتاج لممارسته إلى وثيقة تجيزه. وبمجرد أن دخلنا، حتى تعرّت ليليا من كل شيء. قالت وهي تنزع آخر قطعة من لباسها: "ألم تلاحظ أيّ شيء؟".

قلت وأنا ألتصق بها: "هذا..". ووضعت يدي على عُنُقها. ثم أضفت هامسا مدنيا شفتيّ من شحمة أذنها اليمنى: "أصبح زغب عنتك أشقر ومشذوبا على غير العادة". وطفقت أقبلها على رقبتها وهي تتأوّه وقد لفتني بساقها حتى سقطنا على السرير، أنا فوق وهي تحت. وحين هممت بأن أجعل المسألة أكثر عمقا دفعتني حتى تراجعت. قالت وهي ترمقني بنظرة داعرة: "انتظر حبيبي.. عندي لك مفاجأة". وقامت إلى حقيبتها وأخرجت سروالا داخليا أحمر اللون. لوّحت لي به من دون أن أتمكن من معرفة تفاصيله. أضافت بخفوت: "اقتنيته من باريس منذ أشهر وأنا أفكر فيك..". وبدلال أكثر: "دعني أرتديه لأجلك".

حركت رأسي موافقا، ثم استدرت لأتركها على راحتها ولكنها

التصقت بي من خلف وهمست لي: "لا عزيزي.. تذهب إلى غرفتك وتعود بعـد ربـع سـاعة. أكون فيها قد ارتديت هذا ومفاجـأة أخرى لن تخطر على بالك. أريدك هذه الليلة أن تجعلني سـعيدة. لا.. لا.. أرغب في أن تجعل مني عاهرة.. اجعلني أشعر بك داخلي حتى الفجر".

كان الحديث عن العهر والفجر والسـعادة والمفاجآت الجنسـية كافيا ليقنعني بالخروج ربع ساعة وأعود. فقد كانت ليليا تفهم في تخيّلاتي التي كثيرا ما جسـدتها معي، والتي كانت كلما رغبتْ في أن نكررها تجدني قد أبدعت تخيلات أخرى أكثر إمتاعا من الأولى.

وبعد ربع سـاعة عدت. هذه المرة وجدتُني أمام باب مقفل. حاولت أن أهاتفها لتفتح لي ولكنها لم ترد، حتى يئست وعدت مكتئبا إلى غرفتي، وأنا ألعن اليوم الذي احتلمت فيه.

في الصباح. توجهت إلى أمانة الفندق وسـألت عنها. أخبرني الأمين أنها غادرت ليلا ولكنها تركت لي مظروفا سلّمنيه. وحين هممت بالخروج رن هاتفي..

- ألو حبيبي.
- ليليا؟!.. أين أنت؟.
- في المطار، ستقلع الطائرة بعد ساعة. المهم، هل تسلّمت ما تركته لك.
- نعم ولكن..
- لا بأس إذن، نلتقي بعد شهرين.
- شهرين؟
- نعم، بعد شهرين نلتقي وفيهما حاول أن تتم العمل الذي كلفتك به.
- أي عمل؟
- أوه.. لم تفتح المظروف بعد. طيّب.. لا بأس، حين تفتحه ستفهم.. باي حبيبي.

وانقطع الخط.. تماما كما فعلت رغبتي.

الفصل الثاني

احتجت ليومين لأتخلص من تأثير تلك الليلة، وليومين آخرين لأنسى صورة ليليا عارية بشعرها الجديد ودلالها غير المعتاد. وفي كل تلك الأيام لم أتذكر أن لديّ عملا أُمهلتُ لإتمامه شهرين فحسب. كل ما فهمته من التعليمات المرفقة بالمظروف أنني مطالب بترجمة كتاب من الفرنسية إلى العربية. ولم يكن هذا الذي في المظروف من الحجم الذي من شأنه أن يجعلني أسرع في العمل خشية ألا أنتهي منه في شهرين.

كنت أملك طريقة غير معتادة في الترجمة، فقبل أن أبدأ العمل، أتحرّى عن كاتبه وأقرأ كل شيء عن حياته، وإن لم أجد، أستعين بحواراته أنَّى كان نوعها، لأفهم فقط طريقته في التفكير، فلئن كانت الكلمات هي نفسها التي يستعملها الجميع، فإن توظيف كل واحد لها وطرائق تركيبها تختلف باختلاف تكوين الكاتب وبيئته وغايته من الكتابة أيضا. فلست من النوع الذي يترجم الكلمات بما يقابلها من كلمات في اللغة الأخرى، ولكنني أحرص دائما على ترجمتها بما يقابلها من أثر خلفته في لغتها الأصلية. وكنت دوما أجد طريقة لأفعل ذلك. ولا أحسب أن أحدا جعلني أشكّك في طريقتي إلا ريماس إيمي ساك بسبب ميله إلى استعمال تراكيب وتشبيهات غير مألوفة على الإطلاق. مَن غيره يمكن أن يتحدث عن احمرار الوجه ويقول "أحمر.. كوجه موسكوفيٍّ تجرّع للتوّ قارورتي فوتكا". ومن سواه حين يتحدث عن تداخل الليل والنهار ساعة المغيب يقول "كان الليل قد ابتسم لتوه، فبظلمته الجديدة فاتح السواد كان كخلاسي لم يعلم بعد إلى أيّ العالمين ينتمي، ولعلّه في لحظة المغيب وحدها، لحظة الشك تلك، فكر في الاحتلاك أكثر".

كثيرا ما فكرت في أن ريماس كان أكثر من كاتب. أقصد إنني وفي كل

عمل قمت بترجمته له كنت أشعر بروحين تتعاركان في ساحة نصه: واحدة هادئة كالموت وأخرى ثائرة كالحياة، وبامتزاجهما وبتصادمهما أيضا ننتهي أمام نص لا يشبه غيره. فرغم أن لغته غاية في البساطة، إلا أنها تنتهي عند حدود التعقيد الذي يصعب استنساخه. وهو ما جعلني في أول مرّة تكلّفني ليليا بترجمته أعتذر لها، مدّعيا أنني لا أحب طريقته في الكتابة. حتى إنني مرّة تجرّأت على كتابة مقالة انتقدته في مسألة اعتنائه المفرط بالتفاصيل على حساب تركيز القارئ الذي شعرت بأنه لا يحترم ذكاءه ولا يثق فيه، حين يهم في كل مناسبة بتهميش أعماله وكأنها بحوث أكاديمية تحتاج إلى ذلك.

وما دمت أذكر هذا، فلا بأس أن أعترف الآن، أنني كنت مخطئا في وصف أعماله بتلك الطريقة. أما لماذا فعلت ذلك حينئذ (وأنا الآن أدرك أنني تعمدت الإساءة إليه) فهو أنني بسببه توقفت عن الحلم في أن أصبح روائيا متميزا في أي شيء.

حدث ذلك بعد أن نشرت روايتي الأولى. كنت سعيدا وقتها أنني استطعت وضع قدم في عالم الأدب. بالطبع، كنت مدركا أنني لن أتكرّس كما أرغب إلا بعد سنين، ومع ذلك كان يحدوني الأمل في أن الأمر واقع لا محالة. ولكنني وددت – استعجالا للتكرّس مثما أصبحت العادة – لو يتبناني واحد من الذين لا يمكن التشكيك في موهبتهم وتجدّرهم في الرواية. ولم أجد أفضل من ريماس إيمي ساك ليلعب هذا الدور. لهذا راسلته عبر عنوان بريده الذي اعتاد وضعه في نهاية كل مؤلف يصدره منذ ثلاثين عاما، والذي ما زلت أذكره وكأنه بريدي الخاص "ص.ب 325شارع ديدوش مراد – الجزائر العاصمة – الجزائر". وإليه بعثت روايتي.

بعد شهر بالتحديد وصلتني رسالة مرقونة بالحاسوب:

"سيّدي المحترم..

وأنا أنتهي من قراءة عملك ذي المائتين والستين صفحة. شعرت بروعة الكتابة التي تجعل البعض يتشاركون في نفس الشعور إزاء نفس الشيء. ومع أنني أعلم أن الأدب يحقق بعض هذا، فأنا أجزم لك أن عملك

الذي قرأتُ حقق أكثر.

إنني أشعر بعدما أنهيت قراءته، بأنني تشاركت مع عمال المطبعة التي طبعت روايتك في الأسى الذي شعروا به، حين أدركوا أنهم لم يفعلوا أكثر من تضييع وقتهم وجهدهم على طباعة كتاب لا فائدة منه إلا تضييع المزيد من الوقت والجهد. وكل أملي يا عزيزي أن يكون أساهم أقل من أساي أنا، بحيث أرجو من ربّ عملهم أن يكون قد تفهّم شعورهم وجعلهم يتقاضون ضعف ما يتقاضونه عادة إزاء طبعهم لعملك.

أنصحك في الختام يا ولدي، أن تجد لنفسك عملا ينأى عن الحبر والورق.

ريماس إيمي ساك"

لا يعلم إلا الله كم مقتٌّ ريماس إيمي ساك في ذلك الوقت. ولكنني لم أكن قادرا رغم ذلك على مقت أعماله معه. ففي قرارة نفسي، كنت مؤمنا بأن الكاتب الذي فيه أكثر نبلا وصلاحا منه.

ربما لهذا اهتممت بترجمة أعماله بمجرد أن وجدت التقنية المناسبة لذلك، ولعلني كنت أحاول أيضا أن أثبت لنفسي ولريماس، أنني قادر على البقاء في عالم الكتابة وإن لم أكتب بالفعل. وكل أملي وقتئذ أن ريماس مع الوقت سيلاحظ أن الذي نعته بالفاشل هو وحده من كان قادرا على ترجمة أعماله إلى العربية، ولولاه لبقي بالنسبة لجميع من لا يجيد الفرنسية، لغة كتابته، مجرد اسم لكاتب جزائري يكتب بالفرنسية، ولا أحد منهم كان ليعلم، هل يستحق شهرته فعلا لموهبته، أم لمجرد أنه جاءنا من باريس، فلطالما كانوا كثرا مثل هؤلاء. ولولا بعض الطيبة التي جبلتُ عليها لذكرتهم واحدا واحدا. هؤلاء الذين صنعوا أسماءهم لأنهم وبطرق سحرية طبعت أعمالهم في المشرق أو أوروبا، من دون أن يعنينا إن هي طبعت لجودتها أم لأنهم ملكوا المال لذلك فحسب.

لم أخبر ليليا أبدا بأمر رسالة ريماس تلك، ولا أظن أنني أخبرت

أحدا، حتى وكيله هنري دوكلار الذي التقيته قبل سنتين بمناسبة توقيع عقد ترجمة إحدى روايات إيمي ساك، لم أخبره بسابق اتصالي به. والذي رغم علاقته القديمة بعميله لم يكن يترك فرصة للتوضيح أنه لم يلتق أبدا بريماس إيمي ساك، وليس بينهما إلا رسائل يحتفظ بها، ولا واحدة منها مكتوبة بخط يده. فقد كان ريماس في مراسلاته إلى وكيله يحرص على الكتابة مستعملا الكمبيوتر. أما الذي شدني في حديث دوكلار يومها، تلك القصة التي رواها عن هوسه بريماس في السنين العشر الأولى من علاقتهما.

كنا إذ ذاك نحتفل في شقتي بعقد الترجمة أنا وهو وليليا أنطون. وكان كعادته في مثل هذه المناسبات، بحسب ما أخبرتني به ليليا، ثملا حتى اضررنا إلى إجلاسه بيننا لنأمن عليه من السقوط على وجهه، بعدما تعثر وسقط من مقعده أكثر من مرة. ولا أدري أي شيء دفعه للبكاء حين قلت له مداعبا: "لا يكف هذا الرجل – وكنت أقصد إيمي ساك – عن إدهاشنا في كل سنة برواية جديدة تجعلنا ننسى سابقتها. لكن لا بأس هنري، نحن نستقبل الدهشة وأنت تجني الثراء من كاتبنا.". وإذ ضحكنا أنا وليليا فقد بدأ الرجل يبكي حتى جعلني أندم على دعابتي. ولكنه ما أن استعاد هدوءه – واستغرق هذا وقتا – حتى بدأ معنا حديثا جادا جعلنا نعتقد أننا نصغي لهنري قبل الثمالة: "لو صدقتُ ريماس، فأنا وهو من نفس العمر. فحين اتصل بي ناشره وطلب مني أن أصبح وكيله، كنت في الأربعين. ولم يكن ريماس وقتها قد نشر شيئا من قبل، وكانت مخطوطته التي أرسلها لناشره في تلك السنة أولى رواياته. ولكنه حين أرسلها إليه جعلها مرفقة بقائمة من الشروط، اعتبرها غير قابلة للتفاوض. أراني الناشر هذه الرسالة، فاستغربت من أنه اشترط عليه وهو الكاتب الناشئ كل تلك الشروط. ورغم ذلك فقد اعترف لي الناشر أنه حين قرأ نص ريماس حدس أنه يقرأ لكاتب استثنائي، جعله يتجاهل تجاسره عليه. ثم أبدى رغبته في أن أجد طريقة للاتصال بريماس وأجعله يتنازل عن بعض شروطه المادية، خاصة وأنه طلب في رسالته تلك أن أكون أنا وكيله، رغم لا سابق معرفة بيننا. وكان بين شروطه أن

ينزل الكتاب في خمسين ألف نسخة كأول طبعة، وأن يوقع باسم مستعار هو "ريماس إيمي ساك". وأنه مهما حدث لا يمكن للناشر أن يكشف عن اسمه الحقيقي، ولا أحد يستطيع كشفه إلا هو أو من يختاره لاحقا، حتى أنا وكيله لا يمكنني معرفة اسمه وكل مكافآتي آخذها عن طريق الناشر. أما عن اتصالنا مع بعض فلا يمكن أن يتم إلا عن طريق البريد، ونفس الشيء بالنسبة لناشره أو بالنسبة لمن يهتمون لاحقا من صحفيين ونقاد.

لم أكن أفهم وقتها لمَ يرغب أحد في بداياته في أن يكتب باسم مستعار، خاصة وإن كان يعلم أنه يكتب نصوصا لا يمكن انتقادها أو حتى إيجاد ثغرة فيها. ولطالما راسلت ريماس في الأمر، لكنه كان يتجاهلني ويهددني في كل مرة أسأله فيها بفسخ العقد الذي بيننا إن تماديت في سؤاله أو حاولت معرفة من يكون. لهذا توقفت عن سؤاله ولجأت إلى حيل أخرى، انتهت جميعها عند طريق مسدود. فريماس لم يكن يترك مجالا للصدف على الإطلاق. كل رسائله لي مرقونة ومطبوعة بطابعات مختلفة. حتى حين كلفت أحدا برفع بصماته لم يجد شيئا عليها. أما مكان إقامته في الجزائر فبقي غامضا، لأنه يتحرى في كل مرة أن يراسلني من مكان مختلف. ومع مرور الوقت أدركت أنني كنت وأنا أحاول البحث عنه كمن يبحث عن ظل في منتصف الليل.".

استمر هنري في هذيانه لساعات، يبكي تارة ويضحك تارة أخرى. وحين يستعيد هدوءه بينهما، يحاول أن يحكي مأساته مع ريماس على نحو جعلني أدرك كم كنت محقا في مقت ريماس الإنسان. ومع ذلك كنت لأودّ في قرارة نفسي أن تمنحني الأقدار الفرصة لأتعرف عليه، وأسأله سؤالا واحدا لا غير: "كيف يمكن لمسخ مثلك أن يكتب كل ذلك الجمال؟". ولكنني كنت كهنري تماما مدركا بأن ذلك مستحيل.

الفصل الثالث

في اليوم الخامس بعد لقائي بليليا، شعرت بأنني لم أتخلص من نكهة دعابتها بعد. ولم يكن لها أن تغادر رأسي إلا إذا منحته تخيلات أخرى تخدره إلى حين. لا أقصد المتعلقة بالجنس، بل تلك التي تتملكني كلما قرأت رواية بحق. فلطالما كنت من النوع الذي يندمج مع قراءاته إذا شعر أن ما يقرأه متقن الكتابة.

لم يكن يومها في مكتبتي أيّ كتاب جديد لم أقرأه من قبل، إلا كتابين لجورجي أمادو[1] كنت قد اقتنيتهما عند بائع الكتب القديمة بديدوش مراد. لا أعلم بالضبط لمَ لم أحفظ اسمه رغم أنه مموّني منذ سنوات المراهقة. ربما لأنني اكتفيت بكنية أطلقتها عليه أيامها، واستمرت هذه رغم فظاظتها تعوّض اسمه في ذهني، حتى إذا ذكرته لنفسي أو لسواي قلت بحمق "البيروكة" من دون أن أفكر يوما في أنها قد تعتبر قدحا بنحو ما. كان عذري في ذلك أنني لم أجرؤ يوما على التعرف عليه كما يفعل أي زبون دائم مع مموّنه. لذلك اخترت أن أميّزه في رأسي بما يميزه حقيقة عن باقي باعة الكتب الذين أتعامل معهم، ولم يكن يتميّز عنهم في شيء غير الشعر المستعار على رأسه. لهذا لم أجد حينها حرجا في أن أسميه "البيروكة".

وبقدر ما أذكر، فقد كان "البيروكة" واحدا من أقدم باعة الكتب المستعملة في الجزائر. ومع أن مهنته لم تعد تذرّ عليه ما كانت تفعل في سنوات خلت، فقد استمر مصرا على مزاولتها، رغم أن ما في محله لم يعد بنفس القيمة والجودة. كما لم يعد مثلما كان في السابق عارفا بما في محله من كتب بحكم أنني في السنوات الأولى من معرفتي به، كنت معجبا بسعة اطلاعه وبقدرته على حفظ سِيَر جميع الكُتَّاب الذين يبيع كتبهم. أما

(1) روائي برازيلي

الآن، أصبح مجرد بائع كتب ليس إلا. كل همه أن يُحصّل ما يلزم من مال ليؤمّن رزقه، بدليل أنه لم يعد يجد حرجا في بيع مؤلفات باللغة العربية وهو الذي لم يكن يؤمن حتى بقدرة هذه اللغة على إبداع أي شيء. لكنّ هذا لا يعني أنه أصبح يؤمن بها لغة تبدع، فكل ما في الأمر أنه أدرك بأنها أصبحت لغة تبيع.

المهم، اقتنيت كتابين لجورجي أمادو منذ مدة لم أكن قد قرأتهما رغم قدمهما: "الدونا فلور وزوجاها الاثنان" و"أرض ثمارها من ذهب". ومع أنني في ذلك اليوم كنت محتاجا لأقرأ أيّ شيء يستحق، إلا أنني لم أكن مستعدا لقراءتهما بعد. فبحسب معرفتي بأمادو، فهو من النوع الذي تحتاج لقراءته لأكثر من الرغبة والوقت، هذا إن أردت أن تستمتع بما يكتب. وحين أستعمل هذه الكلمة "تستمتع"، فأنا لا أقصد المتعة التي نجدها عادة في روايات التحرّي أو غيرها من روايات تستهدف هذا. بل أقصد ما يجعل من الرواية عملا قابلا للخلود، لا عبر الزمن فحسب، بل عبر جميع ما تقرأه بعدها أو عبر ما كنت قد قرأته من قبل.

أعرف أنني لا أمجّد أمادو للأسباب الأدبية المعروفة فحسب، بل لأنه في الغالب يُظهر تحكما رهيبا في أعماله، حتى تشعر وكأنّه كتبها في ذهنه كاملة قبل أن يرسمها على الورق، فلطالما أعجبني مثل هذا الأدب الذي لا يظهر عبقرية وموهبة الكاتب فحسب، بل أيضا جهده وكدّه فيه. ولعل هذا ما يجعلني أشترط لقراءة أمادو أو أي روائي موسوعي مثله على غرار الكثيرين من الكُتَّاب الروس، أن أكون عاطلا عن العمل بشكل كامل. لعلمي التام أن المتعة التي أجدها في أعمال كهذه، هي المتعلقة بالتفاصيل. والتفاصيل أيضا هي التي جعلتني مهووسا بروايات ريماس إيمي ساك، والتي كان وبطريقة مدروسة جدا يبذرها في رواياته بحيث يجعل إمكانية تنبؤ القارئ بالنهاية في أي عمل من أعماله منعدمة تماما. وهو إذ يفعل ذلك لا يأبه برأي قرائه حين يبدأ يخوض في أمور قد لا تبدو مهمة حين يخوض فيها، أو حين يستحضر شخوصا لا دور لهم في كل العمل إلا

أن يمـروا مـرورا عابـرا، أو أن يقولوا كلمة واحدة أو حتى أن يثيروا شـعورا بالنفـور لـدى القـارئ عند ظهورهم، ورغم ذلك يأخذ كل وقته في وصفهم وتهيئة الظروف لظهورهم.

لكنني رغم حبّي لكتابات ريماس، ما زلت مقتنعا بأن ثمة ما لم يكتبه بعد. فرواياته كانت رغم تميزها تجعلني أتصوّر أنها ليسـت إلا فصولا من روايـة واحـدة، لـم تكتب نهايتها بعد. ولعلّها لن تكتب أبدا بعد توقفه أربعة أعوام عن الكتابة وهو الذي كان ينشر في كل سنة رواية جديدة.

أحيانا أشعر بأن خياره في أن يكون اسما من دون صورة جعله يمتنع عن كتابة خاتمة أعماله. وكأنّ في حياته سرّا لو كتب عنه لتهدّم الهرم الذي صاره منذ أطلق رواياته في الوجود. وأحيانا ينتابني الشعور بأن ريماس هذا ليـس حقيقيـا أو أنه اسـم لأكثر من روائي، بدليـل أنه كان في كل عام يطلع علينا برواية لا تشبه سابقتها في أي شيء تقريبا، إلا في أسلوب كتابتها. ولو أنني لم أكن مترجما وممن تسـتهويهم معرفة الجديد في عالم الرواية بكل اللغات، لقلت ربما إنه كان يسرق أعماله من لغات لا نتقنها.

ومع كل هذه الريبة التي ملأتني، فلا يمكنني الجزم أبدا أنني شككت حقـا فـي مقـدرة ريمـاس إيمي سـاك على كتابـة روايته الأخيـرة ولو قضى سنوات أخرى من المشي في أرض البوار. حتى إنني لم أصدق ولو للحظة قدرة الموهبة على التخلّي عنه وقد عاشـرته ثلاثين سـنة، أهدته فيها ثلاثين رواية، ولا واحدة منها عرفت الفشل. ما كنت لأشكّك في ذلك أبدا، لو لم يطلع علينا ناشره منذ شهر على الجرائد، ينعيه فيها، ويعلم العالم أن ريماس إيمي ساك، صاحب الروائع، قد فارق الحياة.

أذكر أنني يومها شعرت أن من فارق الحياة كان أبي. ولو أن لميت أن يشعر بأي شيء، لقلت إنني شعرت وكأنني أنا من فارق الحياة.

وعلـى ذكـر الحيـاة، فلا بأس من ذكر شـيء كتبـه وحفظته بمجرد أن قرأتـه وقتهـا. كان ذلك في روايته "انتحار": "الآن فهمتكِ أيتها الحياة. أنتِ كأية عاهرة كلّما سـعيت إليك تماديت في الفراق. وحين أبتعد تلوّحين لي

فيأسرني طمع رضاك مرة أخرى، فأقترب وأقترب. ولكنّك كلما دنوتُ أراك تبتعدين من جديد. فأقول بطيبة الطامع الآمل: "ربما..". وأقول: "قد..". لكنّك أنت كما أنت. لا خلاص من ألمك المزمن إلا بالتوقف عن الأمل، الطمع، الحبّ.. لا خلاص منك إلا بمفاجأتك بالانتهاء. أشعتِ بين الناس أن الرزق مقسوم وبأن كل شيء قضاء وقدر. ولكنك في الحقيقة لست إلا طابة في رجل القدر. تسجّل الأهداف وقتما تشاء وأينما تريد..".

كلّما ذكرت ذلك تغمرني كآبة لا توصف. لهذا قلت إنني من النوع الذي يندمج مع قراءاته إذا شعر أن ما يقرأه متقن الكتابة. وكنت لا أجد في ذلك اليوم أيّ شيء يجعلني أندمج معه حقيقة. لهذا لم أر من سبيل آخر إلا الشروع في العمل الذي كلّفتني به ليليا.

***

مجموع ما في المظروف مائة وعشرون صفحة، مرقونة فيما يبدو بخط "كليبري" وبحجم 12. الصفحة الأولى خالية من أيّة إشارة إلى اسم صاحب المخطوطة أو لعنوانها.

تبدأ الصفحة الأولى بعنوان رئيسي " Le dixième jour avant le compte a rebours"، يمكن أن يترجم "اليوم العاشر قبل العدّ". وبعدها بصفحات نجد عنوانا آخر "اليوم التاسع قبل العد"، وتستمر العناوين بنفس الوتيرة إلى أن تصل إلى آخر عنوان "اليوم الخامس عشر". ما يعني أن الكتاب من خمسة وعشرين فصلا متوسطة الحجم. وبعده هناك مجموعة أخرى من الأوراق مكتوبة بالعربية بخط اليد، جعلتها ليليا مستقلّة عن الرزمة الأولى، دوّنت على غلافها بخط يدها الذي أعرفه جيّدا الجملة التالية: "يمكنك أن تستعين بهذه في ترجمتك للعمل". وأسفل منها مكتوب بنفس خط المخطوطة: "يوميات.. بقلم: جميلة بوراس".

كان الخط المستعمل في المجموعة الثانية رديئا بحيث لم أستطع في تلك اللحظة إلا قراءة فقرة واحدة منها، ثم يستمر في الرداءة مع استمرار

العمل وكأن صاحبه رغم علمه برداءة خطه كان مستعجلا في الكتابة رغبة في إنهاء العمل. أعرف ذلك ما دمت ممن يمكن اعتبار خطهم وفي أبهى حالاته كلوحة سريالية مرسومة بلون واحد. والحقيقة كان خطي أهم سبب جعلني أرسب في امتحان البكالوريا ثلاث مرات على التوالي، فلا أحد من المصحّحين كان قادرا على فكّ شفرة خطي، حتى انتبهت إلى ذلك ووضعت جبسا على يدي اليمنى وادعيت أنني مكسور. ولأنني كنت كذلك، أمّن لي الممتحنون شخصا أُملي عليه فيكتب لي. وبهذا تجاوزت الامتحان الرابع بنجاح.

وكانت ليليا قد أخبرتني مرة، أنها حين راسلتها ونعتها بالعاهرة، فكرت في الردّ عليّ برسالة أخرى تترجاني فيها إن كنت أرغب في مكاتبتها مستقبلا أن أعمل جهدي ولا أكتب برجلي اليسرى، حتى تفهم خطي. والذي بالمناسبة أخبرتني بأنه يشعرها دوما بالجوع. وحين سألتها: "لمَ". قالت ببساطة لأن خطي يشبه عنقود عنب..

مهما يكن، لم أستطع وقتما هممت بقراءة الرزمة الثانية من الأوراق أن أفهم إلا الفقرة الأولى. ولكنها كانت من السحر ما جعلني أقرأ ولو بصعوبة بقية ما ميّزته بالرقم "– 1 –". وخشية من أن يضيع فهمي لها، شرعت في رقنها على حاسوبي، وأنا مستمتع بذلك وكأنني أكتب عملا يخصّني. كان في أسلوبها شيء من الصدق ونبرة من الحزن جعلتني أعيد قراءتها مرات ومرات، وأنا في كل ذلك لم أفهم بعد سبب وجود هذه الأوراق مع النصّ الذي أرادتني ليليا أن أترجمه.

حين انتهيت من الرقن، بدأت أقرأ النص على نّفّسٍ واحد:

"حين استبطأتُ أبي وقررت أن أقتحم عليه غرفة نومه، لم أكن أتصور أنني سأجده مستلقيا على سريره بعينين مفتوحتين تبحلقان في وجهه وقد عكسته مرايا خزانة الثياب ذات الأبواب الستة. بدا لي أن على وجهه تيبّست ملامح دهشة صبيانية شبيهة بتلك التي ارتسمت على وجهه حين كان يلقن أمه الشهادة قبيل وفاتها منذ عشرين سنة.

أرعبتني ملامحه، ولكنها بقدر ما أرعبتني، جعلتني أشعر بشيء كالسعادة من أجله.. أخيرا وجد الخلاص.. حتى أنا وجدته لحظتها، فبموته لم أعد مجبرة على أن أخبره بسبب قدومي هذه المرة.

في طريقي إليه، ومنذ خروجي من منزلي حتى نزولي بمطار الجزائر، وأنا أتخير، داخل رأسي، ألطف الكلمات حتى لا أصدمه، ولكنني أدركت بعد كذا محاولة، أن عجنها أو حتى تتبيلها لن يفيد بشيء. جميع الاحتمالات كانت تنتهي، رغم مهارتي وخبثي، إلى نفس النتيجة. كنت في ذلك كمن يسير في متاهة وهو مدرك أنها صممت للتعجيز فحسب، ومع ذلك كان يحدوني الأمل.. أمل كاذب، واهم لا غير، تماما كالذي تملكني لأكثر من شهر بحجة أنه لا يمكن أن يحدث لي ما حدث لي فعلا.

فمنذ شهرين تأكد لي أنني مصابة بسرطان الكولون، وأنه قد تفاقم إلى درجة استحالة علاجه. أخبرني الطبيب أنه ومع بعض الحظ يمكنني أن أعيش لستة شهور أخرى، ولكنني بعناد الآمل ضيعت منها شهرا على فحوصات لم يكن لها جدوى.

هذا ما جئت أخبر به أبي، وكنت لأترجاه أن يأخذ ابني ويتكفل بتربيته. أعرف أنه ما كان ليتردد لحظة في تلبية طلبي، ليس لأنني وحيدته، بل لأن الموضوع يتعلق بحفيد طالما اعتبره ابنا. ثم إنه ما كان ليقبل أن يرعاه رجل مثل زوجي، أعني زوجي السابق أحمد، فهو بمجرد أن طلبت منه الطلاق وشرحت له سببه الذي لم يكن إلا مرضي، رحّب بالفكرة واقترح عليّ من دون أن أبادر أن أحتفظ بحضانة ابني أو أنقلها إلى من أشاء من أهلي. وهكذا تم الأمر، وعدت إلى الجزائر وفي نيتي أن أعيش مع أبي حتى تحين ساعتي، ولكن الأقدار جعلتها تتأخر عن ساعته، وكأنها طريقتها لتُشعرني بسذاجتي وبأن عليّ أن أعيد التفكير في كل شيء.

أشعر الآن وقد اقتربتُ من النهاية أن عليّ أن أفعل مثل أبي قبيل وفاته. بطريقته، اغتسل من خطاياه، وكشف عن وجهه للعلن. لم يكن يحتاج إلا لهذا الكتاب ليتخفف من وزر الحياة. أما أنا فقد أحتاج إلى أكثر

من كتاب واحد لأنجو من مذبحة الضمير، هذا الذي قدّرت أنه لن يفيدني في حياتي، لحظة قررت أن أبدأ في الكذب على نفسي، ومن ثم على جميع من عرفوني وأولهم أبي.

في النهاية، لم يخطئ أبي حين تصور أنني ورثت عنه بعض جيناته، ولكنه على عكس ما تصور، لم يكن حظي منها مثلما ذكر في كتابه. لم أرث عن أبي إلا عادة الكذب التي تخلص منها. أما أنا، فما زلت أعيش كذبتي، ولا أدري كيف يكون خلاصي منها.

ربما حانت ساعة البوح. وما دام الموت يفرش لي، فلا أرى كيف يمكن لكذبتي أن تحرجني أكثر، ما دمت متيقنة أنني لن أكون هنا لمواجهتها. يكفي أن أكتب مثل أبي تفاصيلها، وأدع الآخرين يحملون وزرها بعدي، على الأقل سأضمن أن ابني لن يعيش كذبتي هو الآخر. ربما لن يحبّني حين يكتشف الحقيقة على غرار عماتي الطيبات، ولكنه لن يكون مجبرا مثلي ومثل جده أن يعيش في عالمين، فبقدر ما أتأمل حياتي، فقد كنت مثل أبي أعيش حياتين في حياة واحدة.. مثله تماما، حياة ظاهرة وخفية في آن واحد.

إن كان عليّ الآن أن أبدأ من نقطة ما، فليس أفضل من أن أبدأ بوحي من لحظة كنت قبل سنتين واقفة أنظر إلى ساعة يدي بجوار محطة الحافلات بتافورة. كان يوم أحد، وعلى خلاف أيام أبي الماطرة، كان يوما غاية في الصفاء.

كنت أنتظر زميلة لي في العمل. تواعدنا هنا لنستقل نفس الحافلة إلى بيتها، حيث كنت سأقضي ليلتي. لا أذكر لمَ كنت سأبيت عندها، ولكن لا بأس أن أدّعي أنني أذكر السبب. لن تضر كذبة أخرى أضيفها إلى سيرتي، على الأقل لا خطر منها في ما سيلي من قصتي.

كانت الخامسة فيما أذكر. تأخرت زميلتي ربع ساعة وأمهلتها ربع ساعة أخرى. في الجزائر يصعب أن يحترم الواحد مواعيده، لا شيء يسير مثلما هو متوقع دوما.

وإذ أنا أقف هناك، أضيّع الوقت في قراءة رواية جيب، باغتني صوت

يشبه الذكرى، فصلني عن عوالم "مدفن الكبوشيين" لجوزيف روث الرائعة:

- جميلة!.. تذكرينني؟..

كان الصوت كنوتة موسيقية لعازف ماهر. لم أكد أنظر صوب وجه صاحبه حتى أضاف:

- تذكرينني حتما..

في هذا لم يخطئ. لقد كان رضا خبّاد، زميلي في سنوات الجامعة.

أدهشني أنه لم يتغير في شيء تقريبا، فباستثناء هندامه الذي أصبح أكثر ملاءمة لعمره، وتكرّشه الطفيف، لم يتغير فيه شيء، حتى تلك الأمور التي كان عليها أن تختفي مع السنين، ظلت مستمرة فيه. أعني وهج الحياة الذي عادة ما يلازم بريق أعيننا ونحن في سنوات الجامعة، تلك التي ونحن نجترها، تجعلنا نعيش أرقَّ وأجمل ما في الحياة.

- بالطبع.. بالطبع..

قلتُ وعينايَ تحدّقان في وجه طفلة يحملها بين ذراعيه. ربما تساءلت لحظتها "طفلة من هذه؟"، ولكن الأكيد أنني ما كنت لأخمن أبدا أن تكون طفلته.

- هذه سيليا. "قال وهو يقبل جبين الطفلة". ابنتي سيليا أصغر أولادي الثلاثة.

حين نطق بهذا، أدركتُ كم كنت مخطئة حين تصورتُ ألا شيء تغير فيه على العموم. في الحقيقة، تغير كل شيء فيه.

- الله يبارك.. "علّقتُ وأنا أقبلها".. تزوجتَ إذن؟!

- أرأيتِ؟.. من كان ليتصور؟!.

وضحك وهو يضم ابنته أكثر إليه.

الآن وأنا أذكر تلك اللحظة، أتساءل بريبةِ من لا يقين لديه: "هل كانت لتختلف حياتي لو لم أقرر انتظار صديقتي في ذلك المساء؟". أتساءل لأن خياراتنا عادة ما تبني لاحقنا، ولكن لا يقين أنها تصنع الفارق في النهاية، وكأنها نقطة لا يصلح الجدال حولها، لا عن كيفها ولا حتى عن متاها..

وهـو يضمهـا تمنيتُ أن يضمّني أنا أيضا، فأحيانا تلج الرغبة مسـالك لا معنى لها.

قلت له وأنا أصطنع السعادة:

- رضا!.. بالطبع أذكرك.

وتقدّمت نحوه أكثر لأسلم عليه. مددت يدي ففاجأني بقبلتين سريعتين على خديّ، ولكنه حين انسحب، مسح بكفه ذراعي، حتى إذا بلغ معصمي رفعها، وهو يبتسم بامتنان:

- كنت أعلم أنك لا يمكن نسيان زمالة دامت خمسة أعوام.

بالفعل، فقد تزاملنا خمسـة أعوام في الجامعة. ومع أنه كان في نفس شـلتي، إلا أننـي لـم أفكر فيـه أبدا كما أجبرت على التفكيـر فيه حين قبلني ومسح على ذراعي. أقول "أجبرت"، لأن الرغبة لم تمهلني لأفهم كل تلك التفاعلات التي حدثت داخلي لحظة لامسـت شـفتاه خديّ أو حين داعبت كفه ظاهر ذراعي..

أضاف من دون أن يلاحظ ارتباكي:

- الأفضـل أن نتبـادل رقمـيّ الهاتف. مـن الجيـد أن التقينا مجددا، وسيكون من المؤسف ألا نفعلها مرة أخرى.

لا أذكـر كيـف ولا لـمَ أعطيتـه رقـم هاتفي، ولا حتى كـم من الوقت بقينا نتحدث يومها. كل ما أذكر، رنين جملته ".. سيكون من المؤسف ألا نفعلها مرة أخرى" في مسـمعي.. لأنني، في الغالب، اشـتهيت أنا أيضا أن نفعلها حقا مرة أخرى..".

***

وبمجـرد أن انتهيـت مـن قراءة هذه الصفحات، حتـى رحت ألتهم ما تبقى من "اعترافات جميلة بوراس"، لأكتشف لاحقا أن ليليا منذ أيام كانت تجسّد دورا قرأته في أوراق جميلة، وأنها حين صبغت شعرها وجعلته على هيئته تلك، أرادت أن تتشبه بها، حتى إنها من أجل ذلك حجزت في فندق

ريجينا في نفس الغرفة التي حجزت فيها جميلة ذات يوم. كان كلّ ما فعلناه معا في ذلك الموعد إعادة تصوير لبعض ما عاشته جميلة مثلما كتبت عنه، باستثناء ألاعيب ليليا معي تلك الليلة، فهذه لم تكن لها علاقة بجميلة.

إلا أن ذلك لم يكن ما اكتشفته فحسب، فبحسب ما كتبته جميلة، فإنها لم تكن إلا ابنة ريماس إيمي ساك، ابنته الوحيدة أيضا.

الفصل الرابع

استغرقني الذهول أسبوعا كاملا، لم أفعل فيه إلا قراءة وإعادة قراءة اعترافات جميلة بوراس. لم أكن لأصدق أن بين يديّ شيئا يمتّ بصلة أيا كانت بريماس إيمي ساك. أخيرا وقعت على دليل يجعلني في منأى عن الشكّ الذي راودني منذ تعرفت على نصوص ريماس.. أخيرا أملك الدليل على أن أهم كاتب بالنسبة إلي لم يكن مجرد اسم بلا وجود حقيقي.

كنت أقرأ اعترافات جميلة وأنا أحاول أن أرى وجه أبيها بعينيها. ومن خلالها بدا "ريماس – الإنسان" شبيها بـ"ريماس – الكاتب"، وكانا كلاهما أكثر إنسانية مما تصوّرت.

صحيح أن ما كتبته جميلة لم يكن تأريخا لحياة أبيها، ولكنه كان رغم ذلك نوعا من التمهيد لكتابة سيرة عنه. وكأن جميلة حين كتبت يومياتها، تعمّدت أن تحويها تفاصيل تجعل من مسألة إيجاد ريماس إيمي ساك مسألة وقت لا أكثر. ومع أهمية أوراقها من هذه الناحية، فقد كنت مشغولا بأمرين آخرين وجدتهما في نفس الأهمية، فمهما حاولتُ تجاهل الأمر، فلا يمكن أن أنكر أنها كتبت بأسلوب أبعد ما يكون عن الأسلوب الساذج الذي عادة ما يميّز كتابات لا تستهدف أية أدبية من أي نوع. وهو أمر جعلني أركز أكثر على الجمل والعبارات المستخدمة في هذا النص، ما دفعني لأفكّر في أن أسلوب كتابة "اعترافات جميلة بوراس" هو نفسه الأسلوب الذي كتب به إيمي ساك إحدى رواياته المكتوبة على طريقة السيرة الذاتية. لم أذكر هذه الرواية حينها، ولكنني بمجرد أن استرجعت في رأسي عناوين أعمال ريماس حتى تذكّرتها، بل حضرني نص منها من دون أن أحاول تذكّره: "هكذا هي التفاصيل في حياتنا، تافهة في حاضرنا.. مهمة في المستقبل. كأنها تتعمد التواضع في رحلة تعلم أن نهايتها ستكون لصالحها بالضرورة.

ففي نهاية المطاف تصبح التفاصيل التافهة آخر ما يعلق بالذاكرة. ثم تصبح كل ما في الذاكرة. وفي لحظة سحرية حين لا يصبح للواقع أيّ جدوى، تصبح التفاصيل التافهة هي كل الذاكرة..".

الأمر الثاني الذي شغلني، هو كيف يمكن أن تملك ابنة ريماس كل هذا القدر من الأدبية ولا يلاحظ والدها ذلك، فمهما يكن، فقد كانت في مثل عمري، وكان من الممكن لو أنها كتب بهذا النحو ونشرته أن تصبح حديث النقد وتفعل ما فعله أبوها حين ظهر أول مرة.

ومع أهمية ما ذكرت بالنسبة لي، لم أجد بدّا من التريث إلى حين أنتهي من ترجمة الأوراق المكتوبة بالفرنسية. ربما حين أفرغ من ذلك، كنت لأجد طريقة أرتب بها أفكاري وأشتغل على تخميناتي بنحو أكثر جديّة، فمهما يكن، لم تعطني ليليا هذه الأوراق لأشتغل في النقد وتحقيق النصوص. كانت مهمتي مقتصرة على ترجمها، وإذا شعرت بعدها بأيّ نقص يشوب ترجمتي، أستعين بـ "اعترافات جميلة" ملءا للنقص. لهذا، وطوال مدة رقني لنص جميلة واشتغالي عليه، لم أفكر أبدا في أن تكون الأوراق المكتوبة بالفرنسية لغيرها. كل ما انتهيت إليه لحظتها، أن ليليا اكتشفت بالصدفة موهبة جميلة ورغبت في أن أعينها بترجمتي، حتى تكشفها للعالم.

هكذا شرعت في ترجمة الرزمة الأولى من الأوراق. لم أشأ إرهاق نفسي هذه المرة بالبحث عن سيرة جميلة هذه أو ما إذا نشرت أي نص من قبل. فالذي قد بدا لي جليّا ساعتها، أنها كانت مجرد كاتبة مغمورة، حَسُن حظها بأن تعرفت على ناشرة متميزة كليليا أنطون، وازداد حظها بأن كاتبا من وزن إيمي ساك كان عرّابها. أما أنا في كل هذه المسألة فلم أكن إلا مرآة وضعت لتعكس هذه الموهبة للظهور فحسب.

وما دام الأمر كذلك، لم أشأ أن أقرأ النص كاملا، بل جزّأته إلى فقرات بهدف أن أترجم كل فقرة على حدى، وحين أنتهي، أقرأ النص المترجم كاملا، وبعده أكتب أو أشطب أو أضيف:

J’étais en proie à une grande fatigue, une fatigue qui me donnait envie de plier mes paupières sans perdre conscience, comme si quelqu’un s’asseyait dessus et les forçait à se plier. Même les sécrétions oculaires auxquelles je ne faisais pas attention auparavant s’étaient infiltrées entre mes ciles et les avaient humectés. Par la suite, les secretions ont séché et se sont transformées en une sorte de colle visqueuse inodore. J’ai malgré tout pu ouvrir les yeux sur un plafond dévoré par l’humidité jusqu’à en perdre sa peinture rosée, couleur de la chambre. Le plafond apparaissait comme une image mentale telle que les images que montrent les psychologues à leurs malades pour leur faire prendre conscience de leur maladie.

اليوم العاشر قبل العدّ

كنت متعبا.. تعبا جعلني أشـعر برغبة في إطباق جفنييّ دون أن أفقد الوعي، وكأن ثمة من يجلس عليهما يجبرهما على الانطباق. حتى العمش الذي قلَّما كنت ألاحظه في السـابق، تسـلل بين رموشي وتبلل عليها وجف كذلك، ليتحول إلى ما يشبه الغراء اللزج ولكن من دون رائحة. ومع ذلك، تمكنت من فتح عينيّ على صورة سـقف تآكل من الرطوبة حتى تعرّى من طلاء غرفة النوم الوردي، فبدا كصورة نفسية من تلك التي اعتاد النفسانيون عرضها على مرضاهم حتى يقفوا على خطورة أمراضهم.

J’ai observé l’image du plafond, elle m’est apparue comme un monstre qui tentait de se former à nouveau.

J’ai pensé au nombre de formes que pouvait prendre cette image, j’en ai conclu que le nombre était infini. Mais qu,à la fin, cette image ne s’interpréterait que sous une seule forme, en effet, malgré son flou et ses nombreux détails, différents et changeants, elle ne pouvait représenter plus de dix pourcent de ce

que je ressentais envers moi-même. En fin de compte, il n'existe dans ce monde aucune véritable image de monstre mise à part la mienne. Et si toute fois, il y en avait une, elle ne serait pas plus authentique que moi.

تأملت الصورة في السقف، فبدت لي كمسخ
يحاول أن يتشكَّل من جديد.

فكـرت فـي عدد الأشـكال المحتملة فـي الصورة، فخلصـت إلى أنه لا نهائـي، ولكنـه فـي النهاية لـن يؤول إلا إلى الواحـد، فتلك الصورة رغم ضبابيتهـا ورغـم تفاصيلها الكثيرة والمتعـددة والمتغيرة أيضا، لا تكاد تمثل إلا واحدا من عشرة ما أشعر به تجاه نفسي، ففي النهاية لا توجد في كل هذا العالم صورة حقيقية للمسخ سواي، وإن وجدت فلن تكون أكثر أصالة مني

Ce sentiment de dégout envers moi-même m'a fait oublier l'illusion des derniers baisers que la nuit avait posés sur mon front pendant que j'essayais de dormir il y a une heure. Puis quelque chose m'a poussé à sortir de la chambre et à me diriger vers la cuisine en proie à une insomnie…et à mon envie de relire un peu de ce que j'avais écrit il y a un certain temps, au temps où je croyais qu'avec mes nombreuses lectures, je pouvais écrire un nouveau roman. Cela fait quatre ans que j'essaye de commencer. Je veux dire que j'arrête de me maudire et que j'écrive ce que j'avais promis d'écrire, mais à chaque fois que je commence à écrire, la lassitude m'inonde, et j'abandonne, comme si je n'avais rien à raconter.

هذا الشـعور بالقرف من نفسـي، جعلني أنسـى آخر قبلات النوم التي تخيّلت أنها طُبعت على جبيني حين حاولت منذ سـاعة أن أنام، ولكنني ما لبثت أن شعرت بشيء جعلني أخرج من غرفة نومي إلى المطبخ، لأستسلم أخيرا للأرق ولرغبتي في قراءة شيء كتبته منذ وقت، حين توهمت – بسبب

قراءاتـي الكثيرة – أننـي قـادر أن أكتـب روايـة من جديد، فمنـذ أربعة أعوام وأنـا أحـاول أن أبـدأ، أقصد أن أنتهي من لعنتي وأكتب ما وعدت بأن أكتبه، ولكنني وفي كل مرة أبدأ في الكتابة أشـعر بالملل فأتوقف، وكأن لا شـيء لي لأرويه.

Aujourd'hui, je ressens que je me suis libéré de mes chaînes, je sens que je suis capable d'écrire à nouveau, de redevenir comme j'étais avant mes années de stérilité, quand j'étais « Rimas Emy Saque », l'écrivain des chefs d'œuvres. Je me rappelle de la première fois que j'ai lu mon nom sur le journal, on m'avait qualifié de « phénomène ». Il y a de cela trente quatre ans, lorsque j'ai surgi du néant comme se plait à dire l'un de ces journalistes pour me rappeler mes débuts. Mais contrairement à ses spéculations, j'existais avant de devenir ce Rimas là. Ils ont toutefois décidé, gagnés par la jalousie et l'arrogance, de m'anéantir en m'ignorant. A ce moment là, j'ai pensé qu'il y avait certaines choses qui n'allaient pas à mes débuts. J'ai beaucoup réfléchi et j'ai décidé de m'éloigner d'eux et de leur jargon autant que je pouvais. C'est ainsi que je me suis retrouvé à lire encore une fois des paragraphes que j'avais lus avant ce jour des centaines de fois. Mais cette fois ci, j'ai ressenti, en terminant de lire la dernière lettre, qu'il avait une certaine redondance imposée par les phrases, comme dirait un écrivain professionnel. Naturellement, je n'ai pas su donner une appellation à ce que je ressentais, mais je l'ai ressenti, comme les enfants qui sont pris d'une envie sans pouvoir ni la décrire ni la comprendre.

اليوم أشعر أنني تحررت من قيدي، أشعر أنني قادر أن أكتب من جديد، كما كنت قبل سنين عقمي، حين كنت "ريماس إيمي ساك" كاتب الروائع. أذكر أول مرة أقرأ اسمي على جريدة، كان مشفوعا بوصفي "ظاهرة". كان هـذا قبـل أربع وثلاثين سـنة، عندما ظهرتُ من العـدم مثلما أحبَّ أحدهم

تذكيري ببدايتي، ولكنني وعلى عكس تخميناته كنت قبل أن يكون ريماس هذا، بيد أنهم قرروا في لحظة حسد وغرور إعدامي بتجاهلهم. وقتها فكرت أن ثمة خطب في بدايتي تلك. فكرت كثيرا وقررت الابتعاد عنهم وعن لغتهم قدر ما أستطيع. هكذا وجدت نفسي أقرأ مرة أخرى فقرات قرأتها قبل اليوم مئات المرات، ولكنني هذه المرة بمجرد أن انتهيت من قراءة آخر حرف منها رأيت ما قد يسميه كاتب محترف "استرسالا" تفرضه الجمل. بالطبع لم يكن لي أن أسمي ذلك بهذا، ولكنني شعرت به كما يشعر الصبي بالرغبة دون أن يكون قادرا على وصفها أو فهمها.

J'ai regardé autour de moi comme si j'avais peur de réveiller ma femme de son sommeil, je me suis soudainement senti mal, mais lorsque j'ai entendu la seule chose que l'on pouvait entendre à cette heure nocturne et calme, autrement dit rien. J'ai replongé dans l'écran de l'ordinateur, tout en pensant à ce qui m'était arrivé la veille quand je n'arrivais plus à écrire de nouveau, comme à chaque fois que j'essayais d'écrire depuis quatre ans. Puis je me suis rappelé de ma crainte de réveiller ma femme, j'ai alors souri amèrement en me rappelant qu'elle était décédée depuis quatre ans, elle m'a quitté le jour où l'inspiration m'avait quitté, comme si elles s'étaient misent d'accord contre moi, pour me laisser seul. Comme une odeur de poussière remontait dans mes narines. J'ai essayé de comprendre d'où elle venait…Cette fois là, je ne me suis pas rendu, ce jour là avait comme une odeur de commencement.

نظرت حولي وكأنني خشيت أن تستفيق زوجتي من نومها فتعكر عليَّ مزاجي، ولكنني حين سمعت ما يجدر بأي كان أن يسمعه في مثل هذا الوقت الليلي الهادئ، أي لا شيء، عدت للنظر إلى شاشة الحاسوب، وفي رأسي ما حدث البارحة حين عجزت عن الكتابة مرة أخرى، أو ككل

مرة منذ أربع سنوات، ثم تذكرت خشيتي من أن تستفيق زوجتي فابتسمت بمرارة، ذلك أنها توفيت منذ أربعة أعوام، غادرتني يوم غادرني الإلهام، وكأنهما تحالفا ضدي، ليتركاني وحيدا وفي أنفي رائحة كان من الهباء أن أحاول فهم سبب وجودها حتى.

هذه المرة لم أستسلم، فلهذا اليوم رائحة تشبه البداية..

Comme j'aime utiliser cette phrase dans mes romans, je ne me lasse jamais de la répéter sans avoir peur de lasser mes lecteurs. Si bien que l'un des critiques, je fais référence à l'un de ceux qui n'ont rien de mieux à faire que de traquer les écrivains comme moi, avait écrit sur moi avec ironie : « *Rimas Emy Saque ou l'auteur de l'odeur du commencement*»…Avec ça, il pensait m'avoir rabaissé et dénudé face à tous, il n'en était rien.

كم أحب استعمال هذه الجملة في رواياتي، لا أمل أبدا من تكرارها من دون خشية في أن يملها قرائي، حتى أن أحد النقاد، أقصد أحد الذين لا عمل لهم إلا تقفي عثرات أمثالي، كتب ساخرا: "ريماس إيمي ساك أو السيد صاحب الرائحة التي تشبه البداية".. كتب ذلك وفي ظنه أنه نكلَّ بي وعرّاني أمام الجميع، وهو في الحقيقة لم يفعل أكثر من خدش مرآة بظفر مقلم.

Avant de relire ce que j'avais écrit pour la deuxième fois, j'ai été pris d'une envie étrange de m'allonger sur mon lit de nouveau. Mon envie n'était pas dictée par la fatigue, autre chose m'était venue à l'esprit à cet instant d'illumination. J'ai senti pendant que la lumière emplissait mon cœur que ce serait la fin de tous mes malheurs.

وقبل أن أعيد قراءة ما كتبت للمرة الثانية، شدتني رغبة غريبة في أن أتمدد على سريري مرة أخرى. لم يكن التعب ما استلّ رغبتي تلك، ولكنه

أمـر آخـر خطـر على بالي في لحظة إشـراق ظهر لي، وهـي تملأ قلبي، أنها نهاية لكل مآسيّ.

Je me suis allongé de nouveau en fermant mes paupières sur l'image du plafond dévoré, sans me sentir concerné par l'être que j'ai fini par devenir. Mes narines inhalaient l'odeur qui s'exhalait du souvenir de mon épouse. Elle était peut-être morte, mais son souvenir et son odeur m'accompagnaient, et le plus étrange, c'est qu'ils sont restés collés à la chambre plus qu'à aucun autre endroit. (Je ne sais pas ce qui me donne cette certitude) à part cette sensation à chaque fois que je pénètre ma chambre, et la tranquillité qui m'empli en observant mon être plongé dans mon obscurité volontaire. J'avais peut être remarqué que mon être s'était confondu avec l'aveugle qui était en moi, mais cette sensation ne pouvait être réelle, du fait que je savais qu'à n'importe quel moment, je pouvais ouvrir les yeux et sortir du monde des aveugles pour pénétrer la cour des voyants. J'ai malgré cela tenté de croire à cette sensation de cécité et j'ai avancé dans mon obscurité volontaire pour voir ce que je pouvais y trouver. En réalité, je suis expert en allégation. En fin de compte, j'ai vécu trente quatre ans dans la peau de quelqu'un d'autre, à tel point que je ne pouvais plus faire la différence entre nous deux: Moi, et lui dénommé Rimas Emy Saque. Lui, que j'ai décidé de faire vivre, et moi qui ai décidé de mourir pour vivre à travers lui. Et me revoilà moi qui recommence maintenant à écrire pour l'enterrer et revivre. Quant à lui, il ressuscitera peut-être après à travers moi.

تمـددت مـرة أخـرى، وأطبقت جفنـيَّ على صورة السـقف المتآكل، دون أن يعنيني ما قد تحولت إليه في الأخير وأنفي يلتقط رائحة الاسـتثارة المنبعثـة مـن ذكـرى زوجتي. ربمـا تكون ميتة ولكن ذكراهـا ورائحتها بقيتا

معي، والغريب أنهما التصقتا بغرفة النوم أكثر من أي مكان آخر. (لا أعرف ما يجعلني متأكدا من هذا، غير الشعور الذي ينتابني كلما دخلت إلى غرفة نومي).

للحظة شعرت بالهدوء وأنا في ظلمتي الاختيارية أتأمل نفسي، ربما كنت لحظتها قد تماهيت مع الأعمى الذي في داخلي، ولكنه كان تماه غير صادق أو لنقل غير مجد إلى حد ما، ما دمت أعلم أنني في أي لحظة يمكنني أن أفتح عينيّ وأخرج من عالم العميان إلى باحة المبصرين. ومع ذلك حاولت أن أصدق شعوري بالعمى وأسير في ظلمتي الاختيارية، وأرى ما يمكنني أن أجد.

في الحقيقة أنا خبير بعلم الادعاء، ففي النهاية عشت أربعا وثلاثين سنة في جلد غيري، حتى لم أعد قادرا على التمييز بيننا نحن الاثنين: أنا وهو المدعو ريماس إيمي ساك، هذا الذي قررت أن يحيا لأموت أنا من أجل أن أحيا من خلاله. وها أنا الآن أبدأ الكتابة من جديد لأقبره وأبعث في مكانه، ربما بعدها يحيا لاحقا من خلالي.

Le plus important c'est que maintenant je ferme les yeux et je me retrouve dans l'obscurité, pas comme Paul Auster, le protagoniste de « Seul dans le noir », ni comme le protagoniste de mon roman, je veux dire le roman d'Emy Saque « Trente », celui qui a nous a valu la consécration à Rimas et moi, (je peux l'appeler ainsi après 34 ans passés l'un dans l'autre). Il avait décidé de faire suicidé l'aveugle, il a alors collé ses deux paupières avec de la colle très forte, le laissant ainsi dix ans, jusqu'à ce qu'il ait eu l'illusion d'être devenu définitivement aveugle…Quand je me suis retrouvé dans le noir, j'ai vraiment cru que ce jour là avait comme une odeur de commencement. Exactement comme disait ma mère à chaque fois qu'elle essayait de se lever de sa place pour faire quelque chose, elle se faisait croire que c'était

le commencement tout en sachant bien sûr qu'elle avait déjà franchi cette étape, peut-être même des années avant de le dire. Mais elle le disait malgré tout pour garder l'espoir et pouvoir tout surmonter.

المهم، أغمضت عينيّ لأجدني في الظلام، ليس كبطل بول أوستر في "رجل في الظلام"، بل كبطل روايتي، أقصد رواية إيمي ساك "انتحار" تلك التي حملت الثناء إلينا أنا وريمي، (يمكنني أن أسميه هكذا بعد 34 سنة من الاندماج)، حين قرر أن ينتحر بالعمى، فألصق جفنيه بلاصق قوي، وظل على هذه الحال عشرة أعوام حتى توهم أنه أصبح كفيفا بشكل نهائي.. الفكرة، أنني حين وجدتني في الظلام، أيقنت حقا أن لهذا اليوم رائحة تشبه البداية، تماما مثلما كانت تقول أمي كلما حاولت أن تقوم من مكانها لتشتغل على أي شيء، كانت تطمع نفسها بالبداية وهي تدري أنها فوتت تلك المحطة باكرا، ربما قبل أن تقولها بسنوات، ومع ذلك كانت تقولها لتأمل أو تتمكن من الاحتمال.

Dans mon obscurité, j'imaginais encore l'image du plafond. L'image du monstre y apparaissait avec encore plus de clarté et avec une forme qui me terrorisait comme si je le voyais pour de vrai. Si je ne m'étais pas rappelé que j'étais aveugle, j'aurais eu encore plus peur. Je me disais que je n'avais qu'à ouvrir les yeux pour que le monstre ne disparaisse. Je n'étais donc pas forcé de vivre dix ans avec le monstre comme l'avait été le protagoniste de mon roman «Trente». En plus, je ne possédais pas ces dix années de vie pour les lui offrir, j'ai déjà perdu 74 ans de ma vie.

في ظلمتي تلك، خُيّل إليّ أنني أرى صورة السقف من جديد. بدا المسخ واضحا بشكل بعث الذعر فيّ وكأنني أراه، ولولا أنني تذكرت عماي لازددت ذعرا. كنت أقول لنفسي يكفي أن أفتح عينيّ ليختفي المسخ، فلم أكن مجبرا كبطل روايتي "انتحار" أن أعاشره عشرة أعوام، ولم أكن أملك

العشرة أعوام هذه لأهديها له وقد طرحت من عمري أربعا وسبعين سنة.

Le monstre, dans cette obscurité, me ressemblait, je ne fais pas allusion a Rimas, mais à moi, car même après trente quatre ans l'un dans l'autre, je ne suis pas en mesure d'être lui à chaque fois que je m'isole. Même avec ma femme, il apparaissait et disparaissait, et des fois, il devenait totalement moi, ou je devenais totalement lui. Mais avec mon âme, il gardait toujours la distance qui sépare le visage du masque.

كان المسـخ فـي ظلمتـي يشـبهني، لا أقصد ريمي بل أنـا، فحتى بعد أربعـة وثلاثيـن عامـا من الاندماج، لم أكن قـادرا أن أكون هو كلما انفردت بنفسـي، حتـى مـع زوجتي كان يظهـر ويختفي وأحيانـا يتقمصني وأتقمصه بالكامل، ولكنه مع نفسي كان يُبقي على المسافة التي عادة ما تكون ما بين الوجه والقناع.

– Le monstre me ressemblait à un point de révulsion. Mais contrairement à moi qui avais un visage avenant, le sien était toujours austère pour ne pas dire triste, comme si en me voyant il était pris de lassitude…Me haïrait-il autant que je le hais ?!... Pourquoi me haïrait-il si c'est moi qui lui ai donné un visage pour le mettre au monde. N'était- ce pas un visage ordinaire, dont se trouvent des milliards similaires dans le monde, et dont j'ai fais un visage eternel, aussi eternel que Rimas Emy Sac, et aussi eternel que ses trente romans. Si bien qu'une fois, je lui ai rendu hommage en proposant à Rimas de faire de lui un personnage dans un roman qui n'avait absolument pas besoin de lui, rien que…rien que parce que c'était mon visage. Pourquoi me déteste- il alors ?

كان المسـخ بشـبهني إلـى حـد القـرف، ولكنـه وعلى عكـس وجهي المتبشـش دومـا كان عابسـا حتـى لا أقـول حزينـا وكأنه حين رآنـي تملكه

السأم.. أيمقتني مثلما أمقته؟!.. ولكن علامَ وأنا الذي بعثته في وجه حمله إلـى الحيـاة. ألـم يكن وجها عاديـا، يوجد في العالم منـه الملايير، وجعلته وجهـا خالـدا خلود ريماس إيمي سـاك وخلود رواياتـه الثلاثين، حتى أنني كرمته ذات مرة حين همسـت لريماس أن يجعل منه شـخصية في رواية لم تكن تحتاج إليه في شيء، فقط لأنه وجهي، فعلام يتقزز مني إذن؟!..

Quoi qu'il en soit, Le monstre me ressemblait à un point de révulsion, totalement comme le visage que j'avais vu sur le mural (la vitrine) du Café Trente (c'est de là que j'ai tiré le titre de l'un de mes romans) quand j'y suis entré pour la dernière fois. Mais à ce moment là, je n'avais pas pris mes doutes au sérieux, tout simplement parce que ce mural etait trop sacré à mes yeux pour qu' un visage comme le mien n'y soit représenté. Mais Rimas, qui était moi, contrairement à moi avait une autre opinion et m'a fait pensé à la question sous un autre angle… Maintenant, je peux affirmer que c'était mon visage… Je peux l'affirmer sans donner plus de détails, ou du moins pas pour le moment, car je suis toujours au début du roman, et quel plaisir ressentira mon lecteur si je dévoile tout d'un seul coup. C'est au moins ce que j'aurais appris de Rimas, lui qui a écrit tants de romans. Si je n'avais pas été lui, je serais resté moi, l'écrivain raté qui aura écrit trois romans qui ne se sont pas vendus et dont il ne reste même pas un exemplaire.

مهمـا يكـن، كان المسـخ يشـبهني حتى القـرف، تمامـا كالوجه الذي رأيته على جدارية مقهى ثلاثون (ومنها أخذت عنوان إحدى رواياتي) حين دخلتها آخر مرة. ولكنني لم آخذ ظني وقتئذ محمل اليقين، ببساطة لأن تلك الجداريـة كانت أقدس بالنسـبة إليّ مـن أن يتمثل فيها وجه كوجهي، ولكن ريمـاس الـذي هـو أنا، وعلى عكسـي كان يملك رأيا آخـر جعلني أفكر في الأمر من زاوية أخرى.. الآن يمكنني أن أصرح أنه كان وجهي.. يمكنني أن

أصرح بذلك دون تفصيل، على الأقل ليس الآن، فما زلت في بداية الرواية، ثم أي متعة سيجدها قارئي إذا قلت الأشياء مرة واحدة. هذا على الأقل ما تعلمتـه مـن ريمـاس وهو يكتب كل تلك الروايات، ولـو أنني لم أكنه، هو، لبقيت أنا، الكاتب الفاشل الذي كتب أربع روايات لم تبع ولا نسخة منها.

Terrorisé, je me suis rappelé de ma cécité temporaire, et j'ai ouvert mes paupières sur l'image du monstre du plafond. Mais contrairement à ce qui m'est apparu dans le noir, c'était un monstre moins hideux que moi. C'est peut- être la lumière qui empêchait l'assimilation des deux images. Ce qui m'a permis de me distraire en me rappelant d'une lettre qui m'était parvenue le matin.

وحيـن شـعرت بالذعـر وتذكرت عمـاي المؤقت فتحـت جفني على صورة المسـخ على السـقف، ولكنه على عكس ما بدا لي في الظلمة، كان مسخا أقل تشوها مني. ربما الضياء ما منع تطابق الصورتين، ما جعلني قادرا على تشتيت ذهني بحيث تذكرت رسالة وصلتني صباحا.

Je suis allé ouvrir mon tiroir de commode où je l'avais mise une heure avant et je l'ai lue de nouveau. Je me suis dit à moi-même en la mettant de côté « Pourquoi cette idiote persiste– elle à m'écrire en arabe ?». Je me posais la question en connaissant pertinemment la réponse. Et elle était si belle ma fille qui habite à Montpellier, toujours résolue à me défier. Ne s'était- elle pas mariée avec cet imbécile qui vit aux crochets du gouvernement contre ''ma volonté'' ?...N'était- elle pas la seule personne de tout mon univers à vouloir ignorer mon nom ''Rimas'' et à continuer à m'appeler par un nom qui n'avait plus aucun lien avec moi ? Et alors, pourquoi se priverait- elle de plus de plaisir en m'écrivant dans une langue qui m'a rejeté et que je rejette depuis mes débuts.

فتحـت درج لاكومنـد حيـث وضعتها قبل سـاعة وقرأتهـا من جديد. قلـت فـي نفسـي وأنا أضعهـا جانبا " لماذا تصر هـذه الحمقاء أن تكتب لي بالعربيـة؟"، قلـت ذلـك وأنـا أعرف الجـواب طبعا، فلطالمـا كانت جميلة، ابنتي المقيمة في مونبولييه، مصرة على تحديّ، ألم تتزوج من ذلك الأحمق المعتـاش علـى صدقات الحكومـة دون رضاي؟.. أليسـت وحدها في كل عالمـي مـن يصـر على أن تتجاهل اسـمي "ريماس" وتناديني باسـم لم يعد لـي علاقـة بـه؟، فلماذا تمنع نفسـها مـن المزيد من المتعـة وتكتب لي بلغة نبذتني ونبذتها منذ بداياتي.

Elle m'aimait malgré tout sans s'avoir s'exprimer, tout comme moi. Et là, je ne parle pas de Rimas qui est moi, je parle de moi dénué de lui. Je l'aime aussi sans savoir m'exprimer. C'est peut-être pour ça qu'au fond de moi que je me fous de ses défis. Parce que je suis certain qu'elle m'aime pour me défier ainsi et m'écrire en arabe. A la fin de chaque lettre, elle m'écrit quelque chose de joli en français, ma langue d'écriture, je veux dire notre langue d'écriture à Rimas et à moi …Cette fois- ci, elle m'a écrit :

« J'ai hâte de te voir…Si tout va bien, je rentrerai le 10 novembre prochain ».

A compter d'aujourd'hui, il ne reste plus que dix jours avant son arrivée.

ومـع هـذا كانـت تحبني من غير أن تحسـن التعبيـر، مثلي أنا، وهنا لا أقصد ريماس الذي هو أنا، بل أقصدني متجردا منه، أحبها دون أن أحسـن التعبيـر. ربمـا لهـذا لا أهتـم بتحديها لي في قرارة نفسـي، لأنـني موقن أنها تحبنـي حتـى حيـن تتحداني وتكتـب لي بالعربية، فهي في نهاية كل رسـالة تكتب لي شيئا جميلا بالفرنسية، لغة كتابتي، أقصد لغة كتابتنا أنا وريماس. هذه المرة كتبت:

« J’ai hâte de te voir…Si tout va bien, je rentrerai le 10 novembre prochain ».

باحتساب اليوم، لم يبق على قدومها إلا عشرة أيام فحسب.
(.....)

كنت أكتب ويداي ترتعشان..

"يا إلهي، على أيّ شيء وقعت.". قلت في نفسي، غير مصدق أن بين يديّ آخر كتاب لريماس إيمي ساك. الكتاب الذي طالما حلمت بقراءته قبل أن يسرقه الموت.

هكذا شرعت في التهام كتاب ريماس إيمي ساك حتى انتهيت منه حوالي التاسعة صباحا. قضيت كل الليل مستمتعا بآخر ما كتبه هذا الداهية. وحين فعلت، شعرت برغبة أخرى في قراءته من جديد، ولكنني كبحت رغبتي لأفعل ما اعتدت فعله كلما قرأت لريماس كتابا جديدا.

تمدّدت على فراشي وأغمضت عينيّ، تاركا خيالي يسرد لي من جديد كل ما قرأته في الليلة السابقة. أخيرا عرفت من يكون ريماس هذا. أخيرا تمكنتُ من رؤية وجهه من دون أن يحجبه القناع الذي جعلني في لحظة أمقت الإنسان فيه. لم يعد ثمة من شكّ لديّ في أن مقتي لريماس الإنسان لم يعد مبرَرا رغم غروره وتعاليه على الناس، لأنه لم يكن بذلك يصنع لنفسه برجا يقف عليه، بل كان يحاول فقط أن يحمي نفسه من الألم الذي عرفه في بداياته قبل أن يصبح ريماس إيمي ساك الذي نعرف.

ومع أنه قال في كتابه كل شيء، إلا أنني شعرت أنه وبطريقة غريبة لم يقل أي شيء عن نفسه. كان كتاب ريماس قصة عن الحياة. ولئن كانت حياته جزءا منها، فإنها لم تكن قصته هو. على الأقل لم تكتب على النحو الذي تشفي به غليل أيٍّ من معجبيه. والأكيد، أنها لم تشبع جوعي منه. ومع ذلك خطر ببالي أمر ما كنت لأبوح به إلا إذا انتهيت من ترجمة عمله.

هكذا شرعت في ترجمة آخر روايات إيمي ساك ذات الخمسة

والعشـرين مقطعـا. وكانـت متعتـي في كل ذلـك أنها لن تصدر هـذه المرّة بالفرنسـية كمـا اعتـاد معجبـوه، بـل إن أول إصـدار لهـا سـيكون بالعربية. ولتكتمـل المتعـة، فقد كلّمت ليليا وأعلمتها برغبتي في أن لا يكتب اسـمي علـى غـلاف الروايـة حين تصدر ونكتفي باسـم ريماس إيمي سـاك، وكأنّه كتبهـا بالعربية. أدهشـها الأمـر في البداية ولكنها سـرعان ما اقتنعت بوجهة نظـري، حيـن أخبرتهـا أن ما بين أيدينا ليس إلا مسـودة أولى لعمل ريماس وأننـا قـد نضطـر لاحقـا إلى نشـره مع اعترافـات جميلة، وأيضـا قد نضيف إليهـا نصوصـا أخرى لتجعلها واحدة من أجمل إصدارات إيمي سـاك. فقد كانت الفكرة أن يصدر آخر كتاب لريماس في أبهى صورة ممكنة. وما كان ليتحقق هذا الأمر بغير ما اقترحته على ليليا، والتي مثلما أخبرتني، فقد كان عليها أن تصدر العمل خلال أشهر فقط، لأن جميلة بوراس صاحبة الحقوق اشترطت ذلك تحت طائلة استرجاع الحقوق منها إن لم تفعل.

أنهيت الترجمة في وقت قياسي وأرسلته إلى ليليا لتأخذ موافقة جميلة عليها. ولكنني اقترحت عليها أن نسـتعين بتسـعة مقاطع فقط من مخطوطته فـي كتابـة الروايـة، أما بقية المقاطع فيمكن أن تشـكل مادة لكتاب آخر غير الروايـة. وكنـت فكـرت أن يكـون عنوان الكتاب ببسـاطة "الكتـاب الأخير لريمـاس إيمـي سـاك"، ولكن جميلـة اعترضت واقترحت آخـر أعترف أنه يفوق عنواني جمالا ودلالة، فحين راسلتها ليليا لتستشيرها ، فضلت جميلة أن يكون عنوان كتاب والدها "الكفيف يمكن أن يرى". وبعد أخذ وردّ تقرر أن نجمـع اقتراحينـا معـا على غلاف الروايـة التي جمعت بين بعض ما جاء في اعترافات جميلة والنص الأخير لريماس إيمي ساك، وبعد قراءة أخرى، كلّفتني ليليا بكتابة فصول أخرى تضاف إليهما بعدما استحسـنت اقتراحي، ليكتمل العمل، وهكذا فعلت.

وإن أرضـت النتيجـة جميلـة وليليـا، فإنها لم ترضني شـخصيا. فلقد فكـرت فـي أن كاتبـا عظيمـا كريمـاس إيمي سـاك لا يمكـن أن تكون آخر رواياته مجرد اعترافات، مجرد سرد لحياته قبل وبعد أن أصبح كاتبا. فكّرت

فـي أن علـيّ إضافـة ما قد يجعل عمله عمـلا فريدا من نوعه. هكذا جاءتني فكـرة أن أكتـب أنـا وبلغـة ريماس (التي ومع إدمانـي لكتبه أصبحت لغتي) روايـة "اسـتهلالية" تحكي بطريقـة غير مفضوحة صراع "الكاتب الإنسـان" مـع "الكاتـب الاسـم"، بحيـث تصوّرت أنه فـي عالم موازٍ لعالمنا، يسـتقلّ الاسم عن الكاتب بحيث يتوهم أنه هو الحقيقي، فينفرد بمنجزات الكاتب ويسـلبها منه، وبذلك يتصور أن الكاتب لم يكن إلا انعكاسـا له في النهاية. وبقدر ما تبدو هذه الرواية مجنونة فهي في الحقيقة ليست إلا إسقاطا ذهنيا لما كتبه ريماس في روايته الأخيرة، لذلك كنت مدركا أنني حين أكتبها لن أكون إلا يدا ثالثة لريماس إيمي سـاك، وهو ما حاولت شـرحه لليليا حين قلت لها: ""إن الحواريين رغم أنهم من كتبوا الإنجيل في الحقيقة، إلا أنهم أدركـوا بمجـرد انتهائهـم منـه، أن كل ما كتبوه، لم يكـن إبداعا خالصا لهـم، لقـد اقترضت السـماء ألسـنتهم لتقول بمشـيئتها كلمة الرب. أنـا أيضا كلما تقدّمت في كتابة هذا العمل، تملّكني شـعور كالتقمّص. أشـعر بأن ريماس من يكتب في الحقيقة. لقد صرت بطريقة ما لسان روحه، يوحي إليّ إلهامه بالكلمات".. ولم أكن في ذلك أبالغ بأي نحو من الأنحاء.

لم يكن هذا فقط ما فكرت في إضافته، فقد كنت أرى أيضا أن اشتغالنا علـى هـذا النحو يسـتحق أن نكتب عنـه بطريقة ما، ولكنني لم أكن أعلم أية طريقة هذه. لهذا لم أشأ أن أثقل على ليليا، خاصة وأنه لم يعد أمامها الكثير مـن الوقـت لإصـدار الكتـاب. ولأن الوقت كان ما أحتاجه لأجسّـد رؤيتي لكيفيـة صـدور كتـاب ريماس الأخيـر، فقد قرّرت الاتقـاء بجميلة وإقناعها من دون علم ليليا، أن كتاب أبيها أهمّ من أن نحدد له آجالا للصدور، وإن تعلّقـت بحياتنـا. كنـت مدركا أن قول هذا لشـخص محكـوم عليه بالموت مثلهـا، مـن شـأنه أن يخلـط كل أوراقنا، أنـا وليليا، ولكنني لـم آبه بمخاطر المصارحـة، فبالنسـبة لـي، عدم صـدوره على الإطلاق أفضـل من صدوره مشوّها أو أقل بهاء مما تصورَه ريماس إيمي ساك.

كنت وقتها قد فرغت من كتابة فصلين من الرواية الاستهلالية التي جعلت

لها عنوان "مسـائل عالقة"، على أسـاس أن كل علاقة "ريماس – الإنسـان" بـ"ريماس – الكاتب" كانت واحدة من أهم المسائل العالقة التي جعلتني أنا وغيري نتصور هذا الكاتب على غير صورته الحقيقية. كما أنه عنوان يوحي بتصفية حساب شخصي ما.

وحيـن لـم أعـد متشـكّكا في قراري. سـألت ليليا أيـن يمكن أن أجد جميلـة مـن دون أن أخبرهـا عن سـبب رغبتي في لقائهـا. كل ما فهمَتْه مني أنني أسعى لرؤية ابنة واحد من أهم الكتاب بالنسبة إليّ. وكانت ليليا تعرف هوسي بإيمي ساك وبكتاباته، لذلك لم تشكّك في دوافعي وأخبرتني بمكان إقامتهـا، فقـد أعلمتها جميلة بأنهـا تقيم مع عمّتها في "الحميز". وإلى هناك توجهت، حاملا معي ما كتبتُه من "مسائل عالقة".

وأنا في طريقي إلى هناك، لا أدري ما الذي جعلني أشعر بألم الكاتب في رواية بول أوسـتر "الغرفة الموصدة"، حين أخذ على عاتقه نشـر أعمال صديقه "فانشو" الذي كان يتصور أنه ميت، حتى ظهر له في الأخير. كان مبعث ألمه أنه يسـعى إلى مجد شـخص لا يأبه بالمجد، في حين أن البطل رغـم أحلامـه وطموحـه اللامحـدود وبالرغم مـن رغبتـه اللامتناهية في أن يصبـح كاتبـا، لم يكن قادرا على بلوغ عشـر مسـتوى فانشـو هـذا، وما كان ليحلـم أبـدا أن يحقـق أي مجد في عالـم الأدب. ربما وأنا أذكر ذلك الآن، كنت أراني مثله تماما، الكاتب الفاشل، مشروع الروائي الذي لن يكون في أفضـل الأحـوال إلا يـدا يكتـب بها غيـره، تماما كما صرت يـد ريماس في عملـه الأخيـر. كنت ألوم نفسـي على أنني لم أسـتطع التفكيـر في موضوع تافـه كالصـراع الداخلي بين الكاتب والإنسـان، لـم أفكر فيه إلا حين قرأت عنه في كتاب ريماس الأخير.

بالطبـع كان يمكننـي إيهـام نفسـي وغيـري بأننـي كاتب يسـتحق هذا الوصـف، فعلـى كل حـال كنـت أملـك الفرصة ومـا زلت أملكهـا لأكرّس نفسـي كذلـك. ولـو فعلت لما انتبه أحد إلى أننـي مجرد صدى لغيري، أو مجـرد كائـن إعلامـي بصقته العلاقـات وعجنه التملق حتى توهم نفسـه أنه

كائن حقيقي يستحق منزلة في عالم الكتابة. كان يمكنني ذلك لولا شعوري المزمـن بضـرورة الصدق مع نفسـي ومع من يبيعوننـي وقتهم بمالهم. ربما لهذا لم يكن حقدي على ريماس حقيقيا كما أوهمت نفسي به طيلة أعوام. لأننـي كنـت مـدركا بأن حبّ الأدب لا يعني بالضـرورة امتلاك القدرة على الخوض فيه، وبأن الرغبة والجهد في الكتابة لا تعوّض الموهبة أبدا.

الفصل الخامس

سأكون كاذبا لو قلت أنني عثرت على منزل عمّة جميلة في أول محاولة، ففي الحقيقة قضيت أربعة أيام أحاول العثور عليه من دون جدوى. ذلك أن "الحميز" بُنيت على نحو يستعصي على أكثر مهندسي المتاهات موهبة على الإطلاق. ليس لأن من صمّمها كان عبقريا أو شيئا من هذا القبيل، بل لأنها بُنيت وفق أرقى معايير الجهل وأكثرها تجدرا في الفوضى والبشاعة أيضا. حتى إنني فكرت في أنه لو كان كل العالم مزبلة ولم يكن فيه إلا "الحميز" هذه صالحة للسكن، لفضلت الإقامة وسط القمامة على أن أقطن فيها.

ولسبب لم أفهمه يوما، كانت مثل تلك المدائن تنبت في العاصمة وفي ضواحيها، وكأن ثمة رغبة في نزع الروح منها، حتى أصبحت مدينة لا هوية لشوارعها ولأزقتها ولأبنيتها، غير تلك اللافتات الزرقاء المشيرة إلى أسمائها، ولولا هذه، لما تمكّن أحد من التمييز بينها، وكأنها توائم أنجبها القبح لتخلده إلى الأبد.

المهمّ، عثرت على منزل العمّة. وكان يقع في شارع داخلي قُدِّر له أن يتسمّى باسم شهيد ما، بين بنايات لا تتشابه إلا في الإسمنت الذي بنيت به، وفي طوابقها السفلية التي جُعلت محلات للكراء.

فتحت شابة في منتصف العشرين الباب. كانت تضع شيئا على رأسها يشبه الخمار، ولكنه كان أقل تزمّتا من أن يحظر عليّ رؤية شعرها الأسود الشوكي. كانت تملك وجها بائسا ينضح مللا، ولولا البودْرة التي عليه، لأجزمتُ بما لا يقبل الشكّ، على أنها نتاج زواج ظالم بين كائنين أحدهما مسرف في السواد. ومع كل الجهد الذي بذلت لأستبين ملامحها، إلا أن الكمّ الهائل من الماكياج عليه، جعلني في منأى عن الحكم ما إذا كنت

بالفعل أنظر إلى وجه جميل أو إلى قناع متقن الصناعة.

قالت بمجرد أن فتحت الباب:

- أبي ليس هنا، لكن من الممكن أن تجده في المقهى المقابلة لمركز الدرك على الطريق الرئيسية.

ابتسمت لها، محاولا أن أجعل من مجيئي غير المنتظر أمرا غير محرج لكلينا. وقلت محاولا إبقاء البسمة على وجهي قدر الإمكان:

- اسمي سمير قسيمي. جئت لمقابلة السيدة بوراس..

وحتى تكون جملتي أكثر إقناعا أضفت:

- أنا من قِبَل صديقتها ليليا أنطون. أخبريها فقط بذلك وستفهم.

ومن غير أن تقول أي شيء، دخلت مجدّدا، تاركة الباب مشرّعة بحيث سمحت لي بالتلصص وأنا واقف هناك على العتبة. ولكن الظلام الذي ابتلع الـرواق خلـف البـاب منعني مـن مدّ بصري إلى أقصاه. كنـت أعلم أن مثل هذه السـكنات صُمّمت طوابقها السـفلية بنحو يمنح أكبر مساحة للمحلات المؤجرة، أما نصيب أصحابها منها فلم يكن أكثر من رواق يتوسطها ينتهي بسلالم تقود إلى الطابق الأول، وكأنها خنادق فئران حقول.

لم تمر دقائق حتى خرج من الظلام وجه مصفرّ بعينين خضراوين من غيـر حاجبيـن. كانت امرأة لم أتمكن من تحديد عمرها ولو بوجه التقريب. ذلـك أنهـا جمعـت في ملامحها بين هرم لم تبد لي كل أعراضه وشـباب لا جِدّة فيه. تضع على رأسـها منديلا أبيض من غير رسـوم، لكنه لم يكن فيما يبدو يجمع شعرها بقدر ما كان يعصب رأسها فحسب.

لستُ أدري أي شيء جعلني ساعتها أحدس بأنها جميلة. ولئن فكرت فـي ذلـك بالفعـل، فقـد تمنيت أن لا تكون هي، فلم تكـن هذه هي الصورة التي تخيّلتها لها وأنا أقرأ اعترافاتها. ففيها رأيت وجها ينضح بالحياة، وكائنا لا يشبعه أيّ شيء منها.

- أخبرتني ابنة عمتي أنك من قِبل ليليا.

قالت بصوت تشبه نبرته نبرة صوت طفل نطق لأول مرة.

- نعم.. أنا سمير قسيمي..

قاطعتني:

- المترجم؟!
- بالضبط، أنا هو..

وقبل أن أضيف أي شيء يفسّر سبب قدومي لرؤيتها. عانقتني على حين غرة، وظلت تحتضنني، مسندة رأسها على صدري. شعرت وهي تفعل هذا بأن شيئا غير الرغبة بدأ يملأني حينها، حتى امتلأ جفناي بالدموع وتحجّرت فيهما. ولا أدري لمَ قبّلتها على رأسها ونحن كذلك.

مسكتني من ذراعي وسحبتني لأتبعها، ففعلت من دون أن أنبس ببنت شفة. ونحن كذلك عاودني مشهد كتبه ريماس في إحدى رواياته، يصف فيه سجينا يجره شرطي إلى المحكمة. فقد تملّكني شعور غامض حينها، أنها تقودني إلى قاعة استجواب أكون فيها مجبرا على الاعتراف. ولكن، أيّ شيء كنت أخفيه في داخلي وخشيت من أن يتكشّف بمجرد أن تبدأ في سؤالي؟!

وأنا أسير خلفها، ساورني الشكّ مجددا في أن تكون هذه جميلة. أرعبني تعظم ظهرها ونحولها الشديد. ولكنني حين أردت تناول الأمر بأكثر جدّية تذكّرت مرضها وإقبالها على الموت. فقد كنت أعلم أنها مصابة بالسرطان ولم يبق أمامها إلا أشهر من الحياة.

حين بلغنا الطابق الأول ودخلنا صالة الضيوف، سألتني جميلة أن أجلس أينما بدا لي، فاخترت الجلوس منزويا على أريكة جلدية من ثلاثة مقاعد. وكانت صالة الضيوف على يمين أعلى السلم، تقابل المطبخ الذي كانت بابه حينئذ موصدة. وكانت مقسّمة إلى غرفتين، تفصل بينهما أعمدة من الجبس الأبيض، شبيهة في شكلها بالأعمدة اليونانية. في الغرفة الأولى حيث جلسنا، أرائك من ثماني قطع، موضوعة على "زربية" بدا لي أنها من الصوف ومن النوع المحاك يدويا، عليها رسوم نسوة تتحدثن، ترتدين ملابس عاصمية وحليا كان من الظاهر أنها في تصميمها من النوع الذي

كانـت تضعـه النسـاء قبـل عقـود. أعـرف ذلك مـا دامت أمـي كانت تملك مثلهـا: "كرافـاش بولحية"، "سـبيعيات"، "محزمة لويـز"[1]... وبين الأرائك مائدة زجاجية بسطحين متوازيين.

أما في الغرفة الثانية من الصالة، فقد وُضعت مائدة خشبية طويلة بستة كـراس ذات مقاعـد من الجلـد الاصطناعي، بنيّ اللون، تقابلها مكتبة بطول مترين، من تصميم حديث.

- إذن، فأنت سمير قسيمي، مترجم كتب أبي؟!

قالت جميلة وهي تبحلق فيّ.

أحرجنـي أن تنظـر إلـيّ علـى ذلك النحو. فقد بدت كعاشـقة تسـتغلّ فرصة انفرادها بحبيبها.

أضافت:

- أنت بالطبع لا تذكرني، ولكنني واحدة من المعجبات بكتاباتك.

- تقصدين ترجماتي بالطبع.

- هذه وكتاباتك الأخرى. قرأت روايتك الأولى وتمنّيت أن تسـتمر في كتابة الرواية ولكنك لم تفعل.

أدهشني أن يتذكّر أحدهم كتابا صدر منذ عشر سنوات لم يُحدث أي فارق حينها.

قلت ممتنّا:

- علـى كلٍّ أشـكرك، وإن كنـت أعلـم أنهـا ليسـت إلا مجاملة من قبَلِك.

- ليست كذلك، فأنا جادة فيما أقول. ربما لا تذكر وجهي، ولكنك تذكر حتما رسالتي إليك منذ سنتين. كتبت إليك شيئا لم أشعر بالإحراج منه إلا حين أعدتُ قراءته بعد أن أرسلته إليك. حتى أنت فيما يبدو لم تهضمه،

(1) أسماء كانت تطلق في الجزائر على بعض المصوغات، لم تصبح مطلوبة في الوقت الراهن.

بحيث توقفتَ عن مراسلتي. أذكر أنني أخبرتك بإعجابي بك ولكن بطريقة خاصة..

وراحت تضحك وهي تتذكر رسـالتها إليّ. أضافت حين توقفت عن الضحك:

- طيّـب، هـذا ما كتبته إليـك بالمختصر المفيد: "كان حلمي أن أقرأ أحد أعمالك وفعلت، ثم صار حلمي أن أعرف شـكلك وعرفت، ثم صار حلمي أن توقع لي كتابا من كتبك وحدث الأمر.. أما الآن فلم يعد لي من حلم إلا أن تجمعني بك غرفة واحدة".

حينئـذ تذكـرتُ بالفعـل تلك الرسـالة التـي وصلتني عبـر إيميلي قبل سنوات. قلت مبتهجا:

- صحيح، أذكرها.. أنت صاحبتها إذن.

- أنا هي، وإن كان حلمي الأخير قد تحقق الآن ولو بشكل ما.

أعجبنـي تلميحهـا، فقلـت مبديا ما يجب إبداؤه من لباقة في مثل هذه المواقف:

- ولقد كان حلمي أنا أيضا أن ألتقي بريماس إيمي سـاك ذات يوم. وأنا أحقق حلمي الآن ولو بنحو ما.

ابتسمت جميلة حينها ورمقتني بنظرة بدت لي أنها جمعت بين الشفقة والامتنان. قالت:

- ألهذه الدرجة كنت تحبّه؟!

- ليس حبّا.. إعجاب صادق بالكاتب الذي كانه.

- ولمـاذا تتحـدث عنـه بصيغة الماضي. لا يجـدر بك ذلك لو كنت صادقا في إعجابك به كما تدّعي.

قلت معتذرا:

- صدقت، ولكنّه الموت يجبرنا دوما أن نمنحه المساحة التي اعتدنا منحه إياها.

قالت بمودّة:

- ليس هو من يجبرنا. في الحقيقة نحن من نجبره على أن يكون بمثل هذه البشاعة التي نصبغه بها.

أضافت:

- قرأت ترجمتك لرواية أبي الأخيرة، وكل الفصول التي أضفتها إليها. ومع أنني اعترضت على فكرة عدم ذكر اسمك كمترجم لها على غلاف الرواية، فأنا أحترم رأيك في النهاية.

- وعن هذا جئت أحدثك، لو منحتني بعض الوقت.

وسلّمتها فصليْ "مسائل عالقة" اللذين أحضرتهما معي. قلت حينها:

- من فضلك اقرئيهما الآن، وبعدها أشرح لك.

- أفعل، ولكن إلى حين أنتهي أرغب ألا تغادر حتى أعود، فقد تتفهم عدم قدرتي على الجلوس هكذا لوقت طويل، أفضل قراءة أوراقك في غرفتي ممدة على ظهري. وفي هذا الوقت اعتبر نفسك في بيتك، من دون أن تتحرّج في طلب أي شيء من عمّتي.

وأشارت إلى عجوز كانت تقف على عتبة باب صالة الضيوف، لم أشعر بوجودها حتى هذه اللحظة. ثم نادت جميلة على ابنة عمتها التي فتحت لي الباب منذ قليل، فحضرت وأسندتها وغادرتا معا.

كان الوقت عصرا، وأخذ الصمت يطوّقني بعد أن غادر الجميع، ولسبب غامض شعرت للحظة بالغبطة.

عادت العجوز ووضعت على المائدة حليبا وقهوة وبعض الكعك من دون أن تنظر صوبي. وما أن غادرت حتى عاودني الشعور بالغبطة مجددا، ولكنه هذه المرّة كان أكثر حدّة، فغالبتني نفسي حتى همست لها: "لهذا اليوم رائحة تشبه البداية"...

ولأنني لم أكن أعرف بالضبط سرعة جميلة في القراءة، فقد فكّرت في أنها قد تستغرق نصف الساعة لتقرأ الأوراق التي سلمتها. ما يعني أنني قد أمضي نفس المدة في الانتظار. ولأنني لست من النوع الصبور الذي قد يقضي أي وقت في الانتظار من دون أن يفعل شيئا محددا، فقد أخرجت

مـن محفظتـي كتابـا اقتنيته وأنا في الطريق إلى هنا. لم يكن رواية، بل كتابا يتنـاول بالتفصيـل أهـم النظريات المتعلقة بخلق الكـون. ليس من الجانب الديني الذي يجعل منه حديثا هامشيا تلخصه الجملة الربانية الشهيرة "كن فيكـون"، بـل مـن الجانب العلمي الذي يجعل مـن عملية الخلق موضوعا يمكن التدليل عليه بشـتى المعادلات والتفسـيرات الفيزيائية المسـتندة إلى قوانين تم إثباتها.

وفـي كل مـا تناوله الكتاب، لم أكن مهتما بالبداية التي ادعى المؤلف فيها أن لها علاقة بالانفجار الكبير، والذي سمح للمجرات بأن تتكون لاحقا إثر تكاثف الغبار الكوني، لتتشـكل الكواكب منها. فكل ذلك سـبق وقرأت عنه. ففي سنوات الجامعة كنت أقضي معظم وقتي في قراءة أي شيء يتعلق بهذا الموضوع، لا رغبة في المزيد من الثقافة، بل لأنني كنت أشـعر بفراغ مرهـب فـي داخلـي، جعلنـي في فترة ما أشـكّك في كل مـا لقنته من عقائد تتعلـق بالخلـق. لم أومن ولا أومن لحد السـاعة، بأن الكائن البشـري، كان خلقا مستقلا عن باقي الخلائق، ميّزه الله عن البقية بمجرد أن خلقه. فلطالما فكرت في أنه لم يكن إلا نتاج تطور سلالات أخرى، وانتهى تطوره عنده. أقصـد أننـي وحتـى قبل الاطلاع على نظرية التطوّر لداروين وكل النظريات المكملة والمصححة لها، والتي تلتقي جميعا في مسـألة أن الإنسـان خاتمة تطور دام مليارات السنين. كنت موقنا بأنه كذلك بالفعل، لأنه لو وجد كما قيـل كامـلا مـن أول مرة، لكان وجود ما يشـابهه من مخلوقات مجرد هدر. وكم أسـعدني وأنا في تلك المرحلة من العمر أن وجدت في القرآن شـيئا يبرر لي شـكوكي ويجعلني في منأى من الخشـية على دين اخترته برضاي، معترفا أنني نفرت منه لسنين وظني أنه دين للمتملّقين.

كنت وقتها في الثالثة والعشـرين من العمر أو ربما أكثر بقليل، حين قـررت قـراءة القـرآن من جديد، وعزمت في نفس الوقت على دراسـة أهم تفاسيره الحديثة والقديمة، وكنت لأفعل ذلك وأقضي أعواما في القراءة لو لم تستوقفني آية بدّدت رغبتي، وجعلتني أقتصر عليها في القراءة والبحث

عن تفاسيرها. وكان من الصدف أن ريماس إيمي ساك بعدها بسنة أو سنتين كتب رواية أسسها على تلك الآية، وانتهى لحسن حظي أو لسوئه عند ما انتهيتُ إليه بعد أن أتممت بحثي فيها، ومفاد ذلك أن الملائكة استفسرت عن حكمة الله في استخلاف كائن جديد على الأرض، رغم أنه كائن يميل إلى القتل وسفك الدماء. ففي حين قالت بعض التفاسير، أن استفسارها كان بإيعاز من الله وليس استنكارا لمشيئته على اعتبار أن الملائكة كائنات طيّعة، قالت أخرى أن الملائكة خافت من أن يكون الإنسان كمخلوقات أخرى خلقها الله سابقا واستخلفها في الأرض ولكنها أفسدت كثيرا بعد ذلك.

لا أدري لمَ وبمجرد أن قرأت هاذين التفسيرين حتى امتلأت غيظا من هؤلاء الذين جعلوا أنفسهم أصوات لله، حتى كأنهم وهم يكتبون تفاسيرهم تلك، فكّروا بأن لا أحد سيأتي لاحقا وينتقدها، لأنه لو فعل يكون كمن كفر بالله. ففكرة إيعاز الله لملائكته بقول ما قالوه، تجعلنا نتصور الله وكأنه كاتب مسرحي، جعل لكلٍّ من حوله دورا يلعبه وحوارا يقوله لا يقبل الارتجال. هكذا يضمن أن يكون وحده من يملك جميع الأجوبة، ببساطة، لأنه هو في البداية من كتب جميع الأسئلة. أما عن كون الملائكة قد قارنت بين آدم ومخلوقات أخرى، فهي فكرة أسخف من الأولى وأخطر كذلك. لأن القول بذلك يعني أن الملائكة قاست بين الخلقين، والقياس عمل العقل الذي بحسب كل المعتقدات السماوية، هو الشيء المميّز لآدم وبنيه، وهو الهبة الإلهية لنا نحن البشر، والتي بسببها – بعد ما نقوم بواسطته من خيارات – صارت فكرة محاكمتنا بعد الموت فكرة معقولة نوعا ما.

هكذا انتهيتُ إلى أن ما قالته الملائكة ساعتها، لم يكن بسبب إيعازها أو مقارنتها لنا بمخلوق آخر، بل لأنها وببساطة، كانت تصف فحسب ما كانت تشاهده على أرض الواقع فعلا. لم يكن لديّ وليس لديّ الآن أيّ شك من أنها قالت ما قالته لأنها تصورت أن الله عند حديثه عن استخلاف

آدم علـى الأرض، كان يتحـدث عن ذلـك المخلوق الموجود على الأرض منـذ سـنين والـذي وإن كان يشـبه آدم الأب مورفولوجيـا، فقد كان يختلف عنه كل الاختلاف من حيث أنه كان كائنا لا يفكر.. إنها كانت تتحدث عن الشكل الأول للإنسان..

قلت، لم أكن وأنا أقرأ كتابي ذاك مهتمّا بمسائل البداية، بل بأمر آخر أحببت التعمّق فيه أكثر. فلقد كانت ظاهرة الثقوب السـوداء تسـتهويني منذ مـدة. لهذا شـرعت في قـراءة الفصل المتعلّق بها بـكل متعة، وفي اعتقادي أن الوقت الذي سـأقضيه في قراءته، يكفي لتنتهي جميلة بدورها من قراءة فصليّ من "مسائل عالقة".

مضـت سـاعة من الزمن مـن دون أن تظهر جميلة ومن دون أن أنتهي أنـا مـن الفصل المتعلق بالثقوب السـوداء. والحقيقـة، أنني بدأت أقرأ ببطء على غير عادتي حين بلغت إحدى فقرات هذا الفصل المتناولة علاقة الزمن بالثقوب السـوداء. أعجبتني فرضية يعمل على إثباتها عالم ياباني تقول، أن الزمـن فـي الثقـوب السـوداء يتباطأ في البداية لينعدم فـي الأخير، بحيث لا يصبح له فيه أية دلالة، بسـبب أن المعالـم التي تحدّد الزمن في عُرفنا تنتفي داخـل الثقب الأسـود، ومـن دون تلـك المعالم، يصبـح "الزمن – الوقت" ظاهرة عدمية لا معنى لوجودها.

أعجبتني الفكرة، إلى درجة أن فكرت بمتعة، في أن الكتب في النهاية ليسـت إلا ثقوبا سـوداء من نوع ما، فحتى وإن مات الكاتب متأثرا بعامل الزمـن، يظـل كتابـه إن كان يسـتحق صامدا أمامه. ثم ما لبثتُ أن أسـقطت هـذه الفكـرة علـى عالم الروايـة، وأعجبتني فكرة أن تظل "كوزيت" شـابة وجميلة رغم مرور أزيد من قرن منذ أن غرزها "هيغو" في كتابه البؤسـاء. وأن يستمر "بتيستا" في انتهازيته وفي جشعه من غير أن يتوب منهما، بالرغم مـن أن "مورافيـا" قـد شـبع موتا وهو الذي خلقه على هـذا النحو في كتابه "الاحتقار".

هكـذا وجـدت مـن غير جهد مدخـلا معقولا إلى الفصـل الثالث من

"مسائل عالقة"، بحيث تصوّرت أن عالم أبطالي كان عالما يتباطأ فيه الزمن وينعـدم أيضـا، ليحظـوا بأبديـة مزيّفة يقايضونهـا بحياتهم قبـل أن يصبحوا شـخوصا فـي روايات. وبعدها لم تكـن فكرة "موهبة القرار" التي ابتدعتها، إلا تحصيـل حاصـل عـن فكرة العدالة الإلهية التي تقضي بمنح الخيار لكل الكائنات البشرية. وقياسا على أدبيات الدين القائلة أن محرّمات هذا العالم تصبـح حـلالا فـي العالم الآخـر، فقد فكرت أن الانتحـار المحرّم في عالم الأحيـاء قـد يصبح في الحياة الأخرى عملا مشـروعا أيضـا، وأطلقت عليه تسمية "موهبة القرار"، بمعنى الحق في الانتهاء.

ومـع أننـي فكـرت فـي كل هـذا وكتبت فقـرة من الفصـل الثالث من "مسائل عالقة"، إلا أن جميلة لم تكن قد عادت من خلوتها مع أوراقي بعد. حينها لم أجد بدّا إلا أن أطلب من العمّة اسـتعجالها، فقد كان الوقت قـد تأخـر بعض الشـيء وكاد وقت المغيـب أن يدخل. وما هي إلا لحظات حتـى رجعـت العمّة لتخبرني أن جميلـة تطلب مني أن أترك لها رقم هاتفي وأرحل، على أن تتصل بي لاحقا.

الفصل السادس

مـن ينبـش بجـدٍّ يجد ما يبحث عنه. وما دمـت لم أجد مقهى ثلاثون التي تحدث عنها ريماس إيمي ساك، فكلّ الظنّ أنها لم تكن إلا من بنات خياله. ليسـت هذه أول مرة يفعلها، فقبل سـنوات اخترع شـارعا زعم أنه موجود في العاصمة، وأعطاه اسـما وحدد له موقعا، بل وكتب عن تاريخه الكثير!.

أذكـر وأنـا الخبيـر بشـوارع وأزقـة العاصمـة، أننـي حين قرأت اسـم الشـارع أول مرة، شـعرت بالإحراج من نفسـي. كيف غفلت عنه وهو في المـكان الـذي حـدّده ريماس، والذي قـال أنه كان يقع أعلى شـارع محمد الخامـس، يبـدأ من زقاق ضيّق على ثالث منعطف على اليمين، تماما حيث كان المقرّ القديم لشركة أديداس. وخاض بعدها في وصفه بناية بعد بناية، واستحضر كل ما يمكن استحضاره من قرائن تؤكّد وجود الشارع المسمى "برغولا". ولمزيد من التوكيد، ذكر وجود عمارة كانت في عهد الاستعمار "منزل مواعيد" وهي تسمية لطيفة للماخور، بباب حمراء لا تحمل أيّ رقم. واسـتمر وجود هذا الماخور الذي حمل لاحقا اسـم "الباب الحمراء" إلى نهاية الستينيات، حيث توقف عن النشاط.

الآن وأنا أذكر هذا، أستشـيط غضبا لتضييعي وقتها سـتة أشـهر على البحـث لأدرك أن شـارع "برغـولا" هـذا لـم يكـن أكثر من كذبة اسـتمتع بهـا إيمـي سـاك. ولو شـئت أن أكـون أكثر دقة، فلم يكن هذا الشـارع إلا صـورة مركبـة مـن عدة صـور، كان ريمـاس حريصا على تزييفها بشـكل متقـن، فالمقـر القديم لشـركة أديـداس لم يتواجد أبدا هنـاك، ولـم تملك هـذه الشـركة أيّ مقـر فـي هذه الناحيـة. كل ما كان له علاقـة بها هو بائع معتمـد لهذه الماركة اسـتقر في شـارع تيلملي بالمقربـة من المكان الذي

حدّده ريماس. أما الباب الحمراء، فلم يكن عمارة كاملة، بل شقتين في عمارة من ثلاثين شقة، ولم يكن موقعها مثلما ذكر ريماس، بل بمحاذاة الفندق السياحي الواقع على مشارف ساحة الشهداء. والأدهى من ذلك فـ"برغولا" لم تكن اسم شارع وما كان لها أن تصبح كذلك أبدا، لأنها في الحقيقة كلمة فرنسية تعني الأعمدة المقفلة أو القوس. وهو الأمر الذي جعلني أُجنّ على اعتبار أنني مترجم، وكان من المفترض أن أكتشف الأمر من دون بحث أو عناء.

هذه المرة لن يخدعني ريماس، فلا وجود لمقهى اسمها ثلاثون في العاصمة كلها. لهذا لم أجد حرجا في استغلال هذا الاسم في "مسائل عالقة" على أنه مكان خيالي تجتمع فيه شخوص روايات ريماس إيمي ساك.

***

وكان قد مضى أسبوعان على زيارتي لجميلة، وفيهما كتبت أربعة فصول أخرى من "مسائل عالقة"، من دون أن أدري إن كانت جميلة ستمنحني الوقت لإتمامها وضمّها إلى كتاب أبيها. ومع أنني لم أتحدث معها بعد في الموضوع، فقد كان يحدوني الأمل في أن توافق حين أشرح لها وجهة نظري. وخلال هذه الفترة بعثت لي ليليا بنسخة إلكترونية للكتاب الذي ترجمتُه وأضفتُ إليه اعترافات جميلة وفصولا أخرى، من أجل أن أراجعها لآخر مرة قبل أن تدفعها للطبع.

كنت أعيش وقتها حالة من الضغط على أكثر من جبهة، جعلتني أحاول كسب بعض الوقت بمماطلة ليليا والادعاء أن مرضا أصاب عينيّ، ولن أتمكن من مراجعة الكتاب إلا بعد أسابيع. فعلت ذلك وأنا مدرك أنني لو لم أكن أنا صاحب الترجمة لكانت ليليا قد كلفت سواي بالمراجعة، ولكنها لم تكن لترغب في المجازفة بأهم كتاب ستصدره هذه السنة، لذلك سألتني بكل تهذيب أن تكون المراجعة جاهزة بعد ثلاثة أسابيع على أقصى تقدير.

لم أكن أملك أية فكرة عمّا يجب فعله بالتحديد في الثلاثة أسابيع هذه، إلا أن أحاول التقدم في كتابة "مسائل عالقة"، أما رؤية جميلة من جديد فلم تكن احتمالا واردا على الإطلاق. ولأوّل مرّة في حياتي وجدتني أستنجد بالأقدار، وأقول لنفسي، على غير عادتي، أن الذي سيحدث سيحدث ولن يكون لديّ أي خيار آخر. كل ما كنت متيقنا منه ساعتها، أن كتابة "مسائل عالقة" لم تعد أمرا يتعلق بريماس بقدر ما أصبح يتعلق بي. مهما يكن، ومع أنني اعترفت بأن فكرتها لم تكن بالكامل فكرتي وأنني وبطريقة ما استخلصتُها من كتاب ريماس إيمي ساك الأخير، إلا أنني لم أعد متيّقنا من أنني أكتب بيده كما تصورت في البداية، فقد بدأت أشعر بنفسي داخلها، بعد أن أصبحتْ هي أيضا داخلي بمجرّد أن اكتملت فكرتها في ذهني. ورغم ذلك ما كنت لأغير رأيي وأطالب ليليا بوضع اسمي على غلاف الرواية.

ولم تلبث أن مضت كل المهلة التي منحتني ليليا لمراجعة الكتاب، وكنت بدوري قد انتهيت من كتابة المسودة الأولى من "مسائل عالقة"، حين سمعت طرقا خافتا على باب شقتي وقمت لأرى من الطارق.

كانت دهشتي عظيمة وأنا أتطلع إلى ليليا وجميلة واقفتين، تبتسمان كل واحدة بطريقتها. رحّبت بهما ودخلتا على مهل وكأنهما رغبتا في أخذ كل وقتهما لبلوغ مجلسيهما.

قلت قبل أن تجلسا:

– مفاجأة سارة!.. أترغبان في شرب أي شيء.

ابتسمت جميلة وحرّكت رأسها أن "لا". في حين اكتفت ليليا بالصمت.

أضفت، مخاطبا ليليا لأسدّ عليها طريق توبيخي:

– ستكون المراجعة جاهزة بعد يومين. في الحقيقة انتهيت منها، لكنني رغبت في التأكد من ملاحظاتي.

لم أشعر وأنا أنتهي من قول هذا بأن ليليا مهتمة بأيّ نحو، وكأن

زيارتها لي لم تكن بسبب تأخري عن تسليم العمل.

قالت جميلة:

- لقد أخبرتُ ليليا عن عملك وجعلتها تقرأ الفصلين الأولين من "مسائل عالقة".

وقبل أن أفكر في أي ردّ، أضافت ليليا بودّ:

- فكرة رائعة.. هذا ما أخبرت به جميلة بمجرد أن أطلعتني عليها، والأروع أنني وجدتها قابلة للتجسيد حين قرأت ما كتبته لحد الساعة. لا أحد سيشكّ مطلقا في أنه نص لم يكتبه ريماس إيمي ساك.

وغمزتني جميلة مبتسمة:

- قلتُ لها إنني أعلمتكَ برغبتي في أن تكتب لي شيئا نضيفه إلى الرواية الأصلية يزيد في تشويقها أو يجعلها تخرج عن كونها مجرد مذكرات كتبها أبي وأنك قد فعلت ذلك بشكل أذهلني شخصيا. وأنا أرغب في أن تتمه في أقرب فرصة.

حينئذ، أدركتُ أن جميلة قد فهمت غاية الأوراق التي قرأتها، وأنها عوض أن تورطني مع ليليا اختارت الكذب عليها بحيث جعلتها تتصور بأن فكرة إعادة كتابة الرواية بشكل آخر، فكرتها هي. وحتى لا أضيّع هذه الفرصة قلت:

- صحيح، كانت الفكرة جيدة وأعجبتني إلى درجة أنني اندمجت معا وانتهيت من كتابة "مسائل عالقة". ولكنني ومع هذا أحبّ أن أقترح عليكما إضافة أخرى.. أعتقد أنه سيكون من الرائع لو تركتماني أكتب نصا آخر يتحدث بنحو ما عن ظروف كتابة العمل، وبشكل ما، يمنح كتاب ريماس الأخير نكهة جديدة لم تعرفها كل أعماله السابقة.

سألت ليليا: "كيف يكون هذا؟". ورمقتني بنظرة أشعرتني أننا لو كنا لوحدنا لسمعت منها سؤالا آخر أقل تهذيب من هذا.

ولكن جميلة قالت وهي تحاول أن تقوم: "ستفعل.. أكيد ستفعل. ولكن دعنا نقرأ أولا ما أنجزته من "مسائل عالقة". وبالنسبة لهذا العمل

الذي تتحدث عنه، فكلما أنجزت شيئا منه، فدعني أقرؤه في ليلته".

قاطعتها ليليا:

– ولكن إذا استمرت الإضافات فلن ننجز الكتاب في آجاله.. تفهمين ما أقصد.

وبنبرة أكثر يقينا، قالت جميلة:

– لا يهم. لكما كل الوقت. لم يعد حلمي أن يصدر الكتاب قبل أن أموت، بل أن أقرأه كاملا قبل أن يحين الأجل.

ثم شدّت على يد ليليا وهمست لها: "دعينا نذهب الآن، ولنترك صديقنا يركز على عمله أكثر". وابتسمت لي، وقد بدا لي أن ثمة أحدا ضخ في عينيها الخضراوين شيئا من الحياة. وهكذا شرعت ليلتها في كتابة هذه السطور. وكنت كلما كتبتُ شيئا أحمله إلى جميلة وأقرؤه عليها ونتبادل وجهات النظر حوله، فنضيف ونشطب ونعدّل، وأحيانا نلغي صفحات بكاملها. لم أكن آبه كم من الجهد سيأخذ مني ولا كم من الوقت سأقضيه للانتهاء منه، رغم أنني أملت أن أنجزه قبل أن تغادرنا جميلة. كان من المؤلم أن أفكر – ولو لمجرد التفكير – بأن ثمة احتمالا كبيرا في أن لا تقرأه كاملا. لهذا لم أكن آبه إلا بالاشتغال عليه، وكل أملي أن أكون سببا في إسعاد هذه التي جعلتني أومن مرة أخرى بمقدرتي على الكتابة من جديد، فحتى وإن لم يكن سيظهر اسمي على كتاب ريماس، فقد أصبح الأمر واضحا بالنسبة إليّ من أنني لن أعود بعده إلى ما كنت عليه، مجرد مترجم لأعمال سواه. عاودتني الرغبة في الكتابة ولكنها هذه المرة حقنتني بما جعلني متيقنا أن لديّ موهبة ستسمح لي باختلاق ما يشاء لي القدر من قصص وروايات. أخيرا أصبحتُ أفهم في منطق الكتابة، وأهم ما فهمته منه، ألا منطق فيها.

ولكن جميلة حين شعرت بأن زيارتي لها كل يوم قد تؤخرني عن الكتابة، سألتني أن أبعث لها ما أنجزه يوميا عن طريق الإيميل من دون أن أكلف نفسي عناء التنقل. وعبثا حاولت إقناعها أن لا عناء في الأمر، فقد

أصرت على طلبها، حتى وعدتها بتحقيقه.

في الحقيقة، رغم ما كان يعنيه لي الخروج من منزلي من تضييع للوقت وتشتيت لأفكاري، فقد بدأت أشعر بمتعة غريبة في رؤية جميلة ومحادثتها كل يوم. حتى خِلت مرة أنني بدأت أقع في حبها، ولكنه لم يكن إلا خاطرا سرعان ما تخلّصت منه لاحقا بعد أن توقفتُ عن رؤيتها، مكتفيا بمراسلتها بجديدي. ومع ذلك لا أنكر، أنني كنت أتحيّن الفرص لمهاتفتها وإخبارها بأفكاري فيما يتعلق بلاحق ما سيكون عليه العمل، ولكنني ما إن أنتهي من ذلك حتى أجدني أتحدث في أمور أخرى لا علاقة لها بالأدب ولا بالكتابة. ولو شئتُ الصدق فلم يكن لحديثي معها علاقة بأي شيء. كان حديثا من أجل الحديث، لا غاية منه إلا اقتناص فرصة ما للاستماع لصوتها.

لم يكن حبّا ما بدأت أشعر به نحوها، لأنه لو كان كذلك لما فارقتها لحظة وأنا أعلم أن كل يوم يمرّ عليّ بعيدا عنها، هو يوم آخر يقربها إلى حتفها.

بهذا فكرت، وبهذا دفعت ذلك الخاطر عنّي.

ولو أنه لم تصلني تلك الرسالة من هنري دوكلار لما فكرت أبدا في زيارتها، لأجعلها تجيبني على أمر غفلت عنه، حتى نبّهني إليه دوكلار.

"عزيزي..

لا تعلم صديقي مقدار سعادتي، حين أخبرتني صديقتنا المشتركة ليليا بأنها حصلت على حقوق نشر رواية ريماس إيمي ساك الأخيرة. ولن تدرك أبدا ما غمرني من رضا وأنا أعلم للتو بأنك من سيقوم بترجمتها إلى العربية، لعلمي أن لا أحد قادر على نقل روح نصوص إيمي ساك مثلما تفعل أنت.

ورغم أن عقدي مع المرحوم ريماس يجعلني أستحق عمولتي حتى وإن تغير ناشره، فإنني واقتداء بك حين رفضتَ أن يذكر اسمك على غلاف

روايته، فقد راسلت ليليا بشأن مستحقاتي وأعلمتها بأنني أتنازل عنها بشكل كامل.

ومع أنني سعيد بكل هذا، إلا أن ما يجعل سعادتي غير كاملة، هو شعوري بأنه قد يحين أجلي وفي قلبي غصَّة لن يستطيع نزعها سواك. ذلك وكما أخبرتك ذات مرة، لم يكن حلمي منذ أن بدأت التعامل مع ريماس إيمي ساك وطيلة أربعة وثلاثين عاما، إلا أن أتعرف عليه شخصيا، ولكن الموت كما يبدو سبقني إليه وعانقه قبل أن أصافحه أنا. كل رجائي الآن، أن تمنحني صديقي وقد قرأت كتابه الأخير حقي الشرعي في معرفة الاسم الحقيقي لريماس إيمي ساك.

أتمنى عزيزي أن تصلك رسالتي وأنت بألف صحة وعافية.

صديقك هنري"

***

صحيح.. كيف لم أفكر في السؤال عن الاسم الحقيقي لريماس إيمي ساك بعد كل هذا الوقت؟!.. فبالرغم من التفاصيل الكثيرة التي كتبها ريماس عن حياته، إلا أنه لم يذكر اسمه أبدا. كل ما جعلنا نعرفه عنه أنه وحيد أمه من الذكور، وأنه آخر نسلها وهي التي أنجبت تسع بنات، وأنه ولد في القصبة السفلى، بالزقاق المعروف بسيدي محمد الشريف، وأن أباه كان مناضلا سجن لأكثر من مرة، وفي فترة سجنه ولد ريماس إيمي ساك، وأنه بعد مدة من ظهوره تحت هذا الاسم تزوّج من امرأة لم يذكر اسمها وأنجب منها جميلة التي تزوجت من أحمد بوراس.

أعترف أن لهفتي على آخر رواياته وانشغالي بالعمل عليها، جعلتني أغفل عن السؤال عن اسمه. ومع ذلك فلا بأس بأن أعترف أيضا أنه تمكن مني مرة أخرى بأن وضعني في متاهة أضعت فيها القدرة على تحديد الأولويات، حتى أصبح اسمه الحقيقي غير مهم بالنسبة لي كل هذه الفترة.

أذكر أنه فعلها معي ومع قرائه أكثر من مرة، ولكنه هذه المرّة كان أكثر إقناعا من المرات الســابقة، بحيث جعلني أرضى بجهلي، وأنقاد إلى حيث أرادني أن أكون.

مهما يكن، كلمت جميلة وتواعدنا في منزل عمتها. وإلى هناك قدت ســيارتي وفــي رأســي رتبــت كل مــا يجدر بي أن أســألها عنــه. ولأوّل مرة، شعرت أن ذهابي لرؤيتها لم تكن غايته إلا هذا الغرض.

وعلى غير العادة، قادتني ابنة عمتها إلى غرفة جميلة. قالت وأنا أدخل أنها متوعّكة بعض الشيء وفضلت البقاء في غرفتها. وبالفعل، ما أن رأيتها حتى أدركت أنني أرى كائنا سماويا لم يعد يربطه بالحياة إلا تلك الأنفاس التــي تدفعهــا رئتاه بجهد. أرعبني وأنا أســلّم عليها على خديها برود جلدها وتعظم وجهها، وخشية من أن تفهم جميلة ذعري أشحت بنظري عنها، وأنا مدرك بأن الذعر قد يستوطن عينيّ.

قلت محاولا الابتسام:

- لعلّك بخير جميلة..

ابتســمت بدورها، فتراءت لي شــفتاها متيبّســتان وكأنها لم تعد تملك ريقا ترطبهما به.

أضفت بجهد:

- يحسن بك أن تستريحي الآن. جئت فقط لأسلّم عليك.

قلت ذلك وأنا مدرك ألا جدوى من سؤالها الآن عن اسم أبيها. وأن جميع أســئلتي المرتبة منذ حين في رأســي لم تعد تســتحق أن أشــغل نفسي أو أشغلها بها.

ولكنها وأنا أقول ذلك، مدت إليّ يدها. وكانت إذ ذاك مستلقية على جنبها. قالت بارتعاش:

- أرجوك تعال..

وفســحت لي مكانا بجانب ســاقيها حيث جلســت، من دون أن تفلت يدي.

أضافت:

- هل كتبت شيئا جديدا؟..

حركت رأسـي أن "لا". فأغمضت عينيها مبقية على ابتسـامة جعلتني أتصوّر أنها كانت ممتنة لوجودي هنا.

كانت يدها باردة كالثلج، فأخذت أفركها بكفيّ وأنا أقول:

- هل أخبرتُك أنني أنوي أن أكتب بعد انتهائي من عمل أبيك رواية جديدة. أشعر الآن أنني قادر على الكتابة من جديد.

فتحت عينيها حينئذ وسـألتني أن أتمدد بجانبها. وحين فعلت دثرتني معها وهمست لي: "أشعر بالبرد". ثم احتضنتني، جاعلة رأسها على صدري وقد اتخذت وضع الجنين، بحيث شـعرت بركبتيها تلامسـان بطني. كانت ترتعـش لحظتهـا وأنـا أحاول جهـدي أن أمنحها بعض الـدفء بضمها أكثر إليّ. وما هي إلا دقائق حتى قالت:

- سـيكون رائعـا أن تعود إلى الكتابـة. أتعرف.. لم أصدق يوما أنك ستودّعها إلى الأبد.

ثم أضافت وقد رفعت رأسها من على صدري لتتطلع إليّ:

- هل ستكون قصة حبّ؟

- لا أعتقد.. ربما، لا يقين لديّ في هذه المسألة.

- سيكون رائعا لو كانت كذلك..

ثـم أعـادت رأسـها حيـث كان على صـدري وأغمضـت عينيها من جديد.

كنت أصغي لأنفاسها، محدّقا فيها. وللحظة شعرت بالرغبة في البكاء. وبالفعل تحجّرت الدموع في جفنيّ، ولكنني خشيت أن أدعها تنهمر فتشعر بها جميلة. وفي النهاية لم أستطع حجزها أكثر لتنحدر على وجنتيّ، ومنهما على وجه جميلة. ومع هذا لم ترفع رأسها من جديد لترى ما يحصل معي. شـعرت بها تضمني أكثر إليها، حتى وكأنها صارت داخلي. أخيرا شـعرتُ بدفء جسـدها. وتمنّيت لو توقف الزمن لحظتها، وبقينا أنا وهي على هذا

الوضـع إلـى الأبـد. حينها أدركـت أن روايتي القادمة سـتكون عن الحب.. حبي أنا لها.

وبينما ذراعاي ملتفان حولها، شـعرت بشـيء تحت وسادتها، سحبته، فإذا به صورة بالأبيض والأسـود لرجل ثخين بذقن غير حليقة يحمل طفلة بيـن ذراعيـه، واقفـا علـى رصيف بجانب بـاب زجاجية تظهـر خلفها موائد دائريـة بمقاعـد.. وفوقهـا ظهرت يافطة مكتوبة بالفرنسـية لـم يظهر منها إلا ثلاثة أحرف بسـبب تلف الصورة.. قرأتها بدهشـة "tre.."، ويداي ترتعشان من الذهول.

الفصل السابع

لا يستحق أن أفصّل فيما حدث لاحقا إلا بالقدر الذي يجعلني قادرا على كتابة القصة كاملة من دون أن أشعر بالمزيد من الألم. ولئن كنت أشعر به الآن بمجرد أن بدأت ألـمِّح له، فليس شيئا مقارنة بما شعرت به وقتها وأنا مدرك أنني أحبّ من لستُ قادرا على منحها أي شيء غير الشفقة عليها، وهو شيء ما كانت لتقبل أن أهديه لها، حتى حين تفاقم عليها المرض ولم تعد قادرة على الوقوف على رجليها، ولا حتى حين بدأ الألم يطعنها على نحو لم يعد يمكن تسكينه إلا بالمورفين. حتى هذا كنت مدركا أنه في مرحلة ما لن يفيدها في شيء.

شهدتُ الأيام الأخيرة لجميلة وكأنها آخر أيامي أنا. ولو شئت أن أكون أكثر صدقا، فقد كانت بالفعل آخر أيامي. لأنه بعدها. بعد أن توقف قلبها عن الخفقان. تحجّر قلبي ولم يعد يخفق إلا حين أتذكرها مثلما أفعل الآن. ومع أنني لم أكن راغبا في البداية أن أحضر تلك الأيام، بحجة رغبتي في الاحتفاظ بصورة أكثر حياة لها، إلا أنني في النهاية فضلت أن أظل معها رغم كل شيء.. كنت هناك برفقتها حين بدأ الموت يغرز فيها مخالبه. كم كان ساديا معها، حين أرغمها على التخلّي عن الحياة شيئا فشيئا. في كل يوم يأخذ منها ما يجعلها تترجاه لاحقا بأن يأخذها إليه مرة واحدة، ولكنه لم يكن يرضى لها بغير الألم، وبغير المزيد من الإذلال.

في كل يوم كانت تنحل أكثر، حتى أصبحت مع الوقت هيكلا عظميا لا ملامح له، ثم غارت عضلات ساقيها ولم تعد قادرة على الحركة، وما هي إلا أيام حتى فقدت القدرة على التحكّم في إفرازاتها، لنضطر في الأخير إلى الاستعانة بالحفاظات لئلا تبلّل أو توسخ نفسها. ثم لم يعد بمقدورها ابتلاع أي شيء، قبل أن تبدأ مرحلة من الألم المزمن، لم نجد له من حل

إلا حقن المورفين المقيتة. ولكنني كنت أعلم بحكم أن والدتي ماتت بنفس المرض، أن الألم سيتزايد إلى درجة أن لا شيء سيفيد معه. ولكن لحسن حظها أو لحسن حظي، دخلت في غيبوبة حملتها صوبا إلى الموت.

يحرجني أن أصرِّح بأنني حين ماتت سعدت لأجلها. ويحرجني أن أقول أنني كنت أكثر سعادة من أجلي. ففي الوقت الذي يتوقف فيه الأمل، تصبح الحياة مجرد هدر لا يستحق أن نعيشه.

لم أحضر جنازتها واكتفيت بمعرفة المكان الذي ستدفن فيه. فلطالما اعتبرت أن الجنائز طقوسا لا غاية منها إلا ترسيم الوداع. أما أنا فلم أكن قادرا على توديعها بعد، على الأقل ليس قبل أن أفي بوعدي لها وأكمل رواية أبيها وأنشرها كما رغبت هي. ثم إنها كانت مجرّد جنازة لا غير، واحدة من تلك الجنائز التي لم أحضرها في حياتي، حتى جنازة أمي أقرب الناس إليّ لم أحضرها. لأنني كنت مدركا أن حضوري لمثل هذه الطقوس هو فرصة للقاء "السيّد الموت" كما كانت جميلة تحبّ أن تسميه، ولسبب ما، كنت أعتقد أن لقائي به سيغريه بضمي.

***

الأيام التي تلت وفاة جميلة، كانت ماطرة جدا. أسعدني أن أفكر وقتها في أن السماء حزنت عليها، ثم غمرني شعور بأنها كأيام ريماس إيمي ساك الماطرة، وفضلت أن أفكر في أنها بشارة خير كما كان يعتقد دوما. وعلى هذا شرعت من جديد في العمل على كتاب ريماس، إلى درجة أن عزلت نفسي وأغلقتُ هاتفي، لئلا يشغلني شيء عنه، حتى كدت أنتهي منه.

وفي أيام عزلتي تلك، قامت ليليا بنشر "السيرة الحقيقية لريماس إيمي ساك"، وضم المقاطع الست عشرة التي لم أستغلها من مخطوطة ريماس. ولقي الكتاب ما يليق به من رواج، ليس لأنه كان الأفضل في كتب السيرة حينذاك، بل لأنه كتاب وشّح عنوانه باسم كاتب فذ كريماس إيمي ساك. ومع ذلك لم أعبأ بالأمر وبقيت مصمّما على إنهاء العمل كما وعدت

جميلة. ولأنني وعدتها فلم أجد حرجا في أن أزور قبرها في كل يوم وأقرأ لها ما كتبته في غيابها الأبدي. كنت في كل يوم أجلس بجانب قبرها وأبدأ فـي القراءة وأنا مسـتمتع وكأنها في حضرتـي. وأحيانا أتوقف عند نقطة ما، وأبدأ في شرح الأسباب التي جعلتني أنتهج هذا الأسلوب أو ذاك، فيتصوّر لـي أننـي أكلّم جميلة بجسـدها وروحها، ونتجـادل في هذه النقطة أو تلك. ثم أستمر في القراءة من جديد.

ولأننـي لـم أجد خاتمة مناسـبة لكتاباتي فقـد وعدتها بأنني بمجرد أن أكتبها سأقرؤها عليها أيضا، مع أنني لم أكن على يقين كيف ستكون. ولكن الثقـة التـي منحتنـي جميلة جعلتنـي مصمما على الأمر، حتـى اهتديت إلى خاتمة مناسبة، أجعل فيها الراوي يزور بيت ريماس إيمي ساك في "زموري" وينهـي القصـة هنـاك بأية طريقة. بالطبع فكرت أيضا أن أبدأ في البحث عن اسـم ريمـاس إيمـي سـاك الحقيقي، أو حتـى عن حقيقة مقهـى ثلاثون بعد أن تأكـد لـي وجودهـا من الصورة التي رأيتها عنـد جميلة. ولكنني وجدت الغموض الذي حوّط به ريماس نفسـه كل تلك السـنين يسـتحق أن يحترم، ويبقى سمة أبدية له.

وهكذا توجهت صوبا إلى بيت ريماس حيث كان يقيم.

كان الوقـت ليـلا حين وصلت. فضلت هـذا الوقت لأجد كل راحتي في شـقة ريماس التي كانت تقع في آخر طابق من عمارة من سـبعة طوابق. كان قد جعل لشقته بابا حديدية مصبوغة بالأحمر الآجوري المقاوم للصدأ، بالإضافة إلى باب خشبية من نوعية متوسطة. فتحتهما لألج إلى ردهة تتوسط وتفصل بين المطبخ وصالة المعيشة. وحين أشعلت الأضواء، مددت بصري فأدركت أنها شقة من ثلاث غرف صغيرة الحجم بعض الشيء.

لـم أحتـج إلـى الكثيـر من التدقيق، لأتسـاءل عن السـبب الذي جعل الشـقة علـى مثل تلك الحال التي وجدتهـا عليها، فقد كانت الأتربة تملؤها على نحو جعلني أشكك في حقيقة أنها كانت مأهولة منذ مدة يسيرة فحسب.

كان فرش صالة المعيشة بسيطا: كنبتان بوسائد ومائدة قصيرة الأرجل

وتلفـاز قديـم لـم يبد أنه موصول بأي كابل. وبجانبه حاسـوب، ظهر لي من ديزاينه أنه من الجيل الثاني موضوع على الأرض. أما المطبخ فكان صغيرا بنافـذة، تتوسـطه مائدة خشـبية بأربعة كراسٍ، وبجانبهـا ثلاجة بباب واحدة استشرى فيها الصدأ بشكل واضح. وفي الزاوية موقد مسطح موضوع على حمّالة حديدية، بدا أنها صنعت خصيصا لهذا الغرض.

لم يكن في الشقة كما تصورت غرفة مكتب ولا مكتبة ولا أي كتاب، بـل غرفـة أطفال بطلاء أخضر، مجهـزة بكل ما يلزم لتكون غرفة أطفال من أسـرّة وألعاب وصور كرتونية وغيرها. والغريب أن هذه الغرفة كانت على خلاف بقية غرف الشقة نظيفة إلى درجة أنه خيِّل لي أنّ أحدا يقوم بتنظيفها يوميا. أما غرفة نوم ريماس فكانت كما ذكرها في كتابه مطلية بطلاء وردي، وبسـرير عريـض بمكانيـن وخزانة بسـتة أبـواب مثبتة، على أربـع منها مرايا طولية. أما السقف فلم يكن متآكلا كما ذكر ريماس.

شـعرتُ بالتعـب وأنـا أحـاول مطابقـة كتابات ريماس إيمي سـاك مع واقعـه، لأدرك فـي النهايـة أن لا شـيء فـي الواقع متطابق بشـكل تام مع ما ذكره في كتابه الأخير. ولفرط تعبي تمدّدت على سريره، غير آبه بكل الغبار الذي كان عليه، وأغمضت عينيّ رغبة في أخذ أنفاسـي والتفكير في خاتمة جيّدة لكتاب ريماس.

بعـد لحظـات فتحتهما من جديد على مشـهد أدركـت للتو أنه خاتمة كتابـي. مشـهد كنـت فيه مسـتلقيا على ظهـري أحدّق في مرايـا خزانة غرفة النـوم، وأراني عليها كرجل مسـتلق على سـريره بعينيـن مفتوحتين تبحلقان في وجهه وقد عكسته مرايا خزانة غرفة نومه ذات الأبواب الستة. بدا لي أن على وجهه تيبّست ملامح دهشة صبيانية شبيهة بالتي ارتسمت على وجهي وأنا أنظر إليه، مفلتا آخر قطرة نور من عينيه ليسـير صوب العدم، وأسـير أنا صوب الحياة.

الجزء الثالث

"كان ذلك الرجل يطاردني، وكان عليّ الاستمرار في التنقل، ومنحني ذلك ميلا إلى السفر، ميلا حقيقيا إليه. وكان ذلك بعيدا تماما عما توقعته، فقد كانت خطتي هي أن أقبع ساكنا وأدع الوقت يمضي. ثم قلّبت كل شيء رأسا على عقب. كان يحسب أنه يتعقبني ولكني في الحقيقة كنت أنا أتعقبه.".

بول أوستر

حوار غير ودّي
مع كاتب لا يعرفه أحد (3)

س: سأصارحك بأمر مهم.

ج: تفضلي.

س: لا أعتقد أن الجريدة ستنشر هذا الحوار، فقد قال لي رئيس التحرير أنك تتلاعب بي، ولن ينتهي حديثنا إلا إلى المزيد من الثرثرة.

ج: صحيح؟!

س: وحين حاولت مناقشته في الأمر، حاضرني مطوّلا عمّا تعانيه الجريدة جرّاء إبقائها لقسم ثقافي لا يبيع[1]. وقال أمورا كثيرة أخرى لا داعي لذكرها.

ج: يعني أننا سنتوقف عند هذا الحدّ.

س: بالطبع لا. أرغب في معرفة المزيد عن هذا المريض المجهول. لا يمكن أن يظل أمره معلّقا.

ج: صحيح. فأنا بعد أن قرأت "المترجم" لم أعد مقتنعا بتفسير الدكتور رزوق في أن المريض سيكشف عن نفسه لوحده. ففي هذه المخطوطة ذكر "سمير قسيمي" بالاسم من دون الصفة، ولم تعد "جميلة بوراس" شخصية غامضة وبذلك فصل بشكل ما بين "ريماس إيمي ساك" و"سمير قسيمي" على نحو جعلني أوقن أنهما ليسا نفس الشخص، رغم أن كل القرائن كانت تؤكد عكس هذا. لذلك فكرت أن المريض لا يحاول أن يُظهر جانبه العاقل مثلما تصوّر الدكتور بل جانبه المبدع فحسب. ولا بأس حين يظهر ذلك أن

(1) "الثقافي لايبيع": تعبير ركيك يستعمله ناشرو الصحف الجزائرية لتبرير أسباب إهمالهم للأقسام الثقافية وعدم اعتنائهم بها وبصحفييها.

يحكي لنا حكايته أو جانبا منها على الأقل. ولم يكن لأحد حتى زوجتي أن يفهم فيما بين سطور كتابات مريضنا غير الروائي الذي يبدو أن مريضنا متأثر به على نحو ما. هكذا قررت الاتصال بسمير قسيمي، على أمل أن أجد عنده أجوبة لبعض ما أصبح يؤرقني.

لم يكن الاتصال به صعبا، ولم أبذل للوصول إليه أي جهد. كان هذا الكاتب من النوع المهووس بالصحافة والظهور الإعلامي، فبمجرد أن وضعت اسمه على محرك البحث في النت حتى ظهرت مئات الصفحات تتحدث عنه وعن رواياته. وكان فيها من الحوارات ما يعجز الواحد على عدها أو قراءتها لكثرتها. أدركت حينها أن الجلوس معه سيكون مثل الجلوس مع زرافة، لفرط طول عنقها ستحتاج إلى مدّ عنقك إلى أقصاه كلما أردت مخاطبتها، من دون أن أفكر بالطبع كيف كنت لأبدو لشخص ينظر من هذا العلو.

هاتفته أولا على هاتفه، ولاحقا راسلته على إيمايله لأحدد معه موعدا، وفي ظني أنه لن يرد عليّ أو إنه سيردّ بعد أشهر، ولكنني فوجئت بقبوله لقائي، وحدد لي موعدا بالمقهى المحادية لسوق كلوزال مساء يوم خميس. كان الأمر غريبا أن يجالسك كاتب في مثل هذه المقهى التي كانت في نظافتها تشبه مكبّا للقمامة.

جلست وفي ظني أنه مجرد مقلب أوقعني فيه هذا الكاتب. أو مزحة سيئة سرعان ما ستظهر حين يهاتفني على نقالي بعد حين ويسألني أن نلتقي في أي مكان غير هذا. ولكنني ذعرت حين رأيت قبالتي رجلا مكرّشا بذقن غير حليقة ورأس دائرية. كان وقتها جالسا بمفرده يكتب شيئا ما. قدّمت نفسي له وسألته إن كان هو "سمير قسيمي"، فحرّك رأسه بما يفيد الإيجاب. وحين فعل ذلك ابتسم فظهرت في فمه أسنان فاسدة ذكرتني بتلك الشخصيات المخيفة والمضحكة التي استمتعت برؤيتها في أحد أفلام "جوني ديب".. قراصنة الكرايبي. ولولا أنني سبق ورأيت له بعض الصور لما صدقت أن كاتبا في مثل سمعته يمكن أن يكون بهذا الشكل.

لم يدم لقاؤنا إلا ربع ساعة، فيه عرضت عليه أسباب لقائي به وأعطيته مخطوطتيْ "مسائل عالقة" و"المترجم" ليقرأهما. ووعدني أنه سيطلع عليهما في أقرب فرصة.

بعد أزيد من شهرين تواعدنا مجددا في نفس المقهى. قال بمجرد أن وضع دبره على الكرسي:

"سأقول لك أمرا واحدا يا صديقي. لو كان لي أن أكتب هاذين "وأشار إلى مخطوطتيّ مسائل عالقة والمترجم" لما كتبتهما إلا على هذا النحو.".

وابتسم وهو يقلب بعض الصفحات. وكان قد أشّر على بعض فقراتها بلون أخضر.

"ومع ذلك، كنت لأجري بعض التعديلات عليها. مثلا، لم تعجبني المساحة الممنوحة للمحقق في مسائل عالقة، وأجد أن الحوار في الفصل الثاني بين النادل وسيباستيان كان طويلا بعض الشيء.. مقبول ولكن ليس هذا ما كنت لأكتب، ربما لهذا السبب لا أحبّ الروايات الأمريكية، لعدم اعتمادها على السرد كثيرا مفضلة إعطاء الحوارات مساحات كبيرة. أما تدخل الراوي في مناسبات قليلة فقد أعجبني رغم أنه يربك القارئ أحيانا..".

وأخذ يتحدث مطوّلا عن الروايتين وكأن ثمة ما يهمني في حديث كهذا. لكنني لم أستطع أن أقطع عليه كلامه وقد كان واضحا من أنه يجد متعة عظيمة في الحديث عن المخطوطتين وغيرهما من روايات اعترف أنها أذهلته من دون أن أشعر بانبهاره بها. كان يتحدث عن الأدب بشكل مختلف عما اعتدت أن أسمعه من زوجتي. أعترف أن حديثه رغم أنه كان في موضوع لم يهمني يوما، إلا أنه كان ممتعا بنحو مفرط. ربما لأنه كان يملك القدرة على تلخيص ما يقرأ بطريقة توهمك أنك تنظر إلى فيلم أو تصغي إلى عجوز تروي قصة طريفة على أحفادها. والغريب أنني حين سألته عن غاية ما يكتب ابتسم واعتبر سؤالي خفة روح. وحين ألححت قال

لي من دون أن يفكر: "المتعة.. المتعة لا غير". لم يفعل كزوجتي حين ألقت عليّ تلك المحاضرة الرهيبة عن جدوى الأدب، فبالنسبة إليه لم تكن الكتابة إلا تفسيرا فنيا قابلا للتأويل لواقع مملٍّ لا يملك إلا وجها واحدا لا غير.

وعلى عكس ما توقعت، لم تثر المخطوطتان فيه أي شيء غير إعجابه ببعض فنيّاتهما. أما مسألة أن مجنونا كتبهما وتسمَّى بنفس اسمه بالمقلوب أو حتى أنه استعمل اسمه في رواية، لم يبد أنها أمور شغلت باله بأي نحو. الغريب أنه لم يطلب لقاء المريض ولو من باب الفضول. كل ما نصحني به في نهاية لقائنا أن أركز على التفاصيل الأقل أهمية لفهم ما يبتغيه كاتب المخطوطتين. وحين سألته عن معنى هذا، رسم ابتسامة على شفتيه وانصرف.

***

س: وهل بحثت عن تلك التفاصيل؟

ج: أية تفاصيل؟!

س: تلك التي حدثك عنها.

ج: آه.. تلك..لا.. لا. كنت لأفعل لو لم أته في تفاصيل أكثر مما رصدت في مخطوطتيه "مسائل عالقة" و"المترجم". فبعد أن أخبرني الدكتور رزوق أن مريضنا كتب مخطوطة ثالثة وتوقف عن الكتابة بشكل نهائي، لم أعد منشغلا إلا بما كتب في الأخير. يا ألله كم كانت مخطوطته الأخيرة تعجّ بالقصص الغريبة والمتداخلة..

س: لا تقل لي أن آخر ما كتب هو "الكفيف يمكن أن يرى"؟!

ج: صحيح.. كان كذلك، ولا داعي عزيزتي أن تضيفي تعليقا ساخرا على شاكلة "أليس هذا عنوان الجزء الثالث من روايتك ثلاثون؟!". لأنني سأؤكد لك أنها كذلك. كتبها مريضنا المجنون ومع ذلك فهي لي كبقية ما كتب سابقا..

الكفيف يمكن أن يرى

الكتاب الأخير لريماس إيمي ساك

استهلال

- 1 -

سيدتي الكريمة.

أرفق بهذه الرسـالة، آخر ما كتب ريماس إيمي سـاك، وهو كما ترين مكتوب بالفرنسية، وكلي ثقة أنك تملكين من المترجمين من هو قادر على ترجمتها بشـكل جيد إلى العربية. أحسـبك الآن تتسـاءلين عن علاقتي بهذا الكاتب الذي اختصت دار نشركم المحترمة بترجمة جميع أعماله السابقة، وهو أمر مشروع على اعتبار تعاملكم السابق مع وكيله السيد هنري دوكلار ودار نشره الفرنسية.

كل ما يجب أن تعلميه، أنك من الناحية القانونية محمية في نشـر هـذا العمـل والـذي انتهى من كتابته لحظات قليلة قبل أن يفارق الحياة. لك أن تقولي سـيدتي أنني أمنحك السـبق في نشـره، ولكن شـريطة أن تصدريـه بالعربيـة. هكـذا في اعتقادي سـتتحقق آخر أمانـي والدي التي ستكتشـفينها مـع قـراءة روايتـه، لأن هـذه لـم تكن إلا وصيـة أخيرة له، وجدتني مجبرة على تنفيذها. ولأكون أكثر صدقا، هي أيضا أكثر أماني إلحاحا في الوقت الراهن.

أما عن صفتي واسـمي، فهو جميلة بوراس، وأنا ابنة الكاتب ووريثته أيضـا، وقـد منحنـي كل الحقـوق على هذا العمل، وأنا بـدوري أتنازل لكم عـن جميـع حقوقهـا، مقابل أن ينشـر الكتاب بالعربية وأيضـا أن يصدر قبل سـتة أشـهر. هذان هما شـرطاي الوحيدان. أما إذا سـاورك الشك في نسبي أو صفتي، فأنا أنصحك أن تكاتبي مدير دار نشره الفرنسية، لتعرفي الاسم

الحقيقي لوالدي، ثم قومي بالتأكد من صلتي به عبر ما أرفقه مع هذه الرسالة من وثائق رسمية تؤكد هذا النسب.

تحياتي القلبية الصادقة

جميلة بوراس

- 2 -

الفاضلة جميلة بوراس

لا تدركين مدى اندهاشي من رسالتك وما ألحقتِ بها. ولقد تأكدت من علاقتك بكاتبنا ريماس إيمي ساك. وأؤكد لك بعد هذا، أنه لشرف كبير لدار نشرنا أن تنشر العمل الذي أرسلته والذي بسبب ما فيه جعلني أوقن أنه كما قال والدك، أهم ما كتب على الإطلاق. لقد وجدت نفسي أمام سيرة حقيقية لكاتب لطالما اعتبره العالم رمزا أصيلا للغموض. لم يخطئ والدك حين قال إنه كتاب يعرِّيه أمام العالم ويظهره للوجود بوجهه هو، لا بالوجه الذي عرفناه عنه.

ومع أن رغبتي لا تقل عن رغبتك في رؤية آخر أعمال السيّد إيمي ساك منشورة في أسرع وقت، إلا أن ثمة مشكلة وقفت عندها وأكدها لي محرريّ الأدبيين. إننا بصدد مسودّة أولى من العمل. يعني أن كاتبنا لم يُمنح وقتا كافيا لمراجعته وملء فراغاته. وإن كنت قد فكرت بالفعل في تكليف أحد مترجمينا، وهو بالمناسبة روائي شاب مبهور بأبيك تخصص في ترجمة أعماله، فأنا لم أجد لهذه المعضلة حلا لحد الساعة.

مودتي الخالصة

ليليا أنطون

- 3 -

عزيزتي ليليا.

أعذريني أولا على رفع الكلفة في استهلال رسالتي.

كنت مدركة بالمعضلة التي طرحتها في آخر خطاب، ومع شغفي بقراءة الأدب، إلا أنني لا أدعي معرفتي بأساليب التنقيح وإن كنت ممن يضع أصبعه مباشرة على موضع النقص في أي مؤلَف. كل ما يمكنني مساعدتك به، هي يومياتي التي شرعت في كتابتها، بغرض التخلّص مما اعتبرته آثاما حينها، وأراه اليوم محطات في حياتي لا غير. وهي يوميات من شأنها فيما أعتقد أن تملأ بعض الفراغات التي تتحدثين عنها. بالطبع يمكنني أن أخبرك عن كل شيء في حياة أبي أو حتى عائلتنا الكبيرة ولكنني لا أعرف من أين أبدأ. فقط، حين يتشكّل عليك أي موضوع شملته يومياتي أو رواية أبي، فلا بأس أن تسأليني عنه. كل ما يهمني أن ينشر الكتاب في أسرع وقت. لعلك حين تقرئين يومياتي التي سأرفقها بهذه الرسالة، ستفهمين سبب الاستعجال. وكلي ثقة أنك قادرة على إيجاد الحل الأنسب.

محبتي

جميلة

- 4 -

عزيزتي جميلة.

لا بأس أن ترفع كلتانا الكلفة عن الأخرى، فثمة ما يجعلني آسف على عدم معرفتك في وقت سابق. أستطيع أن أؤكد لك خاصة بعد أن قرأت يومياتك مثلما وصفتها، أنك إنسانة رائعة، تتمنى أي واحدة أن تكون صديقتها. ومع هذا لا أجد كلاما مناسبا أستطيع قوله أو كتابته يمكن أن يعبر عن حزني الشديد من أجلك، غير قولي إن قلبي معك. أحيانا نشعر أن في الحياة مظالم لا يمكن تحملها. الطيبون وحدهم من يرحلون بأسرع مما نتمنى. كل ما يعزّيني حبيبتي أن الرحيل المبكر لأحبتنا، قد يعني أن الله يحبهم أكثر منّا. لهذا يسارع إلى رفعهم إليه، ليكونوا أكثر قربا منه.

وبعيدا عن كل هذا، فلا بأس من أن أقول لك إنك بكتابة يومياتك لم تتخلصي مما اعتبرته وزرا فحسب، بل منحت بفضله العالم القدرة على قراءة عملا آخر لا يقل قيمة عن أعمال أبيك، ساهم بشكل كبير في أن يجعله يفهم ويستوعب تلك الحياة التي وصفها والدك في كتابه. حياة معقدة وبسيطة في وقت واحد. وأنت بذلك منحتني الفرصة لنشره مع أنني سأطلب إذنك في أن يكتب المترجم الذي كلفته بترجمة عمل والدك ما يراه مناسبا ويضيفه إلى متن الرواية. سيكون الأمر مناسبا أكثر، لاسيما ونحن نحاول أن ننشر آخر وأهم عمل كتبه أبوك على الإطلاق.

بالمناسبة، أنهى المترجم عمله، وأرغب أن تطلعي على ترجمته، لهذا أرفقتها بالرسالة. كما أنه وضع عنوانا طلب مني أن أحظى بموافقتك عليه، فهو يرى أن تعنون الرواية "الكتاب الأخير لريماس إيمي ساك".

محبتي

ليليا

- 5 -

عزيزتي ليليا

لا تعلمين مقدار سعادتي بالترجمة التي أرسلت، وكم أنا راغبة في سحب قبعتي لهذا المترجم الموهوب، فرجاء أن تبلغيه جميل مودتي وإعجابي بقدرته على ترجمة عمل معقد في وقت لا يمكن وصفه إلا بالقياسي. هذا يعني أنني موافقة على الترجمة ومتحمسة أيضا لقراءة ما قد يضيفه إلى العمل، إلا أنني أرى، وهذا مجرد رأي، ألا يحاول إضافة أي شيء إلى متن كتاب أبي أو حتى اعترافاتي التي أحب أن أسميها يوميات. أعتقد بأن الكتاب سيكون أكثر مصداقية لو حافظنا على النصين بما فيهما، وحاول صديقنا كتابة فصول مكملة لهما. أعتقد بحسب قراءاتي الكثيرة للرواية، أن أفضل ما يستعين به في هذه الحالة، هو الراوي العليم. فمهما يكن، من الأفضل ألا نحاول الزج براو متكلم آخر، فلن يملك بسبب صدق ما كتبته أنا أو كتبه والدي، أي فرصة لشرح التفاصيل التي شملت نصينا الأصليين. بالطبع هذا مجرد رأي قارئة لا أكثر، فباعتقادي أن تجربتك قادرة على الفصل في هذه المسألة.

ملاحظة: بالنسبة للعنوان، أعتقد أنه يصلح للعمل ولكنه بشكل ما يبدو مبتذلا بعض الشيء، أعني أنه مباشر بطريقة لا أعتقد بأن أبي كان سيرضى بها، لهذا أعدت قراءة كتاب والدي، ووجدته قد وصف فيها نفسه بالأعمى، واعتبر أن كتابه يعيد إلى بصره النور. من الرائع أن يوضع عنوان يحمل هذا المعنى. أقترح مثلا "الكفيف يمكن أن يرى". ما رأيك؟

محبتي الخالصة

جميلة

– 6 –

عزيزتي جميلة.

بقـدر مـا أبـدي إعجابي بك وبشـخصيتك القوية، بقدر مـا أنا منبهرة بطريقتـك فـي تفسـير الأمـور. أوافقـك بشـكل مطلق فـي مسـألة أن تكون الفصول التي يكتبها المترجم بأسلوب الراوي العليم. كما أن العنوان الذي وضعتـه كان مـن الروعـة مـا يجعلنـي أختاره من دون تفكيـر. ومع هذا فإن العنوان الذي اقترحه المترجم ملائم رغم أنه مباشـر كما قلت، وبعد تفكير أرى أن مزج العنوانين سيكون أكثر ملاءمة. أفكر أن يكون: الكفيف يمكن أن يرى.. الكتاب الأخير لريماس إيمي ساك. على أن نكتفي بالعنوان الذي اقترحته عنوانا لمؤلَّف أبيك الذي سـيكون كتابا داخليا. إننا بهذا التعاون يا حبيبتي نشهد ميلاد "رواية لا تَتَشَبَّه"، رواية داخل رواية وبداخل هذه رواية أخرى. كم سأكون سعيدة بهذا المولود الذي لفظه رحم القدر، خاصة وأنا أسـتمتع الآن بالفصول السـبعة التي انتهى منها للتو مترجمنا الذي رغم أنه يسـاهم بشـيء لا جـدال فيـه في هذه الروايـة، إلا أنه اشـترط ألا يذكر فيها اسمه. قال لي، وهنا أنقل كلامه بالحرف الواحد: "إن الحواريين رغم أنهم مـن كتبـوا الإنجيـل فـي الحقيقة، إلا أنهم أدركـوا بمجرد انتهائهـم منه، أن كل مـا كتبـوه، لـم يكـن إبداعا خالصا لهم، لقد اقترضت السـماء ألسـنتهم لتقـول بمشـيئتها كلمـة الـرب. أنا أيضـا كلما تقدمت في كتابـة هذا العمل، يتملكنـي شـعور كالتقمـص. أشـعر أن ريماس من يكتب فـي الحقيقة. لقد صرت بطريقة ما لسان روحه، يوحي إلي إلهامه بالكلمات". هذا ما قاله لي بالتفصيل. وأنا وإن أعيد عليك ما سـمعته منه، فلأؤكد لك أن كتاب أبيك بين أيد أمينة، حتى أنني أصبحت لا أسأله عن تقدم العمل، إلا لتلهفي لنشر

الكتاب، ولا علاقة لسؤالي في رغبتي في مراقبته.

بحسب طريقة عمل صديقنا والجهد الذي بذله، يمكنني أن أجزم أنه سينتهي منه قبل المهلة التي منحتني إياها. ففي هذا الوقت لا شيء يشغلني في أمور العمل إلا أن أرى هذا الكتاب وقد رأى النور. أيام فقط يا حبيبتي ويتحقـق حلمـك الـذي بطريقة مـا أصبح حلمنا جميعـا. وبمجرد أن تنتهي الإضافات سأرسل إليك نسخة قبل النشر.

محبتي الصادقة

صديقتك ليليا

القسم الأول

مجرّد جنازة فحسب

الجثـة التـي في النعش جثتي. والرجال التسـعة الذين يحملونه أزواج شـقيقاتي. أمـا تلـك المـرأة المطلـة علينا من شـرفتها فليسـت إلا ابنتي. لا أقصد بالطبع تلك النحيلة المطلة من شـرفة الطابق السـادس، بل الفتاة في آخر طابق، ذات الشعر الأشقر المتموّج والتي تحمل حفيدي نور الدين.

وفـي كل ذلـك يوجد أنا، الرجل الميت منذ سـاعات فحسـب. فعلى عكـس مـا يتصـورون لـم أرحل بعد لينتهي كل شـيء ويضعونـي في حفرة جُهّزت لي بالمناسبة. ومن مكاني هنا، يمكنني أن أجزم بثلاثة أمور لا غير: أولها أن الموت ليس نهاية لأي شيء. ثانيها أنه ليس كذلك لأن الحياة لم تكـن أبـدا بدايـة لأي شـيء. وثالثهـا أن وجودي هنا، لا يعنـي أنني حقيقي بأي نحو كان.

ومـا دام الأمـر كذلـك، لا بـأس أن أقول إن آخر مـا يجدر بي وصفه الآن وضعي الذي صرتُ عليه، إذ لسـت في السـماء لأنني في الحقيقة لم أمت بعد، ولست على الأرض أيضا لأنه لم يسبق لي أن ولدت. وأقصد هنا الولادة التي تعني خروج أحدهم من الرحم، لأن ميلادي ليس في الحقيقة إلا قـرارا اتخذتـه بمفردي. ولطالما تمنيت أن يكون موتي كذلك، ولكن لا يبـدو أنـه سـيحين يوما. على الأقل ليس الآن، وليس فـي هذه الجنازة التي أعدت خصيصا لي من أجل أن أرحل إلى الأبد.

ومـع هـذا، بقدر ما تبدو حياتي ممتعـة لأحكيها، وقد أحكيها لاحقا، فـإن مـا حـدث فـي غيرها كان أهـم. لا أقصد في حياة هـؤلاء الذين انزووا بجانـب العمـارة في الأسـفل يدخنـون ويَذْكرونني بخير رغم لا سـابق لهم بمعرفتـي. ولكننـي أعنـي حياة ابنتـي التي تطل علينا من فـوق. وحتى تلك المرأة السمراء النحيلة.. كيف أدعوها.. نعم أنيسة. حتى تلك المرأة كانت

تملك حياة ممتعة تستحق أن تحكى. ولكن لا يليق بي أن أتمادى وأروي قصتها رغم علاقتي بها. فمهما يكن، لم يعد لذلك أية أهمية من لحظة تسببت في رحيل هؤلاء الذين بجانب العمارة يدخنون ويذكرونني بخير. فقد كانوا أربعة ولعلهم خمسة إذا احتسبنا الفتاة الصغيرة التي تمسك بيد أبيها، ولكنهم سرعان ما أصبحوا ثلاثة حين رن هاتف الأب الطيب وغادر الجماعة مع ابنته. ثم ما لبثوا أن تفرقوا حين أصاب أحدهم شيء سقط من فوق. فبمجرد حدوث هذا رفعوا رؤوسهم ليعرفوا من تسبب في فرقتهم، وبعد لحظة أو لحظتين قرروا أن يتفرقوا من جديد: واحد صعد على متن الشاحنة حيث كان النعش وجثتي، وواحد نظر إلى ساعة يده وصاح "يا جماعة، رحم الله الميت. أما أنا فاعذروني لأن زوجتي ستلد في أية لحظة!". أما الثالث فلا أحد رآه بمن فيهم أنا الذي رأيت ما جعلهم يتفرقون. ولكن لم يعد يهم أن أذكره ما دام أنهم تفرقوا في النهاية.

ر.إ

- 1 -

حين استبطأت جميلة بوراس أباها وقررت أن تقتحم عليه غرفة نومه، لم تكن تتصور أنها ستجده مستلقيا على سريره بعينين مفتوحتين تبحلقان في وجهه وقد عكسته مرايا خزانة الثياب ذات الأبواب الستة. بدا لها أن على وجهه تيبست ملامح دهشة صبيانية شبيهة بتلك التي ارتسمت على وجهه حين كان يلقن أمه الشهادة قبيل وفاتها منذ عشرين سنة.

ففي تلك الليلة الماطرة، ساعات قليلة قبل الفجر، أيقظها النحيب المخنوق الذي كانت عماتها تحاولن حبسه في حناجرهن المبحوحة بسبب أيام من البكاء.

كان الجو باردا وطقطقات النوافذ المتعبة القديمة تقتحم ساعات نومها المضطرب، فمنذ أن أحضرها والدها إلى بيت الجدة لويزة قبل أسبوع وهي بالكاد تنام. لم يكن ثمة من حديث إلا عن القدر والموت والمرض الملعون. وإذا حدث وصمت الجميع، لنفاذ الحكم القائلة بوجوب التسليم بقضاء الله، أو تلك القصص السخيفة عن أناس أصابهم المرض وشفيوا بقدرة الله أو ببركة دعوات الوالدين، كان صراخ جدتها الهادر في رأسها، الصامت في الحقيقة، يوقظها وفي فمها ظمأ لا يطفئه شيء.

كان نحيب عماتها في تلك الليلة أكثر حدة واختناقا. أدركت بمجرد سماعه أن النافذة التي فتحت على حين غرة في مساء ذلك اليوم والجميع جلوس يطوقون الجدة بحزنهم، لم يكن بسبب تهرئها ولا حتى بسبب الريح الشديدة خارجا مثلما زعم أبوها، بل لأن يد القدر امتدت إليها وفتحتها ليدخل السيد "الموت" كما كانت تحب جدتها لويزة أن تسميه، فلطالما كان الموت بالنسبة للعائلة وفي قاموس العمات على وجه الخصوص لا يعني

أكثر من رجل غيور لا بد وأن يستعيد زوجته "الحياة" وإن طال نشازها.

ومع أن جميلة خمنت في ذلك، إلا أنها لم تتيقن حتى بلغت صالة المعيشة، حيث كانت ترقد جدتها على سريرها الخشبي ذي النقوش الهلالية التي حملته بركة من بيتها القديم بالقصبة، نفس السرير الذي كان ينام عليه أبوها وأمها من قبل، فلقد كانت أعز أماني الجدة إلى قلبها هي أن تموت كوالديها على نفس السرير الخشبي ذي النقوش الهلالية. كانت تؤمن، بغرابة وبصدق كذلك، أن الأموات حين يرفعون إلى السماء يتركون أحسن أعمالهم على الأرض، في المكان الذي تقبض فيه أرواحهم، ليُحتسب للذي يرثهم فيه، ومن حسن حظ الجدة أنها كانت وحيدة والديها، ومن سوء حظ جميلة بوراس أن أباها سيقتسم ما تتركه والدته مع شقيقاته التسع، وبالتالي فلن تحصل هي إلا على القليل منه رغم كونها وحيدة والديها.

حين بلغت صالة المعيشة وجدت على بابها صفا من النساء الباكيات. رفعت رأسها وجالت بناظريها فتبين لها أنهن كن ثمانية فحسب.

تقدمت أكثر وحشرت جسدها الضئيل بين أجسادهن الممتلئة حتى فتحت لها شقا سمح لها برؤية اللوحة التي لم تنسها حتى بعد مضي عشرين سنة، ربما لأنها كانت لوحة رسمتها يد القضاء، هذا الذي لم تكن تعرف عنه إلا ما سمعته عن جدتها في أحاديثها الكثيرة عنه، والتي جعلتها تتصوره كرجل قصير ممعن في البدانة، برأس صلعاء ووجه بلا ملامح، وحيثما يكون يرافقه خصيّ أسود فارع الطول، بذراعين مطاطيتين وفم لا يعرف معنى الابتسام، اعتاد أن يناديه السيد "الموت". ربما كان فمه مزموما لأن أكثر ما كان يُسمع عند قدومه هو الصمت، ذلك الذي بدأت تشعر به يسدّ أذنيها الصغيرتين وهي تبحلق في لوحة القضاء تلك، بحيث لم تعد تسمع لا نحيب عماتها ولا حتى تمتمات أبيها وقد أسند رأس أمه إلى فخذه، يهمس لها بشيء لم تكن قادرة على سماعه، ويده اليمنى تمسك بسبابتها، ويسراه تمسحان رأسها المدمى بالحناء والشيب.

ركَّزت تنظر في رأس جدتها السافر، فأدركت كم كان فارغا من

الشعر. كانت تلك أول مرة ترى جدتها من دون عصابة على رأسها.

بجوار أبيها كانت عمتها "حميدة" تلقم جدتها شيئا بملعقة صغيرة وكأنها تطعم طفلا دون السنتين. أرادت أن تبتسم وهي ترى لسان جدتها يخرج، بين الحين والحين، من فمها يلعق ما بشفتيها ويعود بسرعة كفأرة تسترق الطعام، وتهرول عائدة إلى جحرها خشية أن يمسك بها أحد، ولكنها حين همت بالتبسّم أفزعها وجه الجدة كيف نحل وتعظّم حتى تغيرت ملامحها: غارت عيناها المغمضتان منذ أسبوع، واختفت وجنتاها كأنهما نزعتا بمشرط جراحة، حتى عضلات الفكين ذابت كحبة ثلج في يوم قائظ، أما الخدان فاختفيا كأي يوم سعيد. ولكن الذي أفزعها أكثر كان وجه أبيها الجامد كوجه دمية عرض.

فجأة، قطع الصمت شهقة تشاركت فيها العمات التسع، وكأنها حين فتحت الجدة عينيها على حين غرة، صدرت من حنجرة واحدة.

أخذت الجدة تجول بناظريها ليستوقفها وجه الابن بعينيه الدامعتين وشفتيه المرتعشتين بفعل التمتمة والبكاء، أما الارتجاف الذي لاحظته جميلة على يده اليمنى، فلا أحد يدري أكان ارتجافه هو أم ارتعاش أمه المبحلقة فيه.

حينئذ، توقفت "حميدة" عن تلقيمها من إناء العسل الذي حفظ أنفاس أمها لسبعة أيام من دون أن تنبس بكلمة، فقد كان مشهد أمها مفتوحة العينين وقد استفاقت من غيبوبة دامت أسبوعا كاملا، كافيا لينسيها مهمتها المقتصرة على إطعام أمها بأية طريقة.

همست "هجيرة"، العمة الأكثر ضجرا، بما جال في رؤوس شقيقاتها حين شاهدن أمهن تفتح عينيها وتحركهما بعد أن فقدن كل أمل في رؤية مقلتيها من جديد.. "شفيت أمي..". وإذ همست بذلك تحركت وشقيقاتها في وقت واحد، يجرجرن دون أن يشعرن جسد جميلة المحشور بينهن، لتجد هذه نفسها على بعد شبر من لوحة القضاء السوداء. ولكن جميلة، وعلى عكسهن، لم تكن قادرة على الهمس بمثل ما همست به عمتها. لم

تبتسم، على خلافهن، فرحا بعودة الجدة لويزة، فمن موقعها تمكنت أخيرا أن ترى اللوحة بتفاصيلها.. كم كانت قاسية تلك التفاصيل، وهي تحملق في وجه أبيها الذي توقف فجأة عن البكاء والارتعاش. حتى شفتاه توقفتا عن التمتمة. كل ما كان يفعله ساعتها كان البحلقة في وجه أمه. وفجأة سحب فخذه من تحت رأسها ووضعها برفق، بعد أن أطلقت يده يدها، ثم قبل جبينها وهمس بشيء آخر في أذنها ويده تغلق عينيها.

في هذه اللحظة، وفي هذه اللحظة بالذات عادت الأصوات لتملأ صالة المعيشة نحيبا صافيا من دون اختناق، وكأن حناجر العمات تحررت فجأة، حين أدركن أن أمهن لم تفتح عينيها إلا لتسمح لآخر قطرة نور بأن تخرج منها، أو فتحتهما مثلما فكرت "جميلة" حينئذ، لترى أبناءها لآخرة مرة وهي تدرك أنها ستخاطر وتسمح للسيد "الموت" أن ينعكس على مقلتيها.

تراجعت إلى الخلف خطوة ثم تسمَّرت في مكانها. كانت تشعر بأنها أصبحت أثقل من الجثة المستلقية على السرير الخشبي ذي النقوش الهلالية، وساقاها ترتعدان، مترددتان في حملها من جديد. وإذ ذاك شعرت بذراعي أبيها تحملانها وبشفتيه تقبلان فروة رأسها. لم تسمعه يقول أي شيء، أو لعله قال شيئا ولم تذكره. كل ما تذكرته وجهه وقد تيبست ملامح دهشة صبيانية عليه، شبيهة بتلك التي ارتسمت عليه حين وجدته مستلقيا على سريره بعينين مفتوحتين تبحلقان في وجهه وقد انعكست صورته بكل تفاصيله على مرايا خزانة غرفة نومه.

أدركت أنها تنظر إلى نفس لوحة القضاء، تلك التي رأتها قبل عشرين سنة. لكنها هذه المرة رأت اللوحة وهي مكتملة.. السواد نفسه، الصمت نفسه، حتى العينان كانتا نفس العينين المفتوحتين لتسمحا لآخر قطرة نور بالخروج. "ولكن علام فتحهما أبوها هذه المرة، لم يكن ليأمل أن يرى أحدا ليخاطر ويسمح للسيد "الموت" أن ينعكس على مقلتيه؟!". فكرت جميلة وهي تتقدم نحوه بقلب ينبض خارجا. لم تكن قادرة على النحيب مثل عماتها التسع، حتى الصوت هجر حنجرتها ليسمح بالصمت أن يبقى

لمدة أطول من العادة.

هذه المرة لم تتردد ساقاها في حملها إلى حيث كان أبوها مستلق على ظهره. جلست بجواره ورفعت رأسه ووضعتها على فخذها، ثم أمسكت بيده اليمنى ورفعتها إلى السماء، وأخذت تتمتم بشيء وهي غير قادرة على النظر إلى وجهه المتيبس.

كانت غرفة نوم أبيها باردة إلى حد لا يُتصور، ولولا أن يديها كانتا مشغولتين لَلَفّت نفسها بذراعيها أو أغلقت النافذة المشرعة على غير العادة، ولكنهما كانتا مشغولتين، بالرغم من لا جدوى ما كانت تقوم به، فقد رحل أبوها ودخل السيد "الموت" من النافذة. ومع ذلك ظلت على وضعها ساعة وهي تتخيل السيد "الموت" يصرخ عليها حينا ويترجاها حينا آخر أن تدعهما يرحلان، فلا يزال الليل في أوله، وعمل السيد "الموت" لم ينته بعد. هنا تذكرت جدتها لويزة حين سألتها عنه أول مرة..

- .. ولماذا يدخل من النوافذ؟
- لأنها كثيرة عزيزتي، ففي كل بيت نوافذ عدة وباب واحدة.
- ولماذا لا يدخل منها بهدوء مثلما يفعل النسيم؟
- لأن لا شيء يقدر على حمله إلا الريح، ولا شيء يخفي رائحته إلا المطر..
- ولماذا يا جدتي يحمل معه البكم والصمت معا؟
- لئلا يضطر للكلام فيسمعه من لم تكن يد القضاء قد رسمته بعد فيموت..
- ولماذا يحب الليل؟
- حتى لا يراه أحد، فهو أسود.. أكثر سوادا من حبة الفحم..
- وكيف يستطيع أن يأخذ الكثيرين في وقت واحد؟
- لأن لديه يدين طويلتين تتمددان مثلما يشاء..
- ولماذا يجب أن نموت؟
- لنترك مكاننا لآخرين..

- ولماذا يموتون هم أيضا؟
- ليتركوا مكانهم بدورهم..

فجـأة طقطقـت النافـذة، فنظرت صوبها من غير دهشـة أو فزع. كانت عيناها فارغتين كعيني أبيها المتوفى، ولكنهما كانتا تحبسان نورا أكثر، بدليل أنها لم تستطع رغم حملقتها أن ترى السيد "الموت" أو تدرك إنه تمكن من الإفلات منها ليفرّ عبر النافذة وعلى ظهره روح أبيها، ولعلها كانت سـتبقى صامدة في وجه البرد الذي بدأ في قرص جسـدها أكثر، لو لم تشـعر برأس أبيها المسندة إلى فخذها وقد اكتسبت وزنا إضافيا في لحظات.

"وداعا أبي". همست وهي تقبل جبينه وتغلق عينيه..

كانت ترغب في البكاء. شعرت بجفنيها يحترقان، وبشيء في صدرها يمنعها من التنفس، يصعد شيئا فشيئا حتى بلغ رقبتها وتحول إلى يد تخنقها. حاولت التخلص منها، ولكنها كلما قاومت ازداد الخنق وتصلبت اليد أكثر حول عنقها، حتى أغمي عليها.

حيـن اسـتفاقت وجدت نفسـها بجانب أبيها، مسـتلقية علـى ظهرها، تنظـر، مثلمـا كان منـذ حين، إلى المرآة. أعجبهـا أن تكون منه بهذا القرب. حتى أنها شعرت رغم برودة جثة أبيها، بحرارة تنبعث منه. بدا لها في رقدته تلك أكثر سعادة، حتى من تلك اللحظة التي فتح لها الباب قبل خمسة عشر يوما، وهي تعود من مونبولييه لتقضي معه إجازتها كما زعمت.

كان سـعيدا إلـى درجـة أنه لم يلاحظ كل تلـك الحقائب التي حملتها معهـا علـى خـلاف عادتها في الإجازات. عانقها وهـو الذي لم يعانقها منذ كانت طفلة. ثم حمل عنها طفلها نور الدين..

"ادخلي.. هيا يا قطتي". هكذا كان يسميها وهي طفلة. ولم تدر في أي مرحلة توقف عن مناداتها بذلك. ربما حين قررت أن تتزوج رغما عنه.. ربما حين ماتت والدتها، لم تعد تتذكر.

"أدخلـي.. هيـا يـا قطتي، ودعـي حقائبك في مكانها". وهرول نحو صالة المعيشة حيث وضع حفيده.

همس لـه بحنـان مبتسـما: "أما أنـت أيها النمر فابق هنـا، لا تبك ولا تتحرك، حتى أعطي أمك هديتها".

"هدية؟!".. فلت السؤال من فمها وهي تشيع أباها إلى غرفة نومه، ليخرج منها في لحظات.

- فعلتُها حبيبتي.. فعلتُها.

صاح وهو يرفع بيده كومة من الأوراق في الهواء.

- فعلتَها؟!

- نعم فعلتها.. قتلت النذل.. أقصد قريبا سـيموت، كنت محقة منذ البدايـة، ليتنـي اسـتمعت إليك في وقتها، ولكـن لم يعد الأمر مهما الآن، ما دمـت قـد فعلتهـا، سـيموت قريبا ونعود أنا وأنت كما كنا دائما. سـترين كم سنضحك حين أنتهي ويعود ذلك القذِر من حيث أتى.. آه يا حبيبتي لم أكن أعلم كم هو ممتع قتله والبصق على جثته النتنة..

لـم تفهم شـيئا، ولكن الحديث عن القتـل والجثث أفزعها، حتى إنها فكرت وهي ترى هلوسة أبيها أنه جن من الوحدة غالبا.

"يـا ألله، كـم أنـت مسـكين يا أبـي". فكرت وعانقته علـى حين غرة. ولكنه، على خلاف ما اعتقدت، لم يهدأ واستمر يتحدث عن القتل والبعث والحيـاة. لـم تكـن قـادرة على اسـتيعاب هلوسـته لوحدها، فمـا بالها وقد امتزجت بصراخ ابنها في صالة المعيشـة. حينئذ، شـعرت بضرورة أن تفعل شيئا، وبالفعل صرخت، فتوقف أبوها عن الكلام ومسخت صرخات طفلها إلى ضحك لم تفهم سببه.

حينها أدرك والدها حيرتها، فأضاف إلى صمته ابتسامة طمأنتها ونظرة لم ترها في حياتها على وجهه أبدا.

قال حين رآها قد استعادت هدوءها:

- بالطبع لم تفهمي شيئا يا قطتي. ولكن حبيبتي من فضلك اجلسي لحظة فالخبر يحتاج أن تركزي معي.

- خبر؟!

- أقصد هديتي إليك.
- هدية أم خبر؟.. آه يا أبي ما زلت تهذي، أقسم أنها هلوسة.
- اجلسي وحسب.. أرجوك حبيبتي. عشرة أيام وأنا أنتظر هذه اللحظة. لن تعلمي أبدا أي شيء صنعته في العشرة أيام السابقة.

جلست حيث كانت واقفة على الأرض. كان منظرها غريبا أن تجلس هكذا والشقة كلها أثاث فاخر وكراس في كل مكان، ولكنها جلست من دون أن تلاحظ أن أباها غير أثاث صالة المعيشة والمطبخ. وإذ ذاك أعطاها الأوراق التي كان يحملها بيده.

لم يعلق ولم تعلق بدورها، كل ما فعلته أنها نظرت إليها وأخذت تقرأ من البداية. كانت كلها مكتوبة بالفرنسية، ومن دون أن تشعر قرأت بصوت مسموع:

L'aveugle peut voir[1]

Par: Rimas Imissak

(1) الترجمة: الكفيف يمكن أن يرى- بقلم ريماس إيمي ساك

- 2 -

وعلى الرغم من أنها أحبت أن تبقى مستلقية بجواره، إلا أن جميلة لم تعد قادرة على احتمال البرد أكثر.

"أي ريـح كانـت قـادرة علـى فتحك أيتها اللعينـة؟!". فكرت وهي تغلق النافذة. ومن دون أن ترغب، أخذت تنظر عبرها لعلها ترى ظل السيد "الموت" أو حتى قفاه. ولكنها حين أغلقتها وسمعت أنفاسها أدركت أنه رحل من غير رجعة. فحين تعود الأصوات لتُسـمع، فلا بد أن يكون السـيد "الموت" قد رحل، هكذا كانت تقول جدتها، وهكذا قالت هي لنفسها.

في ذلك الوقت، كان الليل قد ابتسم لتوه، فكان بظلمته الجديدة فاتح السـواد كخلاسـي لـم يعلم بعـد إلـى أي العالمين ينتمي. ولعلـه في لحظة المغيـب وحدهـا، لحظة الشـك تلك، فكر أن يحتلك أكثـر، ولكنه لم يكن موقنـا حتـى خرجـت آخـر قطرة نـور من عيني ذلـك الرجـل المتمدد على سـريره، وقـد تناثـرت بالقرب من قدميـه أوراقه القاتلة، أو هكذا فكر في أن تكون من أول يوم شرع في كتابتها.

شعرت جميلة بوراس وهي تقف مجددا أمامه بأن عليها تمجيد ذكراه وتقرأ الخاتمة التي من أجل كتابتها حبس نفسه في غرفته مساء ذلك اليوم.

قال لها بعد أن تناولا الغذاء معا:

- اليوم سأنتهي من الكتاب.

وتنهد وكأنه لم يكن راضيا على نفسه.

- أهو الحزن على فراق ريماس؟!.

سألته، معلقة على تنهيدته تلك.

- بل هو الخوف من الخطأ..

- أي خطأ تقصد؟!.

سألته مجددا وهي ترى على وجهه كآبة لم تفهمها.

لم يجبها واكتفى بالقيام من مكانه.

قال لها من دون أن يلتفت:

- سأكون في غرفتي، لا تزعجيني لأي سبب. ربما سأنتهي مع المغيب.

ومن دون أن يسمح لها بأي تعليق أضاف:

- من فضلك أحضري لي المخطوطة، فقد أحتاج لقراءتها من جديد.

فكرت حينئذ بأن المساء سيكون طويلا، وبأن عليها أن تصارحه بسبب قدومها لزيارته هذه المرة، فمنذ خمس عشرة يوما وهي تحاول أن تجد طريقة لتخبره. لكنها لم تكن تجرؤ لأن كل وقتهما معا كان يقضيانه في الحديث عن الماضي وعن روايته التي وعدها أنها ستنتهي قبيل رحيلها.

كان أبوها مستمتعا، بجنون وصبيانية، بكتابه الأخير. حتى هذا الوصف لم يعد يعجبه. كان يقول لها كلما تحدث عن روايته أنها كتابه الأول، كتابه الذي لم يكتبه من قبل، ذاك الذي سيبعثه من جديد ويطيح بقناعه الذي التصق بجلد وجهه. لم يكن ثمة من حديث بينهما أهم من حديثهما عن روايته، باستثناء حديثه عن أمه، جدتها لويزة.

هي أيضا كانت مستمتعة مثله، حتى إنها حين بدأت تقرأ فصل كتابه الأول "اليوم العاشر قبل العدّ" بدا يسري فيها إحساس شهواني رهيب بالانتصار. ألم تكن هي من حثته على قتل ريماس، هذا الذي أجبرها أبوها أن يكون أباها؟!.

توقعت بعيد دخوله إلى غرفته أن يخرج منها بعد ساعة أو ساعتين، فبحسب ما قرأته لحد الآن من مخطوطة أبيها، لم يعد يفصله شيئا عن تنفيذ حكم الإعدام. لقد أصدر الحكم، ومنح "ريماسه" حق الطعن ولم يفلح، وانتظر كل ما يجب انتظاره ليصدر أيّ عفو يمنحه الحق في الحياة ولكن العفو لم يصدر، وجهّز ساحة الإعدام وتأكد من جاهزية المقصلة ودعا

الشـهود لحضور الإعدام. حتى السـيد "الموت" كوى له بدلته ويسَّـر عليه أسـباب القدوم، فلم يكن يحتاج حتى لركوب الريح ليدخل عنوة ويسـرق آخـر قطـرة نـور مـن عيني ريماس، كل مـا يحتاجه أن يكـون حاضرا لحظة الإعدام ليقطف روحه.

ولكنها انتظرت عبثا، وأخذت سـاعات المسـاء تجرّ بعضها، حتى دنا الليـل وجلـس على عتبة شـقة أبيها، تلك التـي اختارها في آخر طابق ليرى الأشياء من شرفاتها كما يحب أن يراها دائما: صغيرة وتافهة.

أسرفت في الانتظار. كانت تدرك ذلك وفي رأسها لا تزال حياة أبيها، حتى تلك اللحظة، أكبر دليل على جدوى الانتظار. ألم يحتج والدها، وهو من هو، إلى كل تلك السـنين من الانتظار ليدرك حقيقته؟.. ألم يحتج إلى كل ذلـك الزمـن ليعرف من يكون، ليعترف لنفسـه، ولنفسـه فقط، أنه أخطأ المسير لأكثر من أربع وثلاثين سنة؟. حتى هي لم يبلغ عمرها كل هذا القدر من الزمن، وكل الوقت الذي اضطرت لانتظاره لم يكن أكثر من "إبسلونٍ" مقارنة بأبيها.

ومع ذلك اسـتعظمت زمن انتظار خروجه من غرفته. وكأن السـاعات القليلـة التـي قضتها جالسـة مع صبيها نور الدين، تلقمـه ثديها، تلعب معه، ترقده، توالدت كخلايا سرطانية شرهة حتى ابتلعت مفهومها للوقت، ليتمدد الزمـن إلـى ما لانهاية، حتى إذا بلـغ التمدد مداه توقف عن الحركة، وتدفق في لحظة صفرية لا "قبل" فيها ولا "بعد".

فـي تلـك اللحظـة بالذات، كان يمكنها أن ترى كل شـيء من دون أن ترى شيئا. كان يمكنها أن تشعر بالارتخاء، لولا أن خط الزمن المتمدد إلى أقصـاه تقـوس مـن جديـد، كالكون لحظة الانتهـاء، ليعود أدراجـه ويعيدها إلـى حاضرهـا المتعـب بالانتظـار، وبسـرعة أكبر إلى ماضيها المسـرف في الأسـئلة.. أسـئلة تمكنت أخيرا من أن تعرف أجوبتها وهي تقرأ كتاب أبيها الأول والأخير، هذا الذي حبس نفسه في غرفته لينهيه.

الآن صـارت تملـك سـؤالا جديـدا: "كيف يمكن أن أخبـره؟". حتى

كتـاب أبيهـا الـذي أجـاب عن كل شـيء، لم يسـتطع أن يوحي لهـا بطريقة موجزة أو مفصلة لإخباره، وكانت كلما نظرت إلى ابنها نور الدين يستعصي الجـواب عليهـا أكثـر فأكثر، وهي تـدرك أن لا طريقة، يمكـن التفكير فيها، تجعل مسألة إخباره أمرا سهلا، تماما حين أخبرته بقرارها الزواج من قريبها أحمد.

كان قرارا غريبا حتى بالنسبة إليه، وهو المعروف بسلوكه الغريب غير المتوقع.

"إنـك سـتتزوجين مـن أحمـق، أتدركيـن ذلك؟!". زعـق فيها وهو يحسب أنه نعته بأسوأ ما فيه، إلا أنه لم يفعل أكثر من وصفه بأجمل ما فيه من مساوئ، ولم يكن حمقه في الحقيقة إلا حسنة أدركتها جميلة وجعلتها تصر على الزواج منه.

قالـت لـه بإصرار حين هدّدها بالتبرؤ منها: "افعل ما تشـاء، سـأتزوج منـه حتـى وإن اضطـررت إلى طلب إذن القاضـي والتخلص من ولايتك". بالطبـع كانـت تـدرك أنها حين نطقت بهذا أنها شـطرت قلبه وجازفت بحبه إلى الأبد، لكنها كانت تعلم أيضا أنها لو لم تفعل، لأجبرت على الارتكان لرفض أبيها. وفي تلك المرحلة من حياتها، كان إرضاء أبيها في هذه النقطة لا يعني بالنسبة إليها إلا النهاية.

أكان حبّا ما دفعها إلى تحدي الجميع من أجل ذلك البائس المعتاش مـن صدقـات الحكومـة كمـا يحلـو لأبيهـا أن يصفـه. حتى "حميـدة" أكثر عماتها رومانسـية ما كانت لتصدق ذلك. أما أبوها فلم يكن يرى فيها وهو يحاول إقناعها بالعدول عن رأيها إلا جسما واهنا تحركه قوى غريبة تدفعه للرضـوخ. كان موقنـا بـأن ابنته لم تعد ابنته. هكذا قال لشـقيقته كريمة وهو يشرح لها سبب رفضه لفكرة زواج جميلة:

- يا إلهي.. أتصدقين هذا الهراء. الفتاة التي لا يرضيها شيء ترضى بهـذا المسـخ: بطـال، أخـرق، غبـي.. أي زواج هـذا الذي يجمـع بين لبؤة وجرذ؟.. سـتقولين إنه الحب. صدقيني أنا أعرف الناس بالحب، وأسـتطيع

أن أؤكد لك أنه ليس كذلك..

صحيح.. كان أعرف الناس بالحبّ. ولعله جرّب جميع أصنافه، حتى غدت حياته برمتها ترجمة صريحة للحب. يكفيه فقط أنه بسببه رضيَ بأن يتسّمى "زوج العاهرة".

لكنه في النهاية غفر لها وأقر زواجها من دون أن يعترف بأحمد صهرا له.

كان أحمد بوراس واحدا من أقربائه بشكل ما، فقد كانت أمه ابنة خالة أمه، وأبوه من أصهار زوجته.

أول يوم رأى فيه جميلة كان في عرس عمتها "هجيرة" قبل عشر سنوات. كان عرسا بهيجا، لا لشيء إلا لأن زواج هجيرة كان معجزة بحد ذاته، فقد كانت في الخمسين من العمر، عذراء عانس، مضجرة إلى أقصى الملل. وكانت على خلاف شقيقاتها الثماني ساذجة وبلهاء إلى حد ما، ورثت من أبيها شعره الشائك وبشرته السمراء المائلة إلى السواد وأنفه المفلطح العريض، ومن أمها لويزة قصر القامة والنهدين الذابلين، وإيمانها بالسحر والخرافات. وأضافت إليها الطبيعة شيئا لم يكن من حظ الوالدين، حيث ولدت برجل أطول من الأخرى، حتى غدت وهي تسير وكأنها تنزل.

لم يكن زواجها إلا معجزة، حتى أنه حين قصده من سيصبح زوجها ليخطبها، لم يصدقه وظن أنه يسخر منه، فكان جوابه بصقة تفلها على وجهه ووابلا من الشتائم من كل نوع.، ليفاجأ به بعد أسبوعين على حادثة البصق ، يعيد طلب يدها وبرفقته امرأة قدمها على أنها أخته.

لم يضيّع الفرصة وسرّع في إجراءات الزواج. في البداية أخبر خطيب شقيقته أن بإمكانه أخذ عروسه من دون عرس، ولكن شقيقاتها اعترضن..

- لماذا لا يأخذها من غير عقد أيضا.. حتى الكلبة يشيّعها نباح شقيقاتها حين ترحل عنهن.

اعترضت "كريمة" أصغر شقيقاته وأكثرهن لؤما على الإطلاق، فمنذ أن كانت صبية والجميع متفق على أنها نسخة عن عمتها يامنة، تلك المرأة

الستوت، صاحبة الوجه الأسود المربع، أكثر أعداء أمه خطرا مثلما كانت تدعي. ولكنه ومع مرور الزمن اكتشف أنها لم تكن نسخة مطابقة ليامنة كما تصورت والدته. لقد كانت أكثر قسوة بسبب حظها العاثر في الإنجاب.

هكذا تقرر أن يقام لهجيرة عرسا لم تشهد له العائلة مثيلا. تكفلت حميدة بدعوة الجميع بمن فيهم أحمد ووالديه، رغم ألا أحد يعلم على وجه اليقين كيف اهتدت إليهم.

هناك رأى أحمد زوجته أول مرة، ولكنها، على عكسه، لم تكن مهتمة به على الإطلاق. حتى إنها لو سئلت الآن لأجابت من دون أن تردّد بأنها لم تلمحه حتى خيالا. بيد أن الصدف جعلت يامنة تلاحظ نظرات أحمد إلى حفيدة شقيقها المتوفى. لم تحتج إلى الكثير من الحدس لتوقن أنه مهتم بها بشغف زائد عن اللزوم.

انتهى العرس وانصرف الجميع، وكعادة أحمد ووالديه كلما حلّوا بالعاصمة، يقيمون عند يامنة بمنزلها في وادي شايح، وإلى هناك انصرفوا.

كان بيتها واحدا من ثلاثة بيوت تشترك في "حوش" عربي، بناه "خماسو" الكولون العاملون وقتئذ في بساتين الكروم الضخمة بأعالي لاغلاسيار، في المكان المسمى اليوم باش جراح، إلا أن بيتها بالذات كان ملكا لبناء قبائلي كان يعمل في "ميزون كاري" [1] بناه بيديه من الطين والقصب، بحيث كان أول بيت يبنى في ذلك الحوش، الواقع على مرتفع ترابي من الصعب ارتقاؤه في الأيام الماطرة، والذي شكل لاحقا حدودا طبيعية بين وادي شايح القديمة وامتدادها غير الشرعي المسمى اليوم "الكريار".

في بيتها البدائي ذاك، المشكل من غرفتين بأرضية إسمنتية وسقف من القرميد وجدران مطلية بالجير، بدأت يامنة تحضر لمشروع زواج جميلة من أحمد.

---

(1) حاليا تسمى الحراش

كان الليل قد انتصف، حين استيقظ الحي على مواء قطط يشبه الصراخ، حتى أن يحيى زوج يامنة همّ بالخروج لولا أنه تذكر فجأة موت ساقيه بسبب شلل أصابه منذ سنة، ومع ذلك كان ليجر نفسه ويزحف على بطنه، فقط ليرى أي هول في الخارج، إلا أن صوت والد أحمد سرعان ما طمأنه ليتراجع عن قراره:

- لا بأس عليك يا حاج، ليست إلا قططا هائجة تموء وتصمت..

وعلى خلاف يحيى، اقتفى بعض صبية وادي شايح أثر المواء وكانوا كلما ساروا في اتجاهه لمحوا بقية من دماء. اجتهدوا في اقتفاء بقع الدم حتى إذا بلغوا نهاية المنحدر المحاذي للمسجد، والرابط باش جراح بحيهم، أدركوا أن بقع الدم مستمرة على السلم المؤدي إلى بومعزة، الحي المشهور بالمنازل البيضاء ذات القبب، المرصوصة جنبا إلى جنب، والتي لم تكن في الأصل إلا مستودعات خضر، اضطر الناس إلى إعمارها.

لم يشأ أحد من الصبية أن يغامر في صعود السلم، فلا أحد كان يعلم أي شيء تخفيه ظلمته وبيوت الصفيح المنتشرة على جانبيه.

في الصباح، علم الجميع أن قططا سوداء انتشرت في بومعزة، وملأت الحي مواء وصراخا حتى خرج الناس إليها، ليدهشهم سبب صراخها.. ذعروا عند رؤيتهم لقطط بترت أذنابها.

- 3 -

ولئـن رغبـت في قـراءة خاتمة رواية أبيها، إلا أن رغبة جميلة لم تكن ملحة. أغلب الظن أن أباها قتل فيها ريماس إيمي ساك وتخلص من وطأته. كل مـا فعلتـه أنهـا جمعـت الأوراق المتناثـرة علـى الأرض أسـفل سـريره وأعادت ترتيبها بحسب الترقيم الذي كان والدها حريصا عليه. ثم وضعت المخطوطة بجانب رأسه وهي لا تكف عن البحلقة في وجهه.

لم يعد ثمة من شيء تفعله هنا. ستهاتف عماتها التسع واحدة واحدة وتعلمهن بالخبر المفجع، وسـتنتظر عشـرين دقيقة حتى تصل عمتها كريمة المقيمة في بومرداس، وساعة أخرى لتصل عماتها: وهيبة وفاطمة وهجيرة المقيمات في العاصمة، وسـاعة ثانية لتصل حميدة المسـتقرة في شرشـال. أمـا الأخريـات فقـد يصلـن مع بزوغ الفجر أو بعده بقليـل. الأكيد مع بزوغ الفجر ستكون العمات التسع معها هنا في الغرفة يطوقن جثة أبيها ببكائهن ونحيبهن، وبذلك سيمنحنها بعض العزاء في عدم قدرتها على البكاء أو على الحزن اللائق بفتاة تفقد والدها.

كانـت مشـاعر الحـزن في داخلهـا غير واضحة كما يجـب أن تكون. شـعرت أنها في حالة إسـتيتيكية لا يمكن تشـبيهها إلا بالصدمة، ومع ذلك كانـت ترغـب فـي البكاء أو على الأقل في حزن شـبيه بحـزن اليتامى الذين يفقدون أولياءهم. لكنها لم تسـتطع، ببسـاطة لأنها كانت سعيدة، بشكل ما، بموت أبيها.

الآن لـم تعـد مضطـرة لإخبـاره بأي شـيء. لـم تعد خائفـة من لحظة الوقوف أمامه والنطق بتلك الكلمات التي ستفجعه، والتي ستضطرها لقبول نظرات الإشفاق التي سترتسم على محياه.

"أحبك أبي.. أحبك أكثر وأنت ميت"..

هاتفت عماتها، واستمعت إلى ما يجب أن يسمعه صاحب أي خبر سيّء. تمددت مع ابنها نور الدين في صالة المعيشة، حيث كان يغط في نومه وعلى بعد أشبار تتكوم حقائبها السبع التي لم تفتح إلا واحدة منها منذ قدومها قبل خمس عشر يوما. حتى أبوها لم يلاحظ أنها هذه المرة لم ترتب ثيابها في الغرفة التي يفترض أن تكون غرفتها، فلم يكن يشغله إلا كتابه الأول.. كتابه الأخير.

داعبت وجه ابنها الممدد على ظهره فوق حجرها، وهي تراقب أنفاسه الهادئة وجسده الضئيل، ومن دون أن تشعر أخذت تغني له:

"باري يا بَرْباري

يا رقَّاد لَدْراري

رقَّد لي نور الدين

يكبر يتهنَّالي..

أُولا دودو

أولا نونو.."

كانت تغني ليغطّ في النوم أكثر، لئلا يستفيق ويبدأ كعادته في البحث عن جده، فلطالما شعرت أن ما يربطهما معا كان أكثر روحانيةٍ من أيّة علاقة تجمع جدّا بحفيده. ألم يكن هو من اختار له اسمه "نور الدين"؟.

لم تشأ وقتها أن تسأله عن سبب اختياره لهذا الاسم، لأنها كانت تشتبه في أن لذلك علاقة ما بأمه، جدتها لويزة، وفي ذلك لم تكن مخطئة على الإطلاق.. فقبيل ميلاد حميدة أكبر عماتها، ولد للجدة لويزة ابنا أسمته نور الدين. كان كولدها تماما: أسود الشعر، أسمر البشرة بعينين عسليتين تشعان نورا.

وبميلاده تحققت نبوءة عرّاب الجدة، الولي الصالح، حين تنبأ

بميلادهـا أيضـا وقـرّر اسـمها قبل أن تولد: "سـتكبرين حبيبتـي، وتتزوجين صائد موت، أرضه بوار، ثم تتزوجين سواه ويعتمر رحمك أكثر من سواك، أولهم ذكر وآخرهم ظل".

هكذا كان يقول لها وهي في العاشرة، فتسرع إلى أمها لتخبرها فتبتسم، وتخبر أباها، فيقول لها "هذا رجل كله خير، كنتِ أنت أوّل خيره"، إلا أنهما لم يشرحا لها أبدا نبوءته تلك، حتى تزوجت في السادسة عشر، لتترمَّل بعد زواجهـا بسـنتين، بعـد أن قتل زوجها في عـراك مع إخوته على أرض جبلية تافهة، لتتزوج لاحقا وتنجب ابنها نور الردين، والذي مات في اليوم نفسـه الذي ولدت فيه حميدة.

لـم يعلم أحد سـبب وفاته، ففي تلـك الأيام لم يكن الموت المفاجئ للأطفـال يبعـث أي سـؤال يسـتحق الإجابـة، حتـى ذلـك المـوت المقترن بحـوادث لا علاقـة لهـا بالحيـاة العادية جـدا. ومع ذلـك كان للجدة لويزة تفسـير لموت ابنها. كانت وهي تبكي فلذة كبدها تصرخ "فعلتها السـتوت.. فعلتها يامنة".

لـم تشـرح لأحـد كيف توصلت إلـى فضح علاقة يامنة بمـوت ابنها، ولكن زوجها كان يدرك أنه استنتاج لا يمكن دحضه، بدليل أنه لم يجادلها أبدا حين طلبت منه الرحيل إلى العاصمة لتكون في مأمن من تلك الستوت.

في الحقيقة، حدث في تلك الليلة، ليلة الميلاد والموت، وبالضبط في لحظة انشغال الجميع بمخاض الجدة لويزة، أن رأى أخته يامنة تنتف شعرة من رأس نور الدين. سـحبتها وقرأت عليها شـيئا، ثم أخذت بيضة مسـلوقة وشطرتها بالشعرة إلى نصفين، أكلت نصفها وألقت بالنصف الآخر.

لم يهتم ساعتها، ولكنه حين تأكد من موت ابنه في اللحظة ذاتها التي ولـدت فيهـا حميـدة، وصَدَت في أذنيـه صرخة زوجته " فعلتها السـتوت.. فعلتها يامنة"، لم يعد يرغب في المزيد من المخاطرة.

ومنـذ ذلـك اليوم، لم تتقابل المرأتان أبـدا. حظرت الجدة لويزة بيتها علـى يامنـة، وحرّمـت العمة على نفسـها دخول بيت شـقيقها، اللهم إلا إذا

طلق زوجته أو ماتت لأي سبب، حتى حين مات شقيقها رفضت أن تعزي "لوستها"[1] وانتظرت حتى حمل نعشه إلى مقبرة العاليا حيث دفن، وهناك فقط تمكنت من رؤيته لآخر مرة.

لم تكن جميلة على علم بكل هذا، حتى عماتها التسع لم يكن على علم إلا بميلاد شقيق أكبر توفي في سنته الأولى، أما بقية التفاصيل فلم تخص الجدة لويزة بها إلا ابنها الوحيد، هذا الذي تنبأ بميلاده الولي الصالح ووصفه بالظل.

حدث مرة أن سأل أمه حين أعادت عليه قصة ميلاد وموت شقيقه الأكبر:

- لماذا وصفني الولي بالظل؟
- لا أدري، ربما لأن القضاء لم يكشف له وجهك حينئذ أو لأنه منعه من الإفصاح أكثر..
- أو ربما سيتضح الأمر مع الأيام.
- ربما، ولكنه كان صادقا في كل شيء، لم أنجب من الذكور إلا اثنين هما بداية ونهاية خصوبتي.
- ألهذا تمنعينني من زيارة العمة وتسمحين للبنات؟
- عمة؟!.. أعماك الله، هذه ساحرة ستوت، إياك أن تفكر حتى في رؤيتها..

أضافت وهي تربت على صدره:

- لا خطر عليهن منها، كل الخطر عليك أنت. هن سيذهبن إلى أزواجهن يتخذن أسماءهم، أما أنت فسترث اسم أبيك لتنقله إلى ذريتك. سنستمر أنا وأبوك نسري في دمائك ودماء عيالك حتى آخر الدهر ما دمت ستنجب الذكر.

وإذ ذاك، فحصها بنظرة ماكرة وعلّق مبتسما:

(1) لوسة: شقيقة الزوج.

- هذا إذا أنجبت ذكرا..

قاطعته بغضب:

- ستنجبه غصبا عنك، ستنجب الكثير من الذكور، فقط دعني حين يحين الوقت أختار لك المرأة المناسبة.. لست ولية صالحة، ولكنني مرابطة بنت مرابط[1].. أقول لك ستنجب وتسمي أول أبنائك نور الدين. كل ما آمل هو أن يحدث هذا في حياة تلك الشمطاء الستوت..

بالطبع لم تكن أمه ولية صالحة، فلم ينجب إلا جميلة، ولم تكن هذه على نحو أكيد ذكرا.. ربما لأن الجدة لويزة لم تكن هي في النهاية من اختار زوجة ابنها. على عكس العمة يامنة حين قررت أن تلعب دور الخاطبة، وتزوج أحمد من جميلة.

فبقدر ما بدا الأمر مستحيلا لأي كائن يفهم في المنطق، فقد كانت مسألة تزويج الاثنين مفروغا منها في ذهن يامنة، وهي تدرك أية فرصة منحتها لها الصدف لتطعن لويزة وإن كانت في قبرها. لن تنسى لها فجيعتها من حرمانها من رؤية أخيها وهو يحتضر، ولن تنسى لها كيف جعلتها منبوذة كل تلك السنين، وحتى وإن ماتت ونخر الدود عظامها، فلم يكن ثمة من شيء يسعدها أكثر من طعنة أخرى تحرق روحها في السماء.

همست لأحمد قبيل عودته وأبويه إلى مونبلييه:

- أصبحت رجلا الآن. ما شاء الله، لم يعد ينقصنا إلا أن نفرح بك ونرى أولادك.

قالت ذلك وقد عدلت فمها ليُبقي على ابتسامتها وهي تظن أنها تبعث فيه طمأنينة من نوع ما.

قاطعها أبوه ضاحكا:

- رجل؟!.. هذا آخر ما يوصف به هذا العاطل. في الثلاثين ولا يزال يشحذ مني، ولولا هذه..

---

(1) في العرف الجزائري، العائلة المرابطة هي العائلة المحافظة ذات الأصول الدينية.

وأشـار إلـى عجـوز سـمراء ممعنة فـي النحـول، ترتدي جبّـة نايلية[1] مطرزة، بوجه موشّم الجبهة والذقن.

- .. لولا هذه، لأعدته إلى سيدي عيسى يرعى فيها أو يشحذ اللقمة من غيري.

لم تعلق العجوز ولا أحمد الذي كان كمن يصغي إلى كلام لا يعنيه.

- لا تقـل هـذا يـا حاج. كل ما في الأمر أنه يحتاج إلى سـبب يدفعه ليكون مسؤولا، والرأي عندي أن تزوجه في الحال.

قالت يامنة. ومن غير أن تسمح لوالد أحمد بأي تعليق أضافت:

- لـو أردت مشـورتي، فليـس أفضل له من حفيـدة أخي جميلة. فتاة جميلـة، متعلمـة وأخلاقهـا.. يـا لأخلاقهـا، وكأنهـا أخي بلقاسـم من دون إضافات..

لم يحتج الأمر لنصف ساعة ليقتنع والد العريس، أما أحمد فلم يبد أنه كان محتاجا لأي إقناع، فبمجرد أن ذكرت يامنة حفيدة أخيها، حتى اعتلت وجهه ابتسامة رضا لا تراها، عادة، إلا على وجه رجل مؤمن بحقّ، أو على محيا مدمن حشيش دخن للتوّ سيجارته الثالثة.

- ولكن أترضى به؟

تساءل والد أحمد.

- سترضى.

أجابت يامنة من دون أن يظهر عليها أي تردد. ففي تلك اللحظة كان يغمرها شعور لذيذ بالتورط، تماما كالذي اعتراها حين نقل إليها أحمد بعد سـنين خبـر قبـول جميلـة به رغم أنها رفضته من قبـل. ولئن لم تتأكد حينئذ حقيقة من تورطها، فقد كانت مسـتعدة أن تصدق نفسـها. ألم تكن هي من طرح الفكرة على أحمد ووالديه؟، ثم أليست من سخّرت كل مواهبها بهدف تحقيق مرادها. صحيح أنها لبعض الوقت شككت في نفسها، وهي تعيد في

(1) نايلية: نسبة إلى أولاد نايل.

رأسها "وصفة المحبة الخرقاء" تلك التي استعملتها لتحقق مأربها، لتدرك في كل مرة أنها لم تخطئ في أيٍّ من مكوناتها. كانت متأكدة من أن كل شيء كان في مكانه، وكل مكوّن وُضع بحسب الطريقة التي تعلمتها، ومزجتها جميعا في الوقت المناسب، بالضبط في الساعة التي من شأنها أن تستجيب الأرواح لرغباتها، وتُسرِّب تفصيلة تافهة إلى كتاب القدر، لن يتم اكتشافها إلا بعد فوات الأوان.

شكّكت في نفسها حين علمت برفض جميلة لفكرة الزواج من أحمد حين سألها أول مرة. لم يكن الرفض مسألة مطروحة بالنسبة إليها، فقد كان على جميلة أن تقبل، لأن لا خيار لها مع كل الجهد الذي بذلته ليتم القبول بشكل أعمى.

لأعوامٍ شكّكت في علمها، ولليال طويلة أرِقت وهي تفكر في الخطأ الذي يمكن أن تكون قد اقترفته. بدأت كالمعتاد بالنظر إلى برج جميلة. لا شك أنه برج العقرب، برج مائي لا يصلح فيه السحر إلا إذا كان سائلا يشرب، هكذا صنعت من مزيجها عصيرا، أضافت إليه بخبرتها ما يلزم ليخفي الطعم والرائحة، وحتى تشربه جميلة وهي تعتقد أنها تشرب عصيرا من نوع ما.

لا يوجد أي احتمال للخطأ في هذه المسألة. وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يتعلق الخطأ بمكونات عصيرها. "طيب"، فكرت، "للوصفة ثلاث طرق لا غير، اخترتُ أكثرها نجاعة. بالطبع كان الأمر ليكون أيسر لو تمكنت من الحصول على بعض ماء فرجها، أو حتى بعض زغب عُنّتها، ولكن أنىّ كان لي لأحصل على هذين، لهذا اخترت الطريقة الثالثة: صورة حديثة وسبع أذناب قطط سوداء إناث، وملعقة أكلت بها وحبة بيض فاسدة. الوصفة بسيطة في مكوّناتها ولا مجال للخطأ فيها.. أأكون أخطأت في التوقيت؟!.. حتى هذا لا أعتقد، فقد قطعت أذناب القطط في الأيام البيض، يومان قبل اكتمال البدر ويوم اكتماله، وجعلتها تجف أواخر الشهر القمري، ثم طحنتها حتى أصبحت سحيقا، قمت بنفسي بمزجه مع بقية المكوّنات، مستعملة

الملعقـة التـي أكلـت بهـا جميلة فـي عرس عمتهـا هجيرة. وأخيـرا جعلتُ المزيـج فـي صورتهـا وطويتها سـبع طيـات، مع كل طيّ كنت أسـكب ماء الزهر الممزوج بالملح، وقرأت ما يجب ليصلح الأمر. ثم حفرت للصورة في الأرض ودفنتها مع ما فيها من مزيج من دون أن أخبر أحدا بمكانه. أما العصارة فقد حفظتها بعد أن أضفت إليها الليمون والسـكر وقشـرة البرتقال لتمتلك طعم ورائحة العصير..".

كان الأمر واضحا أن يامنة لم تخطئ في شيء، إلا أن مفعول سحرها لم يظهر مباشـرة كما كانت تعتقد. حتى أنها ذعرت حين علمت أن جميلة رفضت أحمد أول ما تقدم لها. هكذا تملكها الشـك وكادت أن تجن لولا رأفة الأيام أن جعلت جميلة تعدل عن قرارها وتقبل بأحمد أخيرا زوجا لها.

- 4 -

وهي تغني، فلتت دمعة من عينها اليمنى وتدحرجت على خدها ككرة ثلج سقطت من على قمة جبل، لتستقر على وجه ابنها النائم، بالضبط، تحت جفنه وكأنها دمعة تخصه، ولفرط ما خشيت أن يستيقظ لم تسع لمسحها، واكتفت بالنظر إليه وهو غائب عن الوعي، غارق في أحلام نسجتها ملائكة عادة ما تجعله يضحك أو يبتسم من دون سبب.

كان مشهد ابنها، ملفوفا في براءته، كافيا لينسيها سبب دمعتها تلك، حتى إنه كان قادرا على فصلها عن واقعها لتطير معه في أحلامه النورانية. وكادت أن تفعل لولا أن جرس الباب رنّ.

أخيرا وصلت عمتها كريمة. كانت أول من دخل. عانقتها باكية منتحبة، ثم سألتها بمجرد أن انفصلتا عن بعضهما: "أين هو؟". ولم تكد تشير لها جميلة بيدها نحو غرفة نوم أبيها حتى هرولت مقتحمة غرفته عليه.

ظلت جميلة في مكانها تبحلق في ظل عمتها الذي نسيته خلفها على عتبة الباب. بحلقت أكثر، فأدركت أنه كريمو زوج عمتها. لم تره منذ زواجها قبل سنتين، ومع ذلك لم يبد أن شيئا تغير فيه. كان هو هو، بجسد رياضي، وقامة متوسطة ورأس مستديرة، ذات جبهة واسعة وعينين طيبتين خجولتين. سلّمت عليه ثم فسحت له الطريق ليدخل بدوره غرفة نوم والدها.

لم تشأ جميلة أن تكون برفقتهما داخل الغرفة وفضّلت أن تعود إلى ابنها وقد استيقظ فزعا حين رن الجرس. وما أن عاد إلى نومه حتى توجهت إلى المطبخ وأعدّت شايا وقهوة. كانت تعلم أن الليل سيطول وليس بإمكان أحد أن ينام.

احتاج الأمر لنصف ساعة لتخرج عمتها وزوجها من الغرفة، بجفون محترقة وأعين حمراء. كان انتحاب كريمة يسمع حتى من داخل الغرفة التي فضلت جميلة حين ولجتها عمتها وزوجها أن تغلق بابها عليهما.

- هل أعلمتِ الشرطة بالوفاة؟

سأل كريمو بخفوت، وحين لم تجب أضاف:

- طيب..

وخرج في التو من دون أن يستأذن.

باغتتها عمتها بالسؤال:

- كيف مات؟
- هكذا..
- في غرفته؟..

حرّكت جميلة رأسها بالإيجاب.

- أكان يشكو من شيء؟

سألت كريمة مجددا، لتحرك ابنة أخيها رأسها مرة أخرى أن "لا".

واستمرت كريمة في طرح أسئلة لا معنى ولا غاية لها، وجميلة تجيبها تارة "نعم" وتارة أخرى "لا". وأحيانا تكتفي بتحريك رأسها إيجابا أو نفيا. ثم صمتتا وكأن لا شيء بينهما لتتحدثا فيه، ولولا انتحاب كريمة بين الفيء والفيء، لكان الصمت أكثر ما دار بينهما.

حين عاد كريمو وبصحبته رجليْ شرطة وطبيب، كانت كريمة جالسة في المطبخ بمفردها ترتشف فنجان قهوة، أما جميلة فكانت تنظر من شرفة المطبخ، تتأمل المطر الساقط من السماء. كانت ليلة ماطرة باردة إلى حد التجمدّ.

ابتسمت وهي تتذكر جملة أبيها الشهيرة "لطالما كانت الأيام الماطرة بشارة خير بالنسبة لي". أخيرا تيّقنت أن تخمينها قبل ساعة لم يجانب الصواب. ما رأته على وجه أبيها لحظة دخلت عليه لم يكن إلا الرضا، فلربما كان في الرضا شيء آخر غير السعادة، ليس فقط نشوة انتصار أيٍّ

كان. إن رؤيـة الرجـل لوجهه على المرآة سـاعة الصبـاح، ونفضه لثيابه بعد الوقـوع فـي بركـة يملؤهـا البـراز، ومصافحـة رجل غريب من دون سـبب، وموت من تحبّ على فراش المرض.. هي أيضا حالات رضا.

لم يستغرق وجود الشرطيين والطبيب الشرعي أكثر من خمس دقائق، اكتفـوا فيهـا بالسـؤال عـن عمر المتوفـى والتأكد من هويته والاسـتماع إلى شـهادة جميلة، ومن دون تلكك حرر الطبيب شـهادة طبية للوفاة، وخرجوا بوجوه تصطنع الحزن والمواساة.

بخروجهـم، خـرج الصمـت من دون رجعة. ذلـك أن كريمة وبمجرد انصرافهـم، عـادت إلـى عادتهـا فـي الثرثـرة. تحدثت وتحدثـت، وفي كل حديثهـا كانـت أعز الشـقيقات إلـى أخيها المتوفى. اختلقـت في طرفة عين قصة حبّ جمعتها به، كانت فيها الأخت الطيبة، العطوفة، الرؤوفة بأخيها.

كانت تتحدث وجميلة تصغي بغير مبالاة وهي تعلم أن الحقيقة صامتة إلـى حيـن تكـف عمتها عن الكلام. ومع ذلك لم تعلّق واصطنعت الإصغاء والموافقة على ترّهات كريمة.

فجأة قالت:

- لا يجدر بالأمور أن تحدث هكذا. كان أصغرنا وكان عليه أن يدفننا هو، لا أن ندفنه نحن..

شـعرت جميلة وعمتها تنطق بهذا بأنها اختنقت. عادت اليد السـوداء لتخنقهـا مـن جديد، إلا أنها هذه المرة لم تُحكم قبضتها كما يجب وأفلتتها قبل أن يغمى عليها. وللحظة شعرت أن خيالا مرّ بقربها.

- هل أنت بخير؟

سألتها كريمة لتطمئن.

- لا بأس..

أجابت جميلة بصوت مختنق وارتشفت بعض الماء. أضافت:

- القضاء من يقرّر لا نحن.

- يقرر ماذا؟

- من يموت أولا.. مَن يدفن مَن.

وحين استعادت صوتها أضافت:

- أتذكرين أحاديث جدّتي عن الموت والقضاء؟

ابتسمت كريمة ثم علّقت:

- تقصدين تلك الخرافات.. ومن لا يتذكر.. الموت خصيّ أسود و..

- والقضاء رجل بدين، قصير لا ملامح له..

وضحكتا معا، حتى كريمو ضحك معهما. كان ضحكا باهتا لا طعم له. وإذ صمتوا أضافت جميلة:

- ألم تفكري أبدا أنها كانت ربما صادقة؟.. ربما كانا هكذا، لا أحد يدري.

لم تجبها كريمة وأخذت تتأمل في وجهها، كان مصفرا وكأنّ الدم لم يُضخّ فيه منذ أمد.

سألتها بصوت هامس:

- هل أنت بخير حبيبتي.. هل ثمة من خطب؟..

أجابت باستخفاف:

- لا شيء مهم على الإطلاق.. لا شيء يستحق، باستثناء أنني فقدت للتو أبا..

وأسرعت مهرولة إلى غرفتها.

***

في ذلك الوقت توقف المطر ورنّ جرس الباب مجددا، وعلا صراخ نور الدين ليمتزج بنحيب الشقيقات اللواتي وصلن في الحين يبكين شقيقهن، ليمنح الصخب الناتج جميلة بعض الهدوء وتبكي أباها أخيرا.

- 5 -

لـم يحتـج الأمـر إلا لبضع سـاعات أخرى ليتشـكل مـن جديد فريق العمات الناحبات. كن وقد تجاوزت أصغرهن السبعين، جالسات في صالة المعيشـة (يبكيـن أو يتحدثن عن شـقيقهن، مسـتذكرات تفاصيـل تافهة من الماضـي، أو معلّقـات على حدث مهم، في اعتقادهن، جمعهن به) يشـبهن محاربيـن قدمـاء يتحدثـون عـن حـرب لـم يخوضوها أبـدا. فمهمـا ادعين معرفتهن به فلن تسـتطيع أية واحدة منهن أن تقول أنها عرفته على حقيقته. وحدها جميلة، ابنته، من كانت تعرفه جيدا، والآن وقد قرأت كتابه الأخير، تستطيع أن تجزم أنها صارت تعرفه كما ينبغي.

- أتعلمين يا حبيبتي. "قالت كريمة موجهة كلامها إلى جميلة". كان والدك أخانا، ولكن لا واحدة منا تعلم فيما كان يعمل بالضبط. كل ما نعرفه أنه طوال حياته لم يحتج إلى شيء، ولا أذكر أنه استدان من أحد، وأنه غدا ثريا، أكثر من أية واحدة منا، ومع ذلك أؤكد لك حبيبتي أن عمله ظل لغزا بالنسبة لجميع شقيقاته.

وإذ ذاك، همهمت الشقيقات، معلنات موافقتهن على ذلك.

أضافت حميدة:

- مرة، في حياة أمك، استضافني شـهرا في منزله، لم أره يخرج إلا في النزر القليل. سـألت أمك رحمها الله إن كان يعمل في شـيء فأجابتني بفظاظة "هو أخوك فاسأليه". رحمها الله، كانت امرأة صريحة، ما في قلبها على لسانها، ولكنها كانت طيبة أيضا.

نظـرت إلـى شـقيقاتها، فأعجبهـا أن رأت علـى وجوههـن ما ارتسـم للتـو علـى وجهها. كن يبتسـمن بخبث لم يخف علـى جميلة وهي تتصفح

وجوههـن الماكـرة، فلطالمـا علمـت أنهن كـن يتعاملن مع أمها بشـيء من التحفظ والتعالي لسبب لم تفهمه إلا حين قرأت مخطوطة أبيها.

- كان كاتبا.

قالت جميلة، محاولة وضع حد لحيرتهن.

- كاتب؟

- بلى. كان كاتبا يؤلف الروايات..

- لا أذكر أنني قرأت شيئا من كتبه أو أية مقالة عنه..

قالت كريمة وأضافت:

- تعرفن جميعا ولعي بالجرائد، وأنا لا أتذكر بأنني قرأت شيئا عنه.

- هذا لأنه كان يكتب باسم مستعار.

- أي اسم؟!

- ريماس إيمي ساك.. تعرفينه بالطبع.

قالت جميلة موجهة كلامها إلى عمتها كريمة.

- لا يمكـن، إيمـي سـاك يكتـب بالفرنسـية، هو فرنسـي مـن أصول جزائرية. هذا ما قرأته على غلاف إحدى رواياته.

- أخوك أيضا يكتب وينطق الفرنسية بشكل ممتاز.

- ومع ذلك لا يمكن أن يكون ريماس إيمي ساك..

ضحكت جميلة بطيبة وأردفت:

- هل تتذكرين مثلا أنك رأيت صورة ولو قديمة لريماس هذا؟.. هل شـاهدته ولو لمرة واحدة في أي لقاء تلفزيوني أو حتى سـمعت صوته في الإذاعة؟..

صمتت كريمة برهة، وفجأة صاحت:

- صحيح.. صحيح، حتى حواراته كانت تنشـر من دون صور وكان في كل مرة يفوز فيها بأية جائزة أدبية، يوكل ناشـره لتسـلمها.. ولكن لماذا أنت متيقنة من أنه كان أخي؟

- لأنه أخبرني بذلك، وكثيرا ما كنت أقرأ مخطوطات رواياته قبل أن

ينشرها. ومع ذلك حتى أنت يمكنك التأكد..

- كيف؟
- قريبا.. قريبا جدا، حين تنشر آخر رواياته.

***

مع انبلاج الصبح، خرج كريمو ليبدأ في إجراءات الدفن. كان عليه أن يتوجه إلى البلدية ليستخرج بيان الوفاة ومنها إلى مقبرة العاليا ليحجز قبرا هناك، فلطالما كانت تلك مقبرة العائلة. ولأن صهره كان مقيما في ولاية أخرى، فكان عليه استخراج إذنين أمنيين لنقل الجثة، واحد من ولاية الوفاة وآخر من العاصمة، وحتى يكون النقل سليما فعليه أن يشتري نعشا قابلا للغلق من أي مستشفى أو يطلب صنعه من أي نجار. كان يعلم أن الأمر سيستغرق ساعات من الجري ويكلف ثروة صغيرة، وقبل كل ذلك، فقد كان عليه أن يشترى كفنا أبيض بمواصفاته الدينية ويحضر المغسلة والنعش المفتوح من مسجد الحي، وفي نفس الوقت يبحث له عن غسّال موتى وناقلا ويتفق معهما على المقابل.

أما العمات التسع، بحكم اعتيادهن على المآتم فقد وزعن المهام الأخرى على أزواجهن بحسب الطاقة والجهد، فواحد مهمته الوقوف على باب العمارة لانتظار المعزين، وآخر مهمته اقتناء ما يحتاجه المأتم لإطعام الوافدين، وثالث يستعجل الغسال ليبدأ عمله قبل العاشرة، واثنان يقومان بخدمة المعزين، وآخران يستأجران الكراسي والطاولات التي ستستخدم في الإطعام، والبقية ينسقون مع كريمو في مسألة وثائق الدفن.

هكذا بدأ العمل وأفرغت إحدى غرف الشقة ليتم فيها الغسل، وأحضرت الطاسات وأحواض الماء، والمسك والعنبر التي اشترطها غسّال الموتى، وحملت الجثة ووضعت على الأرض بأسفل المغسلة.

"على رجلين منكم أن يبقيا معي للمساعدة" – قال المغسِّل موجها كلامه إلى أزواج العمات – "ولكن من يبقى عليه أن يقوم بما آمره به من

دون كلام، اللهم إلا التسبيج وقراءة القرآن، وبعد أن ننتهي عليه أن يقسم بأغلظ الأيمان ألا يتحدث عما سيراه لاحقا، فللموتى حرمات وعورات علينا سترها..

وانغلق باب الغرفة وبدأ الغسل.

دام الأمر ساعتين. خرج الرجال منهكين يحملون الجثة ملفوفة في كفنها، ووضعوها بمهل في صالة المعيشة، التي أفرغتها العمات من الأثاث وفرشنها بالزرابي.

حين استقرت الجثة في وسط صالة المعيشة وانصرف المُغسِل، دخلت العمات وطوقن جثة أخيهن باكيات. هذه المرة كانت جميلة بوراس معهن واقفة تبكي. مشهد أبيها في كفنه الأبيض، مكشوف الوجه، جامدا، هادئا، ساكنا على غير عادته، جعلها تدرك أخيرا أنه رحل. لم يعد ثمة من شك أنه رحل.

انحنت عليه وقبلته على الجبين. كان باردا كالثلج. جلست غير راغبة في الانصراف، كانت تعلم أنه لم يبق لها إلا ساعات قليلة تقضيها معه.

- تبدو هادئا أبي.. هل أنت بخير.
- أنا راض حبيبتي، لم أعد أشعر بالغضب ولا بالوحدة، قريبا سأرى أمي. سأخبرها أنك أصبحت امرأة، ستفرح أنك أسميت ابنك نور الدين، ستكون راضية مثلي..
- هي راضية منذ أنجبتك. أعلم ذلك، لقد قرأت كتابك كله..
- حتى الخاتمة حبيبتي..
- ليس بعد، كنت مشغولة بك. كلمت عماتي ليحضرن..
- لا يهم.
- لكنني سأقرؤها لاحقا وإن كنت أعرف كيف ستكون..
- حبيبتي.. كم أنت بريئة يا قطتي، لا أحد يعرف كيف تكون الخاتمة.
- حتى أنت؟
- ولا أنا، حتى كتبتها.. أعرف أنها ستفاجئك.

- كنت أفضل أن أقرأها وأنت معي.
- أنا دوما معك.
- ليـس بهـذه الطريقـة يا أبي.. ولكن قريبا سـنلتقي. سـلّم على أمي وجدتي لويزة حين تراهما.
- هما يسلمان عليك الآن.
- هنـاك أمـر لـم أخبـرك به. كـم وددت لـو بقيت أطـول، فقط ليوم واحد.. يوم واحد فقط.

- 6 -

"لا أحد مطلقا تمكن من رؤية السيد "الموت" من دون أن يموت. وحـده جدّكـم الشـريف من تمكن من رؤيته مـن غير أن يمنحه روحه، ومع هذا فقأ عينيه وكسر ظهره..".

ما زالت هذه الجملة تَصدي في رأسـها، كلما تذكرت الموت. وهي منـذ أشـهر، حتى قبل وفاة والدها، تذكـره مثلما يفعل أي مدين يذكر دائنه، ولكنها اليوم، رغم أن جثة أبيها ما زالت تتوسـط صالة المعيشـة مدثرة في كفنهـا الأبيـض الثلجـي، ورغـم الجو الجنائـزي الذي ملأ شـقة والدها في زموري، لم تعد توليه أية أهمية. اختفى شـعور الخوف الذي كان يسـكنها، وعوضته مشاعر طمأنينة غارقة في الرضا، حتى دموعها توقفت وعاد وجهها ينضح حياة من جديد.

في الخارج كان الرجال يستعدون للانطلاق.

- حـان وقـت الصلاة، نصلي العصر والجنازة في المسـجد ونتوكل بعدها على الله.

قال رجل ملتح، لم يسبق أن رآه أحد من العائلة.

همس واحد من الشباب لرفيقه: "الشيخ مصطفى لا يفوّت جنازة أبدا".

وصـرخ الشـيخ مصطفـى وهـو يصعـد الشـاحنة المخصصـة لنقـل الجثمان:

- يـا أهـل الميـت، دعـوا الرجل يسـير للقاء ربـه. لم يعـد ينفعه إلا الدعاء..

وإذ ذاك، تهافت الشباب لحمل النعش المفتوح، كان أخضر بذراعين من كل جانب، كل واحدة بطول نصف المتر. وما لبثوا وأن عادوا يحملون

فيه جثة الفقيد، وغطوا النعش ببطانية من القطن خضراء اللون.

وضعوا النعش على متن الشاحنة المكشوفة بجانب الصندوق المغلق الذي تمكن كريمو من شرائه في العاصمة.

صرخ الشيخ مصطفى مرة أخرى:

- يا شباب، بارك الله فيكم، انزلوا من الشاحنة لحظة حتى نبدل مكان الجثمان، لا يصح أن يحمل المرحوم إلا ذووه.

وهكذا نزل الجميع باستثناء الشيخ وأزواج العمات.

- على مهلكم يا إخوان حتى نضع الجثمان في الصندوق المغلق، ولكن لا تحكموا الإغلاق، سنعيد فتحه قبل الدفن... تمهلوا في حمله، للموتى حرمات..

تكفل أربعة برفع البطانية في السماء حتى تمنع الرؤية عن الآخرين خارج الشاحنة، وتعاون البقية في نقل الجثة، وضُرب النعش المغلق بالمسمار. وما أن انتهوا حتى عاد الجميع إلى متن الشاحنة وبدأ السير نحو المقبرة.

- لم أكن أعلم أن أخي يعرف كل هؤلاء.

قالت العمة "نعيمة" وهي تشاهد من النافذة الموكب الجنائزي، المشكّل من شاحنة وأربعين سيارة ترافقها.

- لم يكن صديق أحد. جميع أصدقائه هؤلاء..

أجابتها جميلة وأشارت إلى مكتبته الضخمة والصناديق المعبأة بالكتب، ثم أضافت مبتسمة:

- عادة ما يكون الموت أكثر أنسا من الحياة.

قالت ذلك بصوت خافت، وطفقت عائدة إلى غرفة أبيها.

هناك، شعرت وهي تغلق باب الغرفة أنها تدخل عالما معزولا، نائيا، مشغولا بالعدم. ظهر لها أن المرأة المنعكسة صورتها على مرايا خزانة أبيها تحاول أن تخرج منها، لتؤنس وحدتها.

فجأة تذكرت "عالم ما وراء المرايا"، عالم المرئيين واللامرئيين في آن

واحد، ذاك الذي تحدث عنه أبوها في كتابه، وطنه الأول والأخير.

- كم ممتع أن أختلي بك بعد كل هذا الوقت.
- تشبهينني!..
- بالطبع، فأنا أنت.
- أنت أنا؟!..
- أكيد، ولكن بالمعكوس.
- في كل شيء؟!..
- في كل شيء.
- في الموت أيضا.. صحيح؟.
- إلا الموت، فهذا لا يقبل أن يعكس.
- إذا، فلا أمل أن تظلي بعدي حين أرحل.
- وفيمَ سينفعني البقاء بعدك؟
- ربما ..
- لا تهتمي، سنجد معا من يرعاه بعد رحيلنا.
- كنت أرغب أن يرعاه أبي، ولكنه سبقني.
- أعرف ولكن رحيله قبلنا كان أفضل له.
- بالطبع، كان سيفجعه الخبر.
- لكنه مات سعيدا..
- وراضيا أيضا.. ولكن أترافقينني إلى هناك حين يأتي ذلك اليوم.
- سنكون جنبا إلى جنب.
- لن أكون وحدي.. أخاف أن أكون وحدي.
- لا أحد يكون وحده ساعة الموت..
- حتى أبي؟!
- حتى أبانا لم يكن وحده. رافقه ريماس إلى هناك.
- تقصدين إيمي ساك.. لم يكن يحبه.
- ومع ذلك لم يكره..

- 7 -

لا أحـد يعلـم مـا منـع جميلة بوراس من قراءة نهايـة كتاب أبيها، وقد واتتها الفرصة حين انفردت بنفسها، مستلقية على فراشه تبحلق في السقف. ربما حاولت لحظتها أن تستعيد الصورة التي رآها أبوها عليه، صورة المسخ الذي ظن أنه يشبهه. ولكن لماذا تصور أنه مسخ وهو الذي كان فارع الطول ببشرة سمراء وبوجه يشبه السكينة لم يشخ أبدا؟!..

أخيـرا نظـرت إلى مخطوطة أبيها وجعلتها فـي حضنها وحوَّطتها بين ذراعيهـا. لـم تكـن راغبـة في قـراءة النهاية بقـدر ما رغبت في شـم رائحته فيها. أحست بالطمأنينة واعتراها شعور صادق بالامتنان، فبين ذراعيها قصة الرجـل الـذي طالمـا افتخرت أنه أباها. بالطبـع، كان الأمر ليكون أفضل لو تمكنت ولو لمرة واحدة أن تذكر أن أباها هو ريماس، وأن هذا لم يكن إلا أبوها، ومع ذلك كانت سـعيدة بهذا الأب، غريب الأطوار ربما، ولكنه أب صالح، طيب، والأهم أنه كان إنسانا بحق.

كانـت ممتنـة للقـدر أن منحها والدا كأبيها، بيد أنها لو عرفت تفاصيل قصـة حبـه لوالدتهـا لامتنت له أكثر. أليس هو في النهاية الرجل الذي تزوج مـن عاهـرة من دون أن يهتـم؟. بيد أن القصة كانت أكثر تعقيدا مما وصفها أبوهـا فـي كتابـه، وما كان ليصفها ويفصّلهـا أكثر مما فعل، ما دام لم يكتب عن حياته إلا بقدر ما اضطر إليه، ليس أكثر.

وإذ كانـت علـى وشـك أن تغـوص في يم ذكرياتها، وتسـتحضر قصة زواج والديها، بحسب روايات عماتها لها، خطر على بالها أنها الآن، ولأول مرة، موجودة في الغرفة التي طالما حُظر عليها سابقا أن تتواجد فيها بمفردها ومـن دون إذن. لـم يكـن أبوهـا صاحـب أمـر الحظر، فهو لم يكـن يعبأ إلا

بساعات الليل التي اعتاد أن يقضيها في المطبخ ليكتب، وقد علق على بابه يافطة صنعها لهذا الغرض "لا يسمح بالدخول". عدى ذلك لم يكن يهتم بأي شيء.

ما زالت تذكر حين رغبت أن تدخل المطبخ ذات ليلة، وكان والدها قد علق يافطته..

كان الليل قد انتصف، ولعله كان قد عانق للتوّ يوما جديدا، حين استيقظت بشفتين جافتين وبفم يغمره الظمأ. نظرت حولها بعينين ناعستين وجفناها يرغبان في المزيد من الانطباق، فأدركت أنها ومن غير العادة لم تضع بجانبها أي شيء يصلح للشرب، فقامت تحث نفسها حتى أوشكت على دخول المطبخ. فجأة توقفت عند الباب، وتسمرت وهي تسترق السمع إلى حوار غريب:

- طيب، لنقل أنك على حق، وأن وجود هذا الشخص لم يعد يفيد أيا كان. كن، إذن، أكثر ذكاء وتخلص منه من دون أن تقتله.

- كيف؟.. أتجاهله مثلا وأستمر دون أن أعبأ به.. يا أحمق، لا أحد يختفي من تلقاء نفسه، أنت تكتب قصة لأشخاص يملكون عقولا يفكرون بها.

- اختلق أي حدث يجعل من انسحابه من الرواية أمرا معقولا وممتعا في آن واحد.. مثلا، اجعله يقرر أن يهاجر، بذلك تبرر انسحابه وعدم أهميته في الرواية. أنت يا ريماس رغم جمال ما تكتبه، لا تغامر في أي شيء. كل المسائل محسومة بالنسبة إليك، حتى إنني لم أرك أبدا تغير في أي حدث قررته مسبقا، وكأنك تعتقد متوهما أن أفكارك مقدسة إلى درجة ألا أحد يمكن أن يشكك فيها أو يغيرها ولو كنت أنت.

- اتفقنا- قال بنبرة ساخرة - في الصباح سأراسل "سارنييه" وأسأله أن يعيرنا بعضا من "بيوكه" الهائجة. سأقول له إننا نحتاجها فقط لمهمة بسيطة وتافهة، وهي أن تخطف صاحبك وتجعله يختفي، وسأستسمحه بالطبع في أن يطلب من الفاتنة "كيرتيدي" أن تحرص على بقائه مختفيا إلى

الأبد.. دعك يا أحمق من ترهات الهسبان تلك، واتركنا نتخلص منه بأقل تكلفة.[1]

منذ تلك الليلة، أدمنت جميلة بوراس الوقوف أمام باب المطبخ لاستراق السمع إلى حديث أبيها مع أبيها المجنون.

***

وعوض أن تقرأ خاتمة كتاب أبيها، راودتها فكرة غريبة في أن تتخفف من بعض ما في صدرها. فلو ظل والدها على قيد الحياة، لكانت قد أخبرته بأية طريقة عن سبب قدومها هذه المرة. كانت تدرك أن الأمر لم يكن يسيرا أن تصارحه بكل تلك الأسرار التي فضلت ألا تلقي بها إليه، لتبقيها بداخلها تنهش فيها. ولكنها هذه المرة لم تتردد وهي تنظر إلى مخطوطة أبيها لتفعل مثله. "ألم يتخلص من كل أشباحه بالكتابة؟!". فكرت، وقد قررت أن تنقل مثل والدها أشباحها إلى الورق. وما أن عثرت على بعض الأوراق حتى شرعت في الكتابة:

" أرعبتني ملامح أبي، ولكنها بقدر ما أرعبتني، جعلتني أشعر بشيء كالسعادة من أجله.. أخيرا وجد الخلاص.. حتى أنا وجدته لحظتها، فبموته لم أعد مجبرة على أن أخبره عن سبب قدومي هذه المرة.

في طريقي إليه، ومنذ خروجي من منزلي حتى نزولي بمطار الجزائر، وأنا أتخير، داخل رأسي، ألطف الكلمات حتى لا أصدمه، ولكنني أدركت بعد كذا محاولة، أن عجنها أو حتى تتبيلها لن يفيد بشيء. جميع الاحتمالات كانت تنتهي، رغم مهارتي وخبثي، إلى نفس النتيجة. كنت في ذلك كمن يسير في متاهة وهو مدرك أنها صممت للتعجيز فحسب، ومع ذلك كان يحدوني الأمل.. أمل كاذب، واهم لا غير، تماما كالذي تملكني أكثر من شهر بحجة أنه لا يمكن أن يحدث لي ما حدث لي.

---

(1) إشارة إلى رواية البرازيلي جوزيه سارنيه "سيد البحار". البيوك: وحوش بحرية. "كيرتيدي: حبيبة البطل المتخفية.

فمنـذ شـهرين تأكد لي أنني مصابة بسـرطان الكولـون، وأنه قد تفاقم إلى درجة استحالة علاجه. أخبرني الطبيب أنه ومع بعض الحظ يمكنني أن أعيش لسـنة أخرى، ولكنني بعناد الآمل ضيعت منها شـهرا على فحوصات لم يكن لها جدوى.

هـذا مـا جئت أخبر به أبي، وبشـيء آخـر أهمّ احتفظت به في صدري طيلة أعوام، وكنت لأترجاه أن يأخذ ابني ويتكفل بتربيته. أعرف أنه ما كان ليتـردد لحظـة في تلبية طلبـي، ليس لأنني وحيدته، بل لأن الموضوع يتعلق بحفيـد طالمـا اعتبـره ابنا. ثـم إنه ما كان ليقبل أن يرعـاه رجل مثل زوجي، أعني زوجي السـابق أحمد، فهو بمجرد أن طلبت منه الطلاق وشـرحت له سـببه الذي لم يكن إلا مرضي، حتى رحّب بالفكرة واقترح عليّ الاحتفاظ بحضانـة ابنـي أو نقلهـا إلى من أشـاء مـن أهلي. وهكذا تـم الأمر، وعدت إلى الجزائر وفي نيتي أن أعيش مع أبي حتى تحين سـاعتي، ولكن الأقدار جعلتها تتأخر عن ساعته، وكأنها طريقتها لتُشعرني بسذاجتي ولأعيد التفكير في كل شيء.

أشعر الآن وقد اقتربتُ من النهاية أن عليّ أن أفعل مثل أبي قبيل وفاته. بطريقته، اغتسـل من خطاياه، وكشـف عن وجهه للعلن. لم يكن يحتاج إلا لهذا الكتاب ليتخفف من وزر الحياة. أما أنا فقد أحتاج إلى أكثر من كتاب واحد لأنجو من مذبحة الضمير، هذا الذي قدّرت أنه لن يفيدني في حياتي، لحظة قررت أن أبدأ في الكذب على نفسي، ومن ثم على جميع من عرفوني وأولهم أبي.

فـي النهايـة، لم يخطـئ أبي حين تصور أنني ورثت عنه بعض جيناته، ولكنه على عكس ما تصور، لم يكن حظي منها مثلما ذكر في كتابه. لم أرث عن أبي إلا عادة الكذب التي تخلص منها. أما أنا، فما زلت أعيش كذبتي، ولا أدري كيف يكون خلاصي منها.

ربمـا حانـت سـاعة البـوح. مـا دام الموت يفرش لي، فـلا أرى كيف يمكن لكذبتي أن تحرجني أكثر، ما دمت لن أكون هنا لمواجهتها. يكفي أن

أكتب مثل أبي تفاصيلها، وأدع الآخرين يحملون وزرها بعدي. على الأقل، سأضمن أن ابني لن يعيش كذبتي هو الآخر. لن يحبني ربما حين يكتشف الحقيقة على غرار عماتي الطيبات، ولكنه لن يكون مجبرا مثلي ومثل جده أن يعيش في عالمين، فبقدر ما أتأمل حياتي فقد كنت مثل أبي أعيش حياتين في حياة واحدة.. ظاهرة وخفية في آن واحد.

إن كان عليّ الآن أن أبدأ من نقطة ما، فليس أفضل من أن أبدأ اعترافي من لحظة كنت قبل سنتين واقفة أنظر إلى ساعة يدي، بجوار محطة الحافلات بتافورة. كان يوم أحد، وعلى خلاف أيام أبي الماطرة، كان يوما غاية في الصفاء.

كنت أنتظر زميلة لي في العمل. تواعدنا هنا لنستقل نفس الحافلة إلى بيتها، حيث كنت سأقضي ليلتي. لا أذكر لمَ كنت سأبيت عندها، ولكن لا بأس أن أدّعي أنني أتذكر السبب. لن تضر كذبة أخرى أضيفها إلى سيرتي، على الأقل لا خطر منها في ما سيلي من قصتي.

كانت الخامسة فيما أذكر. تأخرت زميلتي ربع ساعة وأمهلتها ربع ساعة أخرى. في الجزائر يصعب أن يحترم الواحد مواعيده، لا شيء يسير مثلما هو متوقع دوما.

وإذ أنا واقفة هناك، أضيع الوقت في قراءة رواية جيب، باغتني صوت يشبه الذكرى، فصلني عن عوالم "مدفن الكبوشيين" لجوزيف روث الرائعة:

- جميلة!.. تذكرينني؟..

كان الصوت كنوتة موسيقية لعازف ماهر. لم أكد أنظر صوب وجه صاحبه حتى أضاف:

- تذكرينني حتما..

في هذا لم يخطئ. لقد كان رضا خبّاد، زميلي في سنوات الجامعة. أدهشني أنه لم يتغير في شيء تقريبا، فباستثناء هندامه الذي أصبح أكثر ملاءمة لعمره، وتكرّشه الطفيف، لم يتغير فيه شيء، حتى تلك الأمور

التي كان عليها أن تختفي مع السنين، ظلت مستمرة فيه. أعني وهج الحياة الذي عادة ما يلازم بريق أعيننا ونحن في سنوات الجامعة، تلك التي ونحن نجترها، تجعلنا نعيش أرقَّ وأجمل ما في الحياة.

- بالطبع.. بالطبع..

قلتُ وعينايَ تحدّقان في وجه طفلة يحملها بين ذراعيه. ربما تساءلت لحظتها "طفلة من هذه؟"، ولكن الأكيد أنني ما كنت لأخمن أبدا أن تكون طفلته.

- هـذه سـيليا. "قـال وهـو يقبل جبيـن الطفلـة". ابنتي سـيليا أصغر أولادي الثلاثة.

حين نطق بهذا، أدركتُ كم كنت مخطئة حين تصورتُ ألا شيء تغير فيه على العموم. في الحقيقة تغير كل شيء فيه.

- الله يبارك.. "علّقتُ وأنا أقبلها".. تزوجتَ إذن؟!

- أرأيت؟.. من كان ليتصور؟!.

وضحك وهو يضم إليه ابنته أكثر.

الآن وأنا أذكر تلك اللحظة، أتساءل بريبةِ من لا يقين لديه: "هل كانت لتختلف حياتي لو لم أقرر انتظار صديقتي في ذلك المساء؟". أتساءل لأن خياراتنا عادة ما تصنع لاحقنا، ولكن لا يقين أنها تصنع الفارق في نهايتنا، وكأنها نقطة لا يصلح الجدال حولها، لا عن كيفها ولا حتى عن متاها..

وهـو يضمهـا تمنيتُ أن يضمّني أنا أيضا، فأحيانا تلج الرغبة مسـالك لا معنى لها.

قلت له وأنا أصطنع السعادة:

- رضا!.. بالطبع أذكرك.

وتقدّمت نحوه أكثر لأسلم عليه. مددت يدي ففاجأني بقبلتين سريعتين على خديّ، ولكنه حين انسحب، مسح بكفه ذراعي، حتى إذا بلغ معصمي رفعها، وهو يبتسم بامتنان:

- كنت أعلم أنك لا يمكن أن تنسي زمالة دامت خمسة أعوام.

بالفعل، فقد تزاملنا خمسة أعوام في الجامعة. ومع أنه كان في نفس شلتي، إلا أنني لم أفكر فيه أبدا كما أجبرت على التفكير فيه حين قبلني ومسح على ذراعي. أقول "أجبرت" لأن الرغبة لم تمهلني لأفهم كل تلك التفاعلات التي حدثت داخلي لحظة لامست شفتاه خديّ أو حين داعبت كفه ظاهر ذراعي..

أضاف من دون أن يلاحظ ارتباكي:

- الأفضل أن نتبادل رقميّ الهاتف. من الجيد أن التقينا مجددا، وسيكون من الهدر ألا نفعلها مرة أخرى.

لا أذكر كيف أعطيته رقم هاتفي، ولا حتى كم من الوقت بقينا نتحدث يومها. كل ما أذكر كيف رنّت جملته ".. سيكون من المؤسف ألا نفعلها مرة أخرى" في مسمعي.. لأنني، في الغالب، اشتهيت أنا أيضا أن نفعلها حقا مرة أخرى..

حين استلقيت تلك الليلة لأنام عادت ذكراه تفترسني بالأرق. يا إلهي، ما زلت كلما ذكرت ذلك يعتريني نفس الشعور. لم يكن رغبة فحسب، كان شيئا تائها في المشاعر، أقل قدسية من الحب وأعلى دركا من الشهوة.

حينئذ، لاحظتْ زميلتي ما أنا فيه. سألتني إن كنت أشعر بالمرض. أجبتها من دون أن أتخير الكلمات: "بل أشعر بالشفاء"..

أخيرا شفيت من لامبالاتي المزمنة، من غروري، من اللاحب.. أخيرا طرحت جلد الفتاة الصالحة وتمكَّنت من التفكير كأية أنثى في موسم التزاوج. تأخّر الأمر ولكنه أتى في النهاية، وأنا التي كنت أخالني باردة كالموت..

ليلتها، كنت ألجمني لئلا أهاتفه فيفضح أمري. لم أعلم أي شيء استثارني فيه، حتى لم أعد أقوى على التفكير. كل ما كان في رأسي صورته.. صورة وجهه الآيل للبياض، بقصة شعر عسكرية وعينين بلون الفحم. لم يكن فيه ما يثير غير براءة حديثه وجمله المعجونة بالذكريات.

استغرقني الأمر شهرا لأقرر أن أهاتفه. لم أكن آمل أن يحدث أيّ شيء

بعدها، وربما حسبت أن محادثته ستطفئ بعض ما يُشعلني كلما خلوت بنفسي. بهذا أقنعتُني واطمأننت وأنا أشكل رقم هاتفه، فلم أكن، حينها، قد سجلته في مذكرة هاتفي، حفظته في رأسي من كثرة ما نظرت إليه طيلة شهر من الأرق.

كنت أرى أصابعي وهي تضرب لوح الهاتف تتلكأ بارتعاش، وبرأسي فراغ غارق في الفراغ. لم أكن أفكر في شيء. حتى فمي الجاف ساعتها، ما كان ليجرؤ أن يتصيّد أي كلام يطلقه ساعة يتوقف الهاتف عن الرنين. كنت أنتظر الصوت.. صوته هو، أن يفتح باب الجحيم ويدفعني فيه، ولأسقط حيثما أرادت لي الرغبة.

الآن وأنا أذكر ذلك، أتأمل لحظات ضعفي لأدرك كم كانت صادقة في نفاقها. أدرك ذلك وأنا أستحضر حديثنا حين رأف بي الانتظار ورفع رضا الهاتف، وفمي قد هجره الجفاف كأنه لم يحل به قطّ:

- من معي؟
- أنا..

قلت وقد أدركت أن اسمي لم يظهر على هاتفه حين قرر أن يجيب. تهاوت على رأسي مطارق الندم. لكنها لم تكن قوية إلى حد أن تمنعني من الاستمرار.

- أنا.. جميلة.
- جميلة؟!
- جميلة.. تذكرني بالطبع؟.

وانغرز الصمت بيننا. كان أكثر إيلاما من الندم، وأكثر مدعاة إلى السخرية من نفسي، فأي شيء كان سيجعله يتذكرني. لم أكن أكثر من فتاة رآها صدفة قبل شهر. شبح من الماضي السحيق. خيال لزميلة دراسة لم يعرف عنها غير جهله بها.

في الأخير تذكّرني، وتحول صوته المشفوع بالتردد والحيرة إلى النوتة التي سمعتها تصدر منه حين التقيته منذ شهر. استرسلنا في الحديث وكأننا

صديقـان منـذ الأزل. حدثته عن نفسـي، عن أبي، عـن وحدتي، عن الثوب الـذي كنـت أرتـدي، عن ميتـة جدتي، عن عماتـي التسـع.. حدثته عن كل شـيء، ولـم أكـن لأجرؤ على الصمت حتى سـألني أن نتوقـف وقد قاطعنا الفجـر، مؤذنـا ليـوم جديـد. كان من حسـن حظي أنني هاتفتـه وزوجته في بيت أبيها..

هو أيضا حدثني عن نفسه، ولكن بشيء من الريبة. كنت أشعر برغبته فـي التمـادي. كانـت رغبة خجولة تزحف نحـوي، تقتحمني بلطف وحذر. أردت أن أخبـره ألا جـدوى مـن الخـوف منـي، ولكننـي خشـيت أن يذعر ويفلتنـي، وأنـا للتـو اسـتحليت اقتحامه. كنت مجبرة علـى الإصغاء لصمته وبداخلي صراخ ممعن في الصراخ.

في النهاية، بدأت تتهاوى دفاعاته، وأصبح أكثر جرأة، حتى إذا انقضى شهر آخر عن حديثنا الأول، بدأ يلج عوالم خلت أنه لن يلجها أبدا.. فأخيرا قرر أن يشفيني من السأم.

هكـذا انطلـق الجنـون.. جنوننـا نحن، غيـر آبه بالمسـافة، غير راهب مـن أي شـيء. وهكـذا ابتـدأت قصتنـا يوم أحـد، تماما مثلما سـتختتم يوم أحد، وبينهما الانتهاء يفترش الوحدة حتى ينام بداخلي، لكنها كانت وحدة يحدوها الأمل، ولربما عاشرها الحلم أحيانا، على الأقل في تلك اللحظات الحميمة التي جمعتنا كل ليلة بعد منتصف الليل. كنت أصغي إليه وهو يسرد حياته وكأنه يكتبها، ولعله كان يفعل ذلك حقيقة في رأسي، حتى إنني وبعد كل هـذا الزمـن الفاصـل بين قصتنا ويومي هذا، أكاد أقسـم أنني أحفظ كل أحاديثنـا معـا. لكـن الذي كان يشـدني أكثر في كلامه، هو تلـك النبرة التي يفرشـها له كلما انتصف الليل. كان صوته يتغير من دون أن يدرك، ليتحول إلـى همـس ظمـئ، جائع، طامع في المزيد من الهمس. كنت أشـعر به وهو يتسلل إلى داخلي، يسرّع دمي ونبضات قلبي، لتتحالف الأحاسيس ضدي، وتخضعنـي ويغمرنـي في النهاية شـعور دافـئ بضرورة التحـوّل إلى جارية عاهرة.. أصبح من دون أن أدرك عاهرته هو.

أستحلي همسه، جنونه المتصابي، فأسأله المزيد. تارة أرغب في الصمت وأركز سمعي لأصغي إلى أنفاسي وهي تتقطع حتى تمسخ شهقات بالكاد أكتبها. وفي كل مرة أصغي إليها، يتملكني شعور غامض بالتحرر، فأطلق صوتي غير آبهة إن كان أبي سيسمع تأوهي. أصبح ذئبة تعوي.. كلبة تنبح.. قحبة تتأوه.

يا إلهي، كم جميلة تلك اللحظات، تلك التي كانت تجعلني أنظر إلى صورتي من دون خجل. يتراجع الحياء، فيلفظني الصلاح، وأسأله المزيد، فلطالما علمت أن في الحب المزيد.

أتمثلني في غرفتي، وقد تحولتُ إلى "لوكريثيا" [1] تعبث بي الشهوة وأصابع الرغبة تحفر في جسدي. تلملم شعري، وشفتان عريضتان مبتلتان تعبثان برقبتي، تمسحانها، تلعقانها، فتقتلان أخيرا تلك الفتاة التي كنتها قبل أن أعرف رضا، لأظهر أخيرا بصورتي التي أحبّ.

يستمر الهمس، والشفتان المبتلتان تستمران في الزحف على جسدي الواهن المرتعش. أشعر بهما تقتحمان جحيمي. تلتهب النار في داخلي من جديد. أشعر بالاحتراق كلما دنت الشفتان من نهديّ أكثر. تتسلل كلمات إلى أذنيّ "تفاحتان!"، فأرغب في المزيد من الهمس. لكن الشفتين تمتنعان عن الكلام، لتسطوان على قلعتيّ. أشعر بهما تلتهمان حلمتيّ، فتتيبّسان أكثر وأصابع الرغبة تتوغل أكثر في جنوني.

"استمر.. تعال.. أريدك"، أصرخ، وفي حلقي تصطف كلمات أخرى، يمنعها العقل من الخروج. أرغب في قولها، في الصراخ بها. أرغب في إعتاقها، لكن الخشية تلجمني من جديد.. كم كانت فاسقة تلك الكلمات..

أكان حبا ما أصابني وقتها؟!. أقول أصابني، لأنني مثقلة به إلى حد اليوم. حتى بعد زواجي وإنجابي، يتراءى لي وأنا مختلية بنفسي أن بقايا

(1) شخصية شهوانية للروائي ماريو بارغاس يوسا "دفاتر دون ريغو بيرتو".

منه تنخر في عظامي. تجري في دمي، لأتخدر وأجدني واقفة هناك، بين ما رغبته يوما وما حصلت عليه. أقف هناك شاهدة على عالمين أعرفهما، خضتهما بعقلي وجنوني. أنظر فقط، فتغمرني الرغبة في الرغبة، غير قادرة على التقدم، غير راغبة في التراجع، تماما كما الليلة التي شهدت فيها وفاة جدتي، ولئن خذلتني يومها ساقاي، فقد خذلني الآن عقلي، هذا الذي جعلني أقرر قتل نفسي بالزواج من أحمد. وقتها أقنعتني ألا خيار لديّ إلا أن أقمع الصوت في رأسي، أن أحبس الهمس وأقطع أصابع الرغبة من الزحف أكثر.

ربما كنت مضطرة لاختيار حياة لا أعيشها بقدر ما أحاول أن أبقى حية فيها. لكن الموت السائر نحوي يجعلني اليوم مضطرة على التوقف لحظة، لأنظر إلى الخلف، إلى العالم الذي طالما استهوتني فيه نفسي، والذي – شئت أم أبيت – كان العالم الذي عشته حقا.

أقول عشته، لأنني لم أكن فيه غير نفسي. لم أكن مضطرة على حبس شيطانتي، تلك التي أظهرها شبقي ورضا المتحالفان ضدي، وكأنهما توأمان زرعا في رحم الشهوة.. شهوتي أنا.

أتمثلني مسكونة بها. يصمني شهيقها. أشعر برغبتها في التحرر مني، ولكن عقلي يكبلها بسلاسل الممكن والمستحيل، فتحاول جاهدة من غير جدوى أن تخرج مني لتستعيد تمردها المقموع داخلي. أصغي لاستجدائها، لبكائها، مدعية القوة في قدرتي على التحكم فيها. كم كنت غبية حين تصورت أن النور قد تحجبه الأبواب الموصدة.

كانت تكفي لحظة ارتخاء واحدة لتبسط كفي وأُسقط اللجام. لحظة انبهار واحدة، تسللت إلى داخلي لتكسر قيودها، وتجعلها تفلت مني. أذكر تلك اللحظة، حين انطلقت شيطانتي خارجا، لتعود إليّ من جديد. هذه المرة تقمصتني، لأصبح من دون أن أعي داخلها. انقلب المنطق وصرت أنا المسجونة فيها. لكنني وأنا بداخلها، تملكني الشعور بالرضا.. شعرت بالحب نحو آسرتي. أعجبتني سلاسل الرغبة وقيود الشهوة التي كبلتني بها.

لـم أكـن أرغـب في التحـرر مثلما كانت هي في داخلـي، وتمنيت في قرارة نفسي أن يدوم الأسر إلى الأبد.

حينئـذ، بدأت أشـعر بالضجر من أحاديـث منتصف الليل. صحيح لم أكـن قـادرة علـى الامتناع عنها، ولا أحسـب رضا كان قـادرا مثلي، ولكنني كنت مدركة أنها محطة تافهة في مسـيرة اللذة. ثمة شـيء كان يدفعني إلى التخلص من إدمان الكلام. لم أعد قادرة على الحلم ليلا والاستيقاظ صباحا على كابوس واقع مجرد من المتعة.

قالت له شيطانتي ذات مرة:

- ألا ترغب أن نلتقي في الحقيقة؟
- أرغب ولكنك تعلمين..
- أعرف أنك متزوج ولن ترغب في هدم حياتك.
- هذه واحدة.
- والثانية..
- أخشى عليكِ مني.
- أما أنا فلا أخشى على نفسي منك.
- ومع هذا قد يقع المحظور بيننا.
- أهكذا تسمي الحب؟!.
- أنا لا أحبك جميلة.. أرغب فيك ولكن من دون حب.
- وأنا أيضا لا أحبك.
- إذن.. هي الشهوة لا غير؟!.
- وليست شهوة فحسب.
- فماذا تكون غير هاذين؟

مسكين رضا، لم يكن قادرا على فهم شيطانتي، فماذا كان لو تحدث معي أنا التي في داخلها. أكان سـيفهم انفصامي كلما كنت معه. أكان قادرا أن يفهم أن ثمة شعورا ثالثا بين الحب والشهوة، بين المقدس والمحظور. لطالما كنت مدركة عجزه عن إدراك منطق جنوني. لكنني استحليت عجزه

وفي ظني أن بوسعي السيطرة على التفاصيل.

فـي النهايـة، لـم تكن السـيطرة إلا وهمـا أرادتني المشـيئة أن أتصوّر أننـي أملكـه. لا أحـد يقدر على السـيطرة حقا، حتى أبـي وهو يقتل ريماس لـم يتمكـن مـن ذلك. أما أنا، فبمجرد أن تركتُ شـيطانتي تتقمصني، بدأتُ مسيرتي نحو الجحيم، لأسير نحو هلاك ألبسته متعتي.

يـا أللـه، مـا الذي أجده في تلك المسـيرة يمنعني من الندم. حتى وقد ماتت شـيطانتي، ما زلت أسـتحلي تلك اللحظات. أذكرها فيقشعرّ جسدي، تبـرق عيناي وترتسـم على وجهي الشـاحب بسـمة خلتهـا انمحت منه إلى الأبد. أكاد أقسـم أنني راغبة فيها، حتى وأنا أكاد أرى وجه السـيد "الموت" ملتصقا بزجاج نافذتي، يراقبني بشغف ليس مثله إلا شغف الحياة.

أهكذا يبدأ الشـعور بالخلاص، أم هذه ليسـت إلا آخر مزحة تطلقها المشيئة، لتتأكد من حبي لجنوني ومن رغبتي في المزيد من الخبل؟..مهما يكن، لست نادمة على شيء عشته قبل أن أطلق كذبتي وأقرر بعقلي الملعون التوقف عن الشفاء، ولربما هذا ما يجعلني غير خائفة من الموت، ما دمت قد جربته مرتين: مرة قبل أن أعرف رضا، ومرة أخرى حين قررت أن أتركه.

وقتما كنا معا، كانت الحياة أسخف من أن نحاول فهمها. نعيش أيامنا يومـا بيـوم. لا غـد يتربـص بنا ولا لاحـق نحاول حمله علـى القدوم، حتى حياتنـا خارجنـا لـم تكن تهم أيّا منا. ربمـا أدركنا من دون أن نفكر أننا حين نكون معا، تندثر العوالم خارجا، فنكتفي بسـذاجة وصدق بعالمنا الصغير، حتى وإن لم تكن قد تشكلت معالمه إلا بأصوات هامسة تسترق اللحظات كل ليلة بعد منتصف الليل.

أعلـم أن رضـا لـم يكـن مثلـي. كنت أشـعر وهـو يحـاول جاهدا أن يخفي بحّة الضمير في صوته حين يحدثني. كنت أصغي إليه بأذن شيطانتي فيستثيرني كلامه حتى أجنّ. أما أنا، داخلها، فكنت أسمع صراخ ضميره وهو يحـاول وأده حيـا، ومـع هذا لم أكن قادرة على الاختيار. وحدها شـيطانتي من كانت تعرف غايتها، وبكل خبثها سعت إليها. أما أنا فلم أكن إلا شاهد

عيان، لا خيار له إلا المشاهدة.

بيني وبين نفسي، كنت أستحلي حديثهما معا. لم أعد أسمع بحة ضميره في أغلب الأوقات. ثم جاءت اللحظة التي لم أعد أصغي إلا بأذن شيطانتي. كم كانت رائعة تلك الكلمات التي كانت تعبرها لتحاصرني حيثما كنت مكبلة بجبني، لأجدني في النهاية قد توحدت مع شيطانتي، نمسك أخيرا بخناق الرغبة حتى أذعنت.

أذكر شيطانتي يومها.. أذكرني يومها وقد قررت أن أقول له "نعم".. لكل الجنون نعم.. لكل رغبة "نعم".. لكل لذة "نعم".. لكل شهوة "نعم"..

- نعم؟!.. أحقا توافقين؟!

أجابني ونسيم رعشة باردة تسللت من هاتفه لتصفعني وكأنها الندم، ولكنها سرعان ما تحللت داخلي، كحبة ملح في بركة ماء لا خيار لها إلا الذوبان، لتصبح كلاشيء وفمي يسبق عقلي لأقولها مجددا: "نعم".

- ومتى ترغبين؟
- هذا المساء.
- هذا المساء؟

للحظة تصورتُ أن رضا أصبح صدى لصوتي، ولكنه كان صدى ينخره الذهول. أما أنا فقد صرت أخيرا أنا. لا صوت في حلقي غير صوتي الذي طالما أبكمه الرجاء.

في المساء التقينا. شاءت الصدف أن تكون الخامسة، وكما قررت المشيئة فقد كان يوم أحد، وكأن حياتي لم تكن أكثر من حلقة قررت الانغلاق. أذكر ذلك وأذكرني غير آبهة بالوقت ولا بالمكان، جالسة بشرفة "ميلك بار" في انتظار قدومه. كل ما خشيته أن يستفيق ضميره ويتخلّف عن الحضور، فلم أكن وأنا أكلّمه عبر الهاتف أسمع وحشه يصرخ كما اعتاد أن يفعل كل ليلة. ربما لأنني كلمته هذه المرة نهارا، فلطالما علمت أن الوحوش يرعبها الضوء. وحدها شيطانتي كانت قادرة على السير في أي وقت. وحدها من لم يعد يرعبها أي شيء إلا شعورها المتزايد بالعطش.

كنت أشعر بها في داخلي تستجدي أي شيء ينقذها من الظمأ، وكنت مثلها أنتظر من يخلصني من جفافي.

بمجرد قدومه جلس معي وطلب شايا. أما أنا فكعادتي طلبت فنجان قهوة بقطرات ماء الزهر.

كانت رائحة السجائر تنبعث منه وكأنه لم يتوقف لحظة عن التدخين. شعرت بالضيق وهو ينظر إليّ بطيبة رجل مشفق، وعلى شفتيه ابتسامة خاطها التملق من دون عناية.

قلت له حين بدأت أسأم من الصمت:

- أتملك مكانا نختلي فيه.

أجابني من دون أن يفكر "لا".

- إذن، فلا مناص من تأجير غرفة في فندق.

قلت بلسان شيطانتي هذه المرة.

- لا بأس ولكن لا أملك مالا كافيا.

- لا تحمل همّا لذلك.

أجبت أنا هذه المرة.

أضاف وشفتاه قد تخلصتا من ابتسامته البلهاء:

- ومع ذلك لن نستطيع أن نستأجر نفس الغرفة.

- أعرف أيها الغبي..

قالت شيطانتي واستطردت:

- .. نؤجر غرفتين، بعدها أهاتفك لأعطيك رقم غرفتي حتى تأتيني ليلا.

وهكذا فعلنا. أجرنا غرفتين بفندق "ريجينا". وما أن اطمأننت لارتكان النزلاء للنوم، حتى كلمته على هاتفه. أخبرته أنني في الغرفة رقم 142 بالطابق الثالث، أول باب على يمين السلّم. ثم جرى ما كان يجب أن يجري. ولئن كنت أذكر أحداث تلك الليلة بالتفصيل، فلم أعد أعرف أي جدوى قد أصيبه من ذكرها، ولا أية كلمات أستعمل في وصف أحداث قد

تمسكها الذكرى لتفلتها في لحظات. كل ما يمكنني قوله، أن مع نهاية تلك الليلة، وبعد أن عاد رضا إلا غرفته شعرت ولأول مرة بشيطانتي تغط في النوم. أما أنا، فلم أحظ بعدها إلا بليال من الأرق.

بعدها شعرت بالندم. ليس على "ليلة رضا"، بل لأنني كنت من السذاجة بحيث لم أحفظها في ذاكرتي فحسب. ولكنني كنت أقول لنفسي أن شيطانتي من جعلتني لا أحتاط ليلتها وأمسي حبلى من ساعتي.

فكرت في الموت، وما أن فكرت فيه حتى تراءى لي بوجهه الدميم، لأدرك بمجرد أن لمحته أنه قد ازداد قبحا عما وصفَتْه جدتي. ربما لأنه ساعتها لم يكن ليحملني وحدي وقد مسحت كف الحياة على بطني ونفخت في رحمي من قدّرت المشيئة أن يسميه جده نور الدين.

لم يعد لي بعدها من خيار إلا أن أقتل نفسي من دون أن أقتل ولدي. وما كان أن يتأتّى لي ذلك إلا بالزواج من أحمد وقد طلبني قبلها ورفضت. كل شيء بعدها جرى مثلما أردته أن يجري. طردت رضا من حياتي وكأنه لم يدخلها قط. وأوهمت أحمد أن الطفل منه، وما ميلاده المبكر إلا طفرة تحدث. أما عن عذريتي فلم يسأل أحمد يوما عنها، وخير أنه لم يسأل. أما أبي، فبقدر ما أحزنني أن أكذب عليه، بقدر ما أسعدني أنه ظل جاهلا بما حدث معي، تماما كما أسعدني موته قبل موتي.".

القسم الثاني

الكفيف يمكن أن يرى

اليوم العاشر قبل العدّ

كنـت متعبـا.. تعبا جعلني أشـعر برغبة في إطبـاق جفنييّ من دون أن أفقـد الوعـي، وكأن ثمـة من يجلـس عليهما يجبرهما علـى الانطباق. حتى العمش الذي قلَّما كنت ألاحظه في السابق، تسلل بين رموشي وتبلل عليها وجـف كذلـك، ليتحـول إلى ما يشـبه الغـراء اللزج ولكن مـن دون رائحة. ومع ذلك، تمكنت من فتح عينيّ على صورة سقف تآكل من الرطوبة حتى تعرّى من طلاء غرفة النوم الوردي، فبدا كصورة نفسـية من تلك التي اعتاد النفسانيون عرضها على مرضاهم حتى يقفوا على خطورة أمراضهم.

تأملت الصورة في السقف، فبدت لي كمسخ يحاول أن يتشكَّل من جديد.

فكـرت فـي عدد الأشـكال المحتملة فـي الصورة، فخلصـت إلى أنه لا نهائـي، ولكنـه فـي النهاية لـن يؤول إلا إلى الواحـد، فتلك الصورة رغم ضبابيتهـا ورغـم تفاصيلها الكثيرة والمتعـددة والمتغيرة أيضا، لا تكاد تمثل إلا واحدا من عشرة ما أشعر به تجاه نفسي، ففي النهاية لا توجد في كل هذا العالم صورة حقيقية للمسخ سواي، وإن وجدت فلن تكون أكثر أصالة مني.

هـذا الشـعور بالقـرف من نفسـي، جعلني أنسـى آخر قبـلات النوم التي تخيّلت أنها طُبعت على جبيني حين حاولت منذ ساعة أن أنام، ولكنني ما لبثت أن شـعرت بشـيء جعلني أخرج من غرفة نومي إلى المطبخ، لأستسـلم أخيرا للأرق ولرغبتي في قراءة شيء كتبته منذ وقت، حين توهمت – بسبب قراءاتي الكثيرة – أنني قادر أن أكتب رواية من جديد، فمنذ أربعة أعوام وأنا أحاول أن أبـدأ، أقصـد أن أنتهـي من لعنتي وأكتـب ما وعدت بأن أكتبه، ولكنني وفي كل مرة أبدأ في الكتابة أشعر بالملل فأتوقف، وكأن لا شيء عندي لأحكيه.

اليوم أشعر أنني تحررت من قيدي، أشعر أنني قادر أن أكتب من جديد، كما كنت قبل سنين عقمي، حين كنت "ريماس إيمي ساك" كاتب الروائع.

أذكر أول مرة أقرأ اسـمي على جريدة، كان مشـفوعا بوصفي "ظاهرة". كان هـذا قبـل أربع وثلاثين سـنة، عندما ظهرتُ من العـدم مثلما أحبَّ أحدهم تذكيـري ببدايتـي. لكنني وعلـى عكس تخميناته كنت قبل أن يكون ريماس هـذا، بيـد أنهـم، حينها، قرروا في لحظة حسـد وغـرور إعدامي بتجاهلهم. وقتهـا فكـرت أن ثمـة خطبـا في بدايتي تلك. فكرت كثيـرا وقررت الابتعاد عنهم وعن لغتهم قدر ما أستطيع.

هكـذا وجـدت نفسـي أقرأ مـرة أخرى فقرات قرأتها قبـل اليوم مئات المـرات، ولكننـي هـذه المرة بمجـرد أن انتهيت من قـراءة آخر حرف منها رأيـت مـا قد يسـميه كاتب محترف "استرسـالا" تفرضه الجمـل. بالطبع لم يكن لي أن أسـمي ذلك بهذا، ولكنني شـعرت به كما يشـعر الصبي بالرغبة من دون أن يكون قادرا على وصفها أو فهمها.

نظـرت حولـي وكأننـي خشـيت أن تسـتفيق زوجتي مـن نومها فتعكر علـيَّ مزاجـي، ولكننـي حين سـمعت ما يجدر بأي كان أن يسـمعه في مثل هذا الوقت الليلي الهادئ، أي لا شيء، عدت للنظر إلى شاشة الحاسوب، وفي رأسي ما حدث البارحة حين عجزت عن الكتابة مرة أخرى، أو ككل مرة منذ أربع سـنوات، ثم تذكرت خشـيتي من أن تستفيق زوجتي فابتسمت بمـرارة، ذلـك أنهـا توفيت منـذ أربعة أعوام، غادرتني يـوم غادرني الإلهام، وكأنهمـا تحالفـا ضـدي، ليتركاني وحيدا وفي أنفي رائحة كان من الهباء أن أحاول فهم سبب وجودها حتى.

هذه المرة لم أستسلم، فلهذا اليوم رائحة تشبه البداية..

كم أحب اسـتعمال هذه الجملة في رواياتي، لا أمل أبدا من تكرارها مـن دون خشـية أن يملهـا قرائـي، حتـى أن أحد النقاد، أقصـد أحد الذين لا عمل لهم إلا تقفي عثرات أمثالي، كتب ساخرا: "ريماس إيمي ساك أو السيد صاحب الرائحة التي تشبه البداية".. كتب ذلك وفي ظنه أنه نكلَّ بي وعرّاني أمام الجميع، وهو في الحقيقة لم يفعل أكثر من خدش مرآة بظفر مقلم.

وقبـل أن أعيـد قـراءة مـا كتبت للمرة الثانية، شـدتني رغبـة غريبة في

التمدد على سريري مرة أخرى. لم يكن التعب ما استلّ رغبتي تلك، ولكنه أمر آخر خطر على بالي في لحظة إشراق ظهر لي وهي تملأ قلبي أنها نهاية لكل مآسيّ.

تمددت مرة أخرى، وأطبقت جفنيَّ على صورة السقف المتآكل من دون أن يعنيني ما قد تحولت إليه تلك الصورة في الأخير وأنفي يلتقط رائحة الاستثارة المنبعثة من ذكرى زوجتي. ربما تكون ميتة ولكن ذكراها ورائحتها بقيتا معي، والغريب أنهما التصقتا بغرفة النوم أكثر من أي مكان آخر. (لا أعرف ما يجعلني متأكدا من هذا، غير الشعور الذي ينتابني كلما دخلت إلى غرفة نومي).

للحظة شعرت بالهدوء وأنا في ظلمتي الاختيارية أتأمل نفسي، ربما كنت لحظتها قد تماهيت مع الأعمى الذي في داخلي، ولكنه كان تماه غير صادق أو لنقل غير مجد إلى حد ما، ما دمت أعلم بأنني في أية لحظة يمكنني أن أفتح عينيّ وأخرج من عالم العميان إلى باحة المبصرين. ومع ذلك حاولت أن أصدق شعوري بالعمى وأسير في ظلمتي الاختيارية، وأرى ما يمكنني أن أجد.

في الحقيقة أنا خبير بعلم الادعاء. عشت أربعا وثلاثين سنة في جلد غيري، حتى لم أعد قادرا على التمييز بيننا نحن الاثنين: أنا وهو المدعو ريماس إيمي ساك، هذا الذي قررت أن يحيا لأموت أنا من أجل أن أحيا من خلاله. وها أنا الآن أبدأ الكتابة من جديد لأقبره وأبعث في مكانه، ربما بعدها يحيا لاحقا من خلالي.

المهم، أغمضت عينيّ لأجدني في الظلام، ليس كبطل بول أوستر في "رجل في الظلام"، بل كبطل روايتي، أقصد رواية إيمي ساك "انتحار" تلك التي حملت الثناء إلينا أنا وريمي، (يمكنني أن أسميه هكذا بعد 34 سنة من الاندماج)، حين قرر أن ينتحر بالعمى، فألصق جفنيه بلاصق قوي، وظل على هذه الحال عشرة أعوام حتى توهم أنه أصبح كفيفا بشكل نهائي.. الفكرة، حين وجدتني في الظلام، أيقنت أن لهذا اليوم رائحة تشبه البداية، تماما مثلما

كانـت تقـول أمـي كلما حاولت أن تقوم من مكانها لتشـتغل على أي شـيء. كانت تطمع نفسها في البداية وهي تعلم أنها فوتت تلك المحطة باكرا، ربما قبل أن تقولها بسنوات، ومع ذلك كانت تقولها لتأمل أو تتمكن من التحمّل.

في ظلمتي تلك، خُيّل إليّ بأنني أرى صورة السقف من جديد. بدا المسخ واضحا بشكل بعث الذعر فيّ وكأنني أراه، ولولا أنني تذكرت عماي المصطنع لازددت ذعرا. كنت أقول لنفسي يكفي أن أفتح عينيّ ليختفي المسخ، فلم أكن مجبرا كبطل روايتي "انتحار" على معاشرته عشرة أعوام، ولم أكن أملك العشرة أعوام هذه لأهديها له وقد طرحت من عمري أربع وسبعين سنة.

كان المسخ في ظلمتي يشبهني. لا أقصد ريمي بل أنا، فحتى بعد أربعة وثلاثين عاما من الاندماج، لم أكن قادرا أن أكون هو كلما انفردت بنفسـي، حتى مع زوجتي كان يظهر ويختفي وأحيانا يتقمصني وأتقمصه بالكامل. لكنه مع نفسي كان يُبقي على المسافة التي عادة ما تكون ما بين الوجه والقناع.

كان المسـخ يشـبهني إلـى حـد القـرف، ولكنـه وعلى عكـس وجهي المتبشـش بتكلّـف كان عابسـا حتـى لا أقول حزينا وكأنـه حين رآني تملكه السأم.. أيمقتني مثلما أمقته؟!.. ولكن علامَ وأنا الذي بعثته في وجه حمله إلـى الحيـاة. ألم يكـن وجها عاديا، يوجد في العالم منـه الملايين، وجعلته وجهـا خالـدا خلود ريماس إيمي سـاك وخلود رواياتـه الثلاثين، حتى أنني كرمته ذات مرة حين همسـت لريماس بأن يجعل منه شـخصية في رواية لم تكن تحتاج إليه في شيء، فقط لأنه وجهي، فعلام يتقزز مني إذن؟!..

مهما يكن، كان المسخ يشبهني، تماما كالوجه الذي رأيته على جدارية مقهـى ثلاثـون (ومنها أخذت عنوان إحدى رواياتي) حين دخلتها آخر مرة. ولكنني وقتئذ لم آخذ ظني محمل اليقين، ببساطة، لأن تلك الجدارية كانت أقـدس بالنسـبة إلـيّ من أن يتمثـل فيها وجه كوجهي، ولكـن ريماس الذي هو أنا، وعلى عكسـي كان يملك رأيا آخر جعلني أفكر في الأمر من زاوية أخـرى.. الآن يمكننـي أن أصـرح أنه كان وجهي.. يمكنني أن أصرح بذلك مـن دون تفصيـل، علـى الأقل ليس الآن، فمـا زلت في بداية الرواية، ثم أية

متعة سيجدها قارئي إذا قلت الأشياء مرة واحدة. هذا على الأقل ما تعلمته من ريماس وهو يكتب كل تلك الروايات، ولو أنني لم أكنه، هو، لبقيت أنا، الكاتب الفاشل الذي كتب أربع روايات لم تبع ولا نسخة منها.

وحين شعرت بالذعر وتذكرت عماي المؤقت، فتحت جفني على صورة المسخ على السقف. لكنه على عكس ما بدا لي في الظلمة، كان مسخا أقل تشوها مني. ربما الضياء ما منع تطابق الصورتين، ما جعلني قادرا على تشتيت ذهني بحيث تذكرت رسالة وصلتني صباحا.

فتحت درج لاكومند حيث وضعتها قبل ساعة وقرأتها من جديد. قلت في نفسي وأنا أضعها جانبا "لماذا تصر هذه الحمقاء على مراسلتي بالعربية؟"، قلت ذلك وأنا أعرف الجواب طبعا، فلطالما كانت جميلة، ابنتي المقيمة في مونبولييه، مصرة على تحديّ، ألم تتزوج من ذلك الأحمق المعتاش على صدقات الحكومة من دون رضاي؟.. أليست وحدها في كل عالمي من يصر على تجاهل اسمي "ريماس" ومناداتي باسم لم يعد لي علاقة به؟، فلماذا تمنع نفسها من المزيد من المتعة وتكتب لي بلغة نبذتني ونبذتها منذ بداياتي.

ومع هذا كانت تحبني من غير أن تحسن التعبير، مثلي أنا، وهنا لا أقصد ريماس الذي هو أنا، بل أقصدني متجردا منه، أحبها من غير أن أحسن التعبير. ربما لهذا لا أهتم بتحديها لي في قرارة نفسي، لأنني موقن بأنها تحبني حتى حين تتحداني وتكتب لي بالعربية، فهي في نهاية كل رسالة تكتب لي شيئا جميلا بالفرنسية، لغة كتابتي، أقصد لغة كتابتنا أنا وريماس. هذه المرة كتبت:

.." j'ai hâte de te voir.. Si tous va bien, je rentrerai le 10 novembre prochain"[1]

باحتساب اليوم، لم يبق على قدومها إلا عشرة أيام فحسب.

(1) الترجمة: مشتاقة لرؤيتك. إذا سارت الأمور كما يجب فسآتي في العاشر نوفمبر المقبل

اليوم التاسع قبل العدّ

اعتـادت ابنتـي أن تزورنـي مرة كل سـنة، وفي كل مـرة تمكث عندي خمسة عشر يوما.

فـي بدايـة الأمر، لم يكن حضورها أو غيابها مهما بالنسـبة لي، ولكن بعد وفاة زوجتي تغير كل شيء. أصبحتُ اليوم أعدّ الأيام لقدومها. أصبح وجودها وحده ما يجعلني أشعر ببعض الراحة، لا أقصد الجسمانية ما دمت منذ شـبابي قد اعتدت على خدمة نفسـي، أقصد تلك الراحة التي يشـعر بها الواحـد وهـو موقـن أن ثمـة أحدا في الجوار، أي شـخص يمكنه أن يصغي لأنفاسـه المتقطعة، أي واحد يسـمع صمته ويفهم عنه دون أن يقول. وفي هذا كانت جميلة مثل أمها، مع فارق أنها كانت، على نقيضها، غير خاضعة على الإطلاق.

سـألتني مـرة منـذ أعوام وهي تقلب صفحات روايتـي ما قبل الأخيرة "الجدار": "ألا يزعجك ألا يتعرف عليك أحد؟".

وجدت السـؤال سـخيفا، فلم أردّ عليها، ولكنّها وهي ترى ابتسـامتي المتكلفـة، وكانـت كذلـك، أضافـت: "لا أقصد ريماس، بـل أنت.. لا أحد يعرف أنه أنت".

أجبتهـا كمـا اعتـدت أن أجيـب زوجتـي، كلمـا سـألتني شـيئا شـبيها بهـذا: "المهـم.. أنـا أعرف، فلم أبحث يوما عن الشـهرة بقدر ما بحثت عن الاعتراف".

ابتسمتْ بخبث كعادتها وعلّقت: "لا أحد اعترف بك أنت، كل الثناء يسقط على رأس ريماس الذي لا أعلم من أين جلبته، أما إذا ذكروك، هذا إن ذكروك، فأنت في أحسن تقدير مجرد كاتب مغمور كتب ذات يوم أربع

روايات واختفى".

فـي هـذا لم تكن مخططة، ربمـا ازداد حبّي لها لصراحتها، ولكنّني في ذلك الوقت لم أكن قادرا على البوح بسـري لأحد. لم أكن قادرا أن أسـرد عليها تلك الرحلة الغريبة التي جمعتني بريماس كل تلك السنوات، وكيف وأنـا الـذي اخترعتـه، أجبـرت على العيش في ظله حتـى أتمكن من العيش بـدوري، وربمـا كنـت وقتهـا آمـل أن يلاحظني النقاد بعـد أن بدأت ترجمة أعمالـي إلـى العربية، أقصد أعمال ريماس، وأن يلاحظوا مدى التشـابه بين لغتـي ولغتـه، فمهمـا يكـن، كنت أنا من يحرر بمجـرد أن ينتهي ريماس من الهمس.

كنت في ذلك كبطلي في رواية "الجدار"، أكثر ما أحبّت ابنتي من كل رواياتـي. كانـت تقول لي دائما إنها إنجيل المتفائلين، وأحيانا كانت تصفها بالدليل. أما بالنسبة إليّ فلم تكن أكثر من رواية من بين ثلاثين أخرى.

كنت أشبه بطلي الذي أحبَّ أميرة من بلاد ما، ولكنه لشعوره بالنقص أو ربمـا لجبنـه (فعادة ما يشـعر العشـاق بالجبن) قـرر أن يعلن لها عن حبه بطريقة خاصة، ذكية ربما ولكنها سـاذجة. لم يكن اختيار الطريقة مهما في سياق الرواية ولكنه تحول في نهايتها أهمّ ما فيها. كان الفتى يحبّ أميرته، يؤمن بحقه في الإعلان لها عن شـعوره النبيل. هكذا كان يفكر كلما مرّت أمامه في هودجها وبين حرسها، لذلك فكر وهو يرى عادتها في التجول مساء أن يبني جدارا ويكتب عليه قصيدة حبّ. فكَّر في أنها حين تمر سيستوقفها الجـدار وتقـرأ قصيدته وتتعلّق بحبه. وحيـن فعل، حدث أن الأميرة لـم تمر بالجدار، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الموالي ولا في الذي يليه، لتنمحي القصيـدة مـن عليـه ويصبح جدار حبـه كأيّ جدار آخر، ليقرر مرة أخرى أن يبنـي جـدارا جديدا بمحاذاته ويكتب عليـه قصيدة حبّ أخرى. ويتصادف، مرة أخرى، أن لا تمر الأميرة بالقرب منه، فيبني جدارا آخر.. وآخر.

في النهاية وبعد سنين، حين يكون البطل العاشق يبني جداره الألف، يسـمع زغاريد صادرة من القصر. يسـتخبر فيُفجع بخبر خطبة أميرته. هكذا

يقرر في النهاية أن يقتل جبنه ويصارحها بنفسه، ولكنه حين امتطى فرسه واستعد للانطلاق، اكتشف استحالة وصوله إليها، لأنه بحبه أو بجبنه أو بأمله المفرط، جعل بينه وبينها ألف جدار..

أنا أشبه بطلي في الأمل.. أمل أن يكتشفني أحد، أي واحد يلاحظ الشبه بين كتاباتي وروايات ريماس الذي هو أنا، ولكنّني حين أفكر في المسألة بتمعّن، أشعر بأن مصيري لن يكون أفضل من مصير بطلي.. فأنا بروايات ريماس قتلت أملي الذي من أجله أوجدت تلك الروايات.

ربما من أجل هذا تفضل ابنتي هذه الرواية وتتعصب أحيانا لها.. هي طريقتها لتقول لي أي خطأ اقترفته حين قررت ذات يوم الاندماج مع ريماس.

ربما تحاول أن تخبرني بهذا ولكنها لن تفهم أبدا أنني كنت مجبرا على الموت ليحيا ويمنحني شيئا من حياته. كنت مضطرا أن أكون هو، أن أسير في ظله ثلاثين سنة.. سنة بسنة، ثلاثين رواية.. رواية برواية. كنت مجبرا أن أسير على هذا الدرب لأنه لم يكن ثمة من درب سواه.

أتمثّلني أقول لها حين تأتي بعد تسعة أيام أنني قررت الظهور. لن يفجعها قراري بقتل ريماس بقدر ما سأُسعدها برغبتي في الحياة. لكنّها ستصرّ أن تسمع القصة مني قبل أن تقرأها على أوراقي، تلك التي بدأتْ ذات يوم من عام 1982، حين فُجعت بحقيقة موت الحلم بداخلي.

كنت وقتئذ أراني ضحية حسد لا أقلّ. ربما شعرتُ بذلك ولكنني لم أكن، وهذا أمر أكيد، نابغة أو شيئا من هذا القبيل. كنت كأيٍّ نكرة يكتب وقد أُضيف رقما جديدا إلى قائمة من استشعروا في أنفسهم أنهم أدباء. ومع ذلك لم أكن كمعظمهم ممن يخال أن الأدب لا يزيد عن كونه مفتاح باب يُدخله إلى عالم السياسة أو المال، أو على الأقل طريق مختصرة نحو الاستقرار. كنت كالغبي أتبع قلبي فيه.. كنت أحبّ الكتابة.

حين فجعت، قررت الانسحاب وأن أصبح الرجل الذي عادة ما يصفه رجال القانون بـ"رب الأسرة البسيط". أن أصبح كأي واحد ممن أراهم عادة

فـي الشـارع.. كأي مخلـوق يولد، يكبر، يعمل، يتـزوج، ينجب وفي النهاية يمـوت.. كأيّ مـن هـؤلاء الذين اعتدت أن أتسـاءل عن غاية حيواتهم حين يختفون من دون أثر... الأثر، هذا ما كنت في النهاية أبحث عنه حين بدأت الكتابة. كانت تستهويني سِيَر الكتاب الكبار، حين يموتون ويتمّ ذكرهم بعد مئات السنين لأنهم تركوا أثرا ما.. هذا الأثر الذي أدركت تلك السنة أنه لم يعد متاحا بالنسبة لي.

كان فشـلي أمـرا أكيدا، حتى أن الأمـل الذي كثيرا ما تملّكني من قبل خبا مرة واحدة، وأنا أراني في الأربعين من عمري وأن كل الذي كان أمامي يشبه الذي خلفي. فلم أكن وقتها قد عملت في أي شيء بعينه. كنت "عالة" سعيدة بوهمها.. هذا الذي كنت أسميه وقتها الحلم، أقصد وهمي الذي أخذ مني عمري دون أن يمنحني شيئا.

هكـذا قـررت أن أبـدأ مـن جديد، يعني أن أجد عمـلا أيا كان، فلربما حين أجده يمكنني الزواج بعد سنين لأنجب وأموت كأيّ ربّ أسرة عادي وبسيط، أو حتى مفرط في البساطة.

أذكرُني وقتها، وكأنني أذكر نفسـي منذ سـاعة. غير أنني لا أذكر كيف كان الألم في داخلي. أتكفي كلمة "فظيع" لتعكس ما شعرت به وقتها.. لا أظن.

كان ألمـا خالصـا كـذاك الـذي تحكـي عنـه الكتب كلمـا تناولت ألم الاحتراق. أيمكن لأحد حقا أن يصفه حتى وإن نجا منه؟.. كان ألما مستمرا، موغلا في الألم، على نحو أفرغني من الشـعور بأيّ شـيء. وحين ألفته لم أعـد أفهـم في الفجيعـة، الخيبة، الحب، الكـره، الأمل، السـعادة، التفاؤل، التشـاؤم.. لـم أعـد أفقـه في الألم شـيئا إلا ما قد يعرَّف به فـي القواميس.. هكذا أصبحت كائنا مفرغا من كل شعور.. من كل شيء. وكأنني أصبحت كتابا لا ترى منه إلا الغلاف، حتى غلافي كان متهرّئا إلى حدّ أن رغبت في التخلص منه.

كان واقعي مذلا.. بهذا همسـت إلى ريماس أول ما قرّرت أن أكونه.

قلت لنفسي، أو له، لا بد أن يكون بعض ما أكتب، بعد أن اندمجنا، وصفا دقيقا لما كنت عليه نهاية عام 1982. لم يكن موافقا في البداية، ولكنه سرعان ما تذكّر قصة كان يرغب في كتابتها واستحالت عليه قبل أن نلتقي ونندمج. كانت تلك قصة سابع رواياتنا الثلاثين، أنا وريماس، تلك التي عنوانها "اللاشيء"، قصة أربعة أصدقاء تاهوا في الصحراء أثناء رحلة عادية.. الفكرة أنني، وريماس أيضا، صورتُ الصحراء ككائن مفرغ من كل إحساس، كنت وأنا أصف حالة التيه التي جمعت بين الأبطال أصف نفسي أولا وأخيرا، ربما لهذا حملت لي هذه الرواية الكثير من النقد الذي ساهم في مسيرتي.

أشعر وأنا أنظر إلى نفسي وقتئذ، أنني لم أكن بفشلي ذاك إلا مقدمة لرواية بدأت قبل أن أدرك، وأنني الآن وأنا أكتب في هذه اللحظة بالذات، أضع نهايتها بشيء من الإدراك الذي لم أملكه وقتما بدأ كل شيء في تلك السنة البعيدة.. أراني أحمل محفظتي وأسير من دون أن أرغب في السير. كنت في الحقيقة متعبا، جائعا أيضا.

أتذكر يدي داخل جيبي تتحسس بعض القطع النقدية وأنا أفكر في أمر كتابة سيرتي المهنية، فقبل يومين عن هذه الذكرى، كتبت سيرة مهنية ناقصة، ما دامت لم تحو على أي ذكر عن تجربتي المهنية، ببساطة لأنني حتى تلك اللحظة لم أعمل في أي شيء.

الذي فكرت فيه ساعتها، كيف أملأ ذلك البياض المفزع في سيرتي. لم يكن ثمة من خلاص إلا أن أجلس وأفكر في أي حل، على الأقل أن أختار بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن أترك البياض أو أسوّد أية كذبة. كنت أفكر ولكن التعب والجوع منعاني من اتخاذ القرار.

فجأة وجدت نفسي في مكان لا أحفظ معالمه. بالطبع علمت أنني منذ دقائق كنت في باب الواد العليا بمحاذاة "الساعات الثلاث". أذكر ذلك جيدا ما دمت قد اختلست النظر إليها لأعرف الساعة، وقتئذ كانت الرابعة مساء. أما بعدها فلم أعد أعرف، على وجه الدقة، أين أنا.

نظرت إلى أكثر من جهة فلم أستطع معرفة موقعي. تغيرت البنايات فجأة لتصبح منازل أرضية لا علاقة لها بعمارات العاصمة أو السكنات الكولونيالية المميزة للمدينة. كانت أبنية من دون هوية ومن دون اسم. فكرت في ذلك وأنا أسير في اتجاه مقهى لمحتها من بعيد. كانت اللافتة المعلقة على مدخلها مكتوبة بالفرنسية. قرأتها: "trente". أعجبني الاسم وأنا أفكر في معناه الحقيقي.

في الداخل وبعد أن اجتزت بابا زجاجية ضخمة، استوقفني نادل بزي أسود وربطة عنق على شكل فراشة. ابتسم فظهرت أسنانه البيضاء وقد أضفت على بسمته شيئا من اللطف. رحبّ بي بالفرنسية وبادرني: "تفضل سيدي".

حين التقطت أذناي جملة ترحيبه تلك، أدركت أية ورطة وقعت فيها، ولكنني حين ضغطت بقبضتي على الفكة داخل جيب سروالي أيقنت كم عظيمة ورطتي تلك.

أضاف متبششا: "تفضل سيدي، أول مشروب على حساب المحل ولك أن لا تطلب سواه".

لم يدرك النادل كم كان مقدار سعادتي بإضافته تلك، وفكرتُ مجددا أن أدخل وأشرب أي شيء ثم أنصرف بداعي أنني تذكرت موعدا ما.

تقدمت خطوتين فانكشفت لي المقهى كواحدة من تلك التي نراها على التلفاز: قاعة واسعة بأرضية بيضاء وطاولات مستديرة.. كان فوق كل واحدة قارورة ماء معدني ومنفضة رخامية موضوعة في وسطها.

كانت المقهى مكتظة بالزبائن، ومع ذلك لم أكد أسمع أي صوت، بالكاد كان همسهم يصل أذنيّ من دون أن أتبين الأصوات في الحقيقة. كانوا جالسين على مقاعدهم كدمى من الشمع تجسد واقعة ما.. هذا ما تخيلته وأنا أراهم جالسين حيث هم، تحيطهم حيطان المقهى زرقاء اللون. ومع الضوء الباهت فيها، كان من السهل حتى على رجل قليل الخيال مثلي أن يصرخ في داخله مستغربا "كأنه مشهد روائي" أو على الأقل كان ليصمت

ويتأمل الصورة مبديا إعجابه المطلق بها.

كانـت المقهـى مكتظة عن آخرها، كل الطاولات مشـغولة إلا واحدة قادني إليها النادل منزوية بشكل مريب.

جلست حيث طلب مني، ظهري إلى الحائط ووجهي إلى باب المقهى.

مـن مكانـي هـذا، بدت لي القاعة أقل اتسـاعا مما بـدت لي أول مرة. فـي الحقيقـة كنت من مكاني قادرا أن أرى وجوه الزبائن وأصفها بالتفصيل الممـل، حتـى أن أذنيّ تمكنتا بقليل مـن الجهد من التقاط بعض الأحاديث هنـا وهنـاك. إلا أن الـذي راعنـي حقا، هـو نوعية هؤلاء الزبائـن، أقصد أن بعضهـم لـم يكـن ملائمـا لطبيعة المقهى التي كانت بـلا ريب راقية إلى حد كبير.

لم أشأ ساعتها أن أمعن النظر في الوجوه أكثر، واكتفيت بتأمل اللوحة الجدارية العملاقة على السقف، وكأنه سقف كاتدرائية من عصر النهضة.

لم تمض لحظات حتى جلب لي النادل فنجان قهوة وانصرف. حينئذ تمنيت لو كانت معي أية سيجارة لأستمتع أكثر بالجلوس. نظرت حولي آملا أن أرى أحـدا يدخـن فأطلب منه واحدة، وهممت لأفعل لو لم يقف النادل أمامي وكأنه ظهر من العدم (تبدو العبارة مألوفة الآن). قال متظاهرا ببعض الحزم: "اعذرني سيدي، ولكن قواعد المحل تمنع الزبائن من الحديث مع بعضهم باستثناء الجالسين حول نفس الطاولة". وقبل أن أنبس بكلمة وضع علبة سجائر على طاولتي وانصرف.

"أصبح الموقف محيرا"، قلت لنفسـي وأنا أحاول أن أشـيّع النادل الذي اختفى وسط الزبائن الهامسين.

اليوم الثامن قبل العدّ

هذا اليوم صحوت متأخرا على غير عادتي.

لست من النوع العاشق للراحة. حتى في أيام شبابي لم أكن أنام إلا سويعات قليلة تمنحني القدرة على السير لاحقا. كنت مدركا أنه سيجيء اليوم الذي سأرقد فيه للأبد، من غير أن أكون قادرا على الاستيقاظ. ولما تحين تلك اللحظة ويلفُّني الظلام سأنعم أخيرا بالسلام. فعلى عكس ما يعتقد الناس، لم أومن قطّ بوجود عالم خلف ستار الظلمة. على الأقل ليس كما يتصوره تجار العالم الآخر: محاكم وتوزيع للغنائم والمغانم. حتى وإن كان الله موجودا، فلن يكون بتلك السادية التي تجعله يتمادى في القهر. يكفيه عالم الأجساد ليظهر سطوته. ثم أية جدوى من نعيم أبدي أو عقاب يمتد إلى الأزل؟!..

ومع أن فكرة الأبدية تزعجني، إلا أنني أومن بها في عالم الأجساد، ولكنه إيمان مشروط بالأثر الذي يتركه الكائن الحي في حياته الأولى، فأنا وإن لم أكتب ذلك صراحة في كتبي، فلطالما فكرت أن البشرية تشكل على اختلاف أجناسها، جنسا واحدا لم يضمن التفوق إلا بعد أن تيقن، ولو في عقله الباطن، أنه مجبر على التطور العقلي على سائر الأجناس. تطور يمنح كل كائن بشري مساحة مفترضة في عقل مشترك، إما أن يملأه هو، وإما أن يترك مساحته لسواه ممن مكنته الطبيعة من آفاق فكرية تبدو غير محدودة. هذا الملء هو الأثر، وهو الباقي الوحيد بعد فناء الأجساد، وهو أيضا ما سعيت إليه طيلة حياتي. أبدية من نوع خاص، هي وحدها ما تستحق التضحية.

أعددت لنفسي فنجان قهوة، تناولته في غرفة النوم، فمنذ وفاة زوجتي وأنا أستعمل غرفة النوم لكل شيء: للكتابة، للقراءة، للأكل.. إلا للنوم.

في حياتها كانت كل تلك الأمور محظورة عليّ. كانت مؤمنة بأن غرفة النـوم أقـدس غرف شـقتنا، وأن عليّ الإيمان بذلـك بدوري. كانت خاضعة في كل شـيء إلا في مسـألة غرفة نومنا، حتى حين طلبت منها أن تدعوني "ريماس" لم ترَ في ذلك مانعا. كانت تخطئ أحيانا في نطقه ولكنها سرعان ما تستدرك الأمر، ومع مرور السنين لم تعد تحفظ إلا هذا الاسم رغم أنها كانت تتذمر منه وتعتقد أنني أغالي في مسألة الاندماج تلك، وكابنتها كانت تسـألني عـن سـبب اتخاذي لهذا الاسـم الأدبـي، ولكنها لم تكـن تلح كما اعتادت أن تفعل جميلة.

ربما لو ألحت أكثر لأخبرتها ولجعلتها شـريكة لي في السـر، بيد أنها لم تلح واستمرت في حياتها معي من دون أن تقرأ لي ولا رواية على عكس ابنتي التي قرأت لي كل شيء، حتى تلك الروايات السخيفة التي كتبتها قبل أن أكون ريماس.

هذه المرة، وككل مرة، سأجعلها تقرأ مخطوطتي قبل أن أرسلها إلى ناشري، شريطة أن أتمكن من كتابتها قبل أن ترحل. لم يعد أمامي إلا ثمانية أيـام قبـل قدومهـا، ومع الوقت الذي سـتقضيه معي سـأضطر للانتهاء منها فـي أقـل من شـهر. مهلة كافية لكاتـب محترف مثلي للانتهاء من المسـودّة الأولى. بالطبع سـتلزمني أشـهر أخرى لتنقيحها وتدقيقها وإضافة ما يجب إضافتـه لتكـون صالحـة للنشـر. المهم أن أنتهـي من مسـودتها الأولى قبل رحيل جميلة، أي قبل اثني وعشرين يوما.. لا بأس يمكنني فعل ذلك، كل مـا يجـب علـيّ فعلـه الآن أن أركّز أكثر وأن أسـتمر في الكتابـة.. أقصد أن أسـتمر في الحكي من لحظة اختفى النادل ذو البدلة السـوداء وربطة العنق على شكل فراشة وسط الزبائن الهامسين.

"أصبح الموقف محيرا"، قلت لنفسـي وسـحبتُ سـيجارة من العلبة التي تركها النادل منذ قليل.

لا أذكـر فيـمَ كنـت أفكر سـاعتها، ولربما لم أكن أفكر في شـيء على وجه التحديد. ما أنا متيقن منه أن السقف برسوماته شغلني عن كل شيء.

كانت تلك الرسومات تجسد وجوها وأوضاعا مختلفة، وبقدر ما بدت غير متجانسة بقدر ما شعرت أنها تحكي قصة ما، لكنها كانت قصة سريعة بحيث يستحيل على الرائي القبض عليها بمشاهدة واحدة. كنت أتأملها حتى خطر على بالي أنني قد أحتاج لفهمها إلى معلم ثابت لا بد وأن يكون مرسوما عليها في مكان ما. أخذت أجول بناظريّ لدقائق من دون أن أتمكن من إيجاده.. لقد كان الأمر واضحا وغامضا في آن واحد..

وإذ كنت شاردا في السقف، شعرت بوقع أقدام توقفت بالقرب مني. نظرت، فإذا به رجل قصير القامة يسألني بلطف: "هل يمكنني الجلوس برفقتك؟".

لم أكد أجيب حتى أضاف: "لم يعد في المقهى من مكان شاغر إلا هذا"، وأشار إلى المقعد بجواري.

قال ذلك بفرنسية راقية.

حدّقت فيه، فبدا لي رجلا محترما، أقصد كهؤلاء الذين يمتلكون القدرة على إبقاء ملابسهم مكوية ونظيفة طيلة النهار، وفوق ذلك يحتفظون بابتسامتهم عندما يتحدثون.

"لا مانع". قلت وانشغلت بمحفظتي وقد تذكرت للتو سيرتي المهنية الناقصة. كان الوضع مواتيا لأملأ الفراغ، فقد قررت – من غير أن أفكر في العواقب – الادعاء بأنني اشتغلت في مجال الترجمة، فعلى كل حال أتقن ثلاث لغات بشكل جيد.

هكذا أخذت أعيد تحرير سيرتي مرة أخرى على مرأى الرجل القصير الذي فيما يبدو لم يطلب أي مشروب. كان ينظر إليّ محافظا على ابتسامته، على الأقل هذا ما بدا لي وأنا أسترق النظرات إليه.

باغتني: "خطك سيّء للغاية.. لا تؤاخذني ولكن عادة ما يكون الخط الرديء دليلا على النبوغ".

أضاف:

"كلّنا مررنا بهذا، لا بد أن يمر على الإنسان مهما بلغ مستواه سنوات

من التيه حتى يبدو له أنه لن يرسي على بر أبدا".

"ليس الأمر كما تتصور".

قلت ذلك بدون تفكير. ربما كانت جملتي تلك ردة فعل طبيعية لا غير حتى لا أبدو في موقع ضعف.

أضاف بشيء من الاستخفاف: "إذن فأنت تكتب سيرتك رغبة في الترقي"، ثم بجدية أكبر أضاف: "لا بأس، فلا أمل من غير تيه أيضا".

في الحقيقة، أعجبتني طريقته في الكلام، وأعجبتني أكثر جملته الأخيرة ".. لا أمل من غير تيه"، فحين أتأملني لحظة، لم تكن حياتي حتى الساعة إلا ترجمة لهذه الجملة، أقصد أن أملي في أن أكون كاتبا جعلني أتيه كل هذا القدر من الزمن، حتى لم أدرك كيف انقضت من حياتي أربعون سنة تشبه بعضها.

أضاف مصطنعا بعض الرقة: "آسف إن أزعجتك"، وأخذ سيجارة من علبتي من غير أن يستأذنني.

لم أعلق وانشغلت مجددا بسيرتي وأنا أحسب أن صمتي سيجعله يكف عن محادثتي، ولكنه ما أن أشعل سيجارته حتى قال: "هذه أول مرة أراك هنا.".

"هي ذاك".

"أعتقد أن في هذه المقهى شيئا سحريا، ثمة ما يجعلك بمجرد أن تدخلها أول مرة حتى ترغب في زيارتها كل يوم.. أتعلم منذ متى وأنا من زبائنها".

أجبته من غير أن أبدي أية حماسة بجحظ عينيّ تعبيرا على جهلي.

"لا أدري بالضبط.. أشعر وكأنه الأزل".

أعجبتني هذه الجملة أيضا ".. وكأنه الأزل".

كان حديثه راقيا وكأنه جمل مرسومة في رواية كتبت بعناية.

قلت له وقد رفعت رأسي عن سيرتي: "لعله الهدوء الذي يميزها وربما..". ونظرت إلى السقف من غير أن أضيف شيئا.

"أنت أيضا إذن.."

"أنا ماذا؟"

"أثارت فضولك تلك الرسومات".

"كأنها تروي قصة، ألا تعتقد؟".

قلت ذلك مدركا أنني بدأت حديثا معه.

"بل أكثر من ذلك، ألم تلاحظ كثرة الوجوه عليها؟"

"لاحظت ذلك، لهذا اعتقدت أنها تحكي قصة ما، لكن من الصعب فهمها".

ضحك الرجل وأضاف بشيء من الثقة: "أو ربما لا تحكي أي شيء، أو ربما تحكي قصصا كثيرة، أو.. ".

وأضاف بثقة أكبر: ".. أو ربما تحكي لنا ما نرغب في سماعه.".

ومن دون إذن، انصرف مبتسما من غير أن يطلب شيئا وفي يده علبة سجائري.

اليوم السابع قبل العدّ

عـادة مـا أبـدأ صباحاتي بفنجان قهوة وسـيجارة، لا شـيء معهما إلا الوقـوف علـى شـرفتي المطلة على غابة تنتهي بشـاطئ البحر. فلقد اخترت أن تكون شقتي في آخر طابق حتى أنعم بمثل هذا المنظر كلما صحوت.

أشـعر هذا الصباح، رغم الغيوم في السـماء، أن نهاري سـيكون رائعا. من الآن يمكنني أن أجزم أنني سأكتب المزيد، فلطالما كانت الأيام الماطرة بشارة خير بالنسبة لي.

ولدت في يوم ماطر، أو كما كانت تقول أمي: "في يوم اقترض عينيْ يتيـم". وكأيّ أم مـن أمهـات ذلك الزمن، لم تكن تعبأ بالتواريخ، ربما لأنها أدركت قبلي أن ما يذكر في النهاية هو كل ما سيبقى. ومع هذا، فلا بأس أن أتشـبّث بما هو مذكور في شـهادة ميلادي وأحدد اليوم أنه الرابع والعشرين من يناير. هكذا سأتخلص للحظة من سطوة أمي، وأدّعي بعد عشرين عاما مـن مفارقتهـا أنهـا لم تكن وراء رغبتي في أن أصبح كاتبا.. للحظة فقط، ما دمـت مـدركا وقـد بلغتُ المحطة الأخيرة أنني لـم أكن أكثر من صدى لها، حتى في أكثر تصرفاتي صفاقة، حتى في لحظات جنوني.

كانـت أمـي امـرأة ريفيـة ولـدت بمكان ما فـي مدينة صـور الغزلان، (سـتصر لاحقـا ولسـنوات طويلـة أنهـا قبائلية)، من أب منحـدر من إحدى قـرى ذراع بـن خـدة وأم أغلب الظن أنها من نواحي عين بسـام، فلم تملك في حياتها شـهادة ميلاد أو بطاقة تعريف.. ولدَتْ أمي بعد عشـرة أعوام من زواج أبويهـا مثلمـا زعمـت. وبمعرفتـي بها فقد تكون قصـة ميلادها مجرد تلفيـق، فلطالما كانت واسـعة الخيـال، إذ كانت لديها القدرة على أن تروي القصـة الواحـدة بكـذا طريقـة، وفي كل مـرة تزيد من طولهـا أو تنقص منه

بحسب الموقف أو الحاجة، وهي قدرة طالما حسدتها عليها.

حين أفكر في الأمر، كانت أمي أول مدرسة "تأليف" أدخلها. تعلمت منها كيف أبدأ أية قصة، وكيف أنتهي منها بنفس القوة حتى وإن كانت قصة غاية في البساطة. علّمتني كيف أنسج أحداثا مكثفة ومتسلسلة تقود جميعها إلى النهاية التي أرغب فيها. حتى اللامتوقع علمتني كيف أخوض فيه بسلاسة، بحيث أجعل من اللاممكن قابلا للحدوث. هكذا كانت أمي، امرأة تحسن التلفيق.

في قصة ميلادها تلك، كان أبوها أكبر من أمها بسبع وخمسين سنة، فحين تزوجا لم تكن أمها، جدتي، قد أكملت عامها الثالث عشر. لم يكن الأمر غريبا في ذلك الوقت، ولا بالنسبة إليها وهي تحكي قصة أبويها، ولولا معرفتي بها لقلت أنه كان بالنسبة لها أمرا مقبولا تماما. ربما لأن القصة كانت عن أبويها لم تشأ أن تعلق أو تبدي رأيها فيها. كانت في سردها لتلك القصة كراوٍ عالم بكل شيء.. رجل ملم بجميع جوانب القصة حتى أكثرها حميمية وكأنه شهدها بأم عينيه، ومع ذلك يصرح في كل مناسبة إنه مجرد راو، مجرد ملاحظ حيادي.

مهما يكن، بعد أعوام لم ترزق جدتي بولد، أو رزقت بأولاد وماتوا جميعا لأسباب غامضة، أو كانت تحبل وتموت أجنّتها في رحمها، أو كانت تجهض نفسها بنفسها مقتا لزوجها المسن، أو لعل شقيقة زوجها، تلك التي لم ترغب في زواج شقيقها منها، كانت تضع لها شيئا في الأكل لتجهض قسرا. جميع تلك الاحتمالات كانت روافد تستعملها أمي في حكايتها، فكما قلت لم تكن تروي القصة مرتين متتاليتين من دون أن تتعمد تغيير تفصيلة ما، حدث ما، شخصية ثانوية تختلقها اختلاقا لتغير مجرى القصة، ولكنها كانت تجعلها، وبأسلوب سحري تنتهي عندها، عند ميلادها الأسطوري الغارق في الغرابة، مستغلة في ذلك أي شيء متاح، حتى ولو كان اسمها.

أحيانا كنت أشعر أن اسمها المتميز ما جعلها تبتكر كل تلك القصص،

ولكنني حين ألاحظ أنها عاشت طيلة حياتها طفلة وحيدة، يدفعني المنطق لأصدق ما كانت تحكيه لي، أو على الأقل بعضه، إذ لا يزال تصديق قصصها بالمطلق ضربا من المجازفة.

في قصتها تلك، أو في قصصها المتشابهة عن ميلادها، قرر أبوها أن يجد حلا للمسألة، فقد كان يرغب في الولد، وكان يريده ذكرا، وهو الذي لم ينجب من زوجته الأولى، المتوفاة، إلا فتاة أسماها فاطمة. هكذا استشار وليا صالحا فنصحه بأن يعقد النية وينذر لله أنه لو أنجب فسيسمي ولده، ذكرا كان أو أنثى، "لويزة". بهذا كانت سترفع اللعنة عنه.

إلا أن والد أمي حين حبلت جدتي منه وأنجبت ذكرا أسماه "محمد مناد". مات لاحقا قبل أن يكمل الشهر من عمره، ثم أنجب ذكرا آخر وأسماه أحمد فتوفي هو الآخر. حينها عقد العزم في أن يسمي من يولد لاحقا "لويزة" مهما كان جنسه.

هكذا ولدت أمي وتسمّت مثلما أراد لها الولي الصالح الذي تولاها برعايته وأخبرها أنها جاءت كحبة "اللويز" فريدة ومتميزة، والأهم من كل ذلك أنها ستعيش وحيدة من دون أشقاء.

هل كان ما روته لي أمي حقيقة.. لست أدري، فلطالما كانت أمي امرأة تحسن التلفيق، كبطلة روايتي "الحكّاءة". أعترف الآن أنني أخذت ملامح بطلتي من أمي، مع فارق أنني جعلتها امرأة من دون عائلة، وجعلت لها اسما آخر. وحين خشيت أن تتعرف عليها شقيقاتي ممن كن يحسنّ القراءة، ومن ثم تتوصلن إلى معرفة علاقتي الخفية بريماس، قمت بتحريف بعض أحداث قصة ميلاد أمي بشكل حتى أمي لم تفكر فيه، ربما لأنها لم تكن تملك عقلا ثانيا على عكسي أنا المندمج بريماس إيمي ساك، وإن كنت هو، مع فارق أنني في تلك الرواية كنت أكثر ذكاء منه لاعتمادي على ذاكرة حقيقية وعلى أمٍّ وُجدت فعلا. كلّ ما أضافه ريماس أن جعل "الحكّاءة" امرأة تعيش في الصحراء، يعرفها الجميع على أنها تحسن الحكي وتخترع القصص، تسلي أهلها ونفسها بها، ولكنها كانت تعيش بنصف ذاكرة أو

بذاكرتيـن: واحـدة للصباح وأخرى للمسـاء، لذلك فقد كانت مضطرة لتغير تفاصيل قصصها في كل مرة.

ما زلت أذكر تردّدي قبل أن أكتب تلك الرواية، ربما لعلاقتها بأمي، أو لأنني خشيت أن افتضح فأجبر على إلقاء جلد ريماس جانبا وأخرج للناس بجلـدي. كنـت أخشـى أن يدرك النـاس أنني "أنا" فيحتقرونـنـي مثلما فعلوا حيـن خرجـت إليهـم أول مرة بوجهـي وبطيبتي وبرواياتي الأربع الفاشـلة، فوقتها لم أكن قد اقتنعت بفكرة التخلي عن ريماس خشية أن يتوقف الإلهام فجـأة مثلمـا بـدأ فجأة حين قررتُ أن أكونه أول مرة. لم أكن قادرا وقتها أن أفهـم طبيعـة مـا يجمعنـا معا، أنـا وريماس، رغم أنه حـاول أكثر من مرة أن يفهمني طبيعة العلاقة تلك.. الحقيقة خشيت الاعتراف بأن قتله يعني قتلي، رغم أنني حين كنت ميتا بعد فشل رواياتي الأولى كان حيا يرزق ينتظر فقط أن نندمج ليبعثني من جديد.

أتساءل الآن إن كان قادرا على منعي من قتله وأنا أكتب منذ أربعة أيام من دون انقطاع قصتنا نحن الاثنين، نحن الواحد.. أتساءل فحسب، ما دمت موقنا أنه لن يظهر من جديد، لن يظهر بعد أن تركني كزوجتي بمفردي أربعة أعـوام أقتـات من وحدتي كرجل مصـاب بالطاعون.. كرجل جالس بمفرده في مقهى مكتظة لا يحدّثه أحد ولا يستطيع أن يحدث أحدا، كما كنت ساعة تركني ذلك الرجل القصير في مقهى "ثلاثون".

لحظتها شـعرت بمثل هذه الوحدة. لا أعرف كيف أصفني سـاعتها أو كيـف كنـت أرانـي وأنا أخرج من المقهى منهكا وفي رأسـي أسـئلة الوجود كلها.

سرت قرابة الساعة حتى عرفتُ موقعي من جديد، ومن هناك اتجهت صوب المنزل، لا رغبة لي إلا أن أتمدد على فراشـي وأعيد شـريط ذاكرتي إلى الوراء لأتأمل من جديد تلك الصدفة الغريبة التي جعلتني أكتشف مقهى "ثلاثـون". رغبـت فـي أن أتمدد وأغمض عينيّ وأفتحهما من جديد على صـورة سـقف "ثلاثـون".. كنـت أرغـب أن أركـز على أي شـيء في لوحة

السـقف لأجـد المعلم الضائـع الذي يجعلني أفهمها. ربمـا بعدها، وبعدها فقـط، يمكننـي أن أسـير بـرأس فارغـة، كتلك التـي كانت علـى كتفيّ حين دخلت مقهى "ثلاثون" أول مرة.

حين بلغت منزلي، تمددت على فراشـي.. أغمضت عينيّ .. "يا ألله لم يكن ثمة غير الظلام".

اليوم السادس قبل العدّ

أعدت اليوم قراءة ما كتبت بالأمس. فوجئت أنني من دون أن أشعر خضت في سيرة أمي أكثر من سيرتي. أحبطني الأمر، ليس لأنني لا أحب الكتابة عن أمي، بل لأنني لو تماديت أكثر في سيرتها فسأتجاوز الأجل الذي حدّدته لإتمام هذه الرواية، فلم يبق على قدوم ابنتي إلا ستة أيام وبعدها لن أملك من الوقت إلا خمسة عشر يوما فحسب.

مهما يكن، سأحاول تجنب ذكر أمي قدر ما استطعت. لن أعد بشيء، فلطالما حشرت نفسها من غير أن أدرك في كل ما كتبت لحد اليوم. ريماس أيضا لم يتمكن من منعها من ولوج نصوصنا، حتى تلك التي كنت أتركه لوحده يبدأها وينهيها وأكتفي أنا بدور المحرر البليد، ففي العادة كنت أتدخل في جميع شؤون القصة رغم أنه كان صاحبها بالفعل، ولكنني لم أكن أفعل هذا إلا حين لا أتفاعل مع القصة أو لا أتعاطف مع شخوصها، فقد تكون الكتابة موهبة ولكنها مشاعر أيضا.

الآن، أشعر ببعض الحيرة حين أتحدث عن ريماس مجردا منّي، وكأنه يمكن أن يملك غير ظلي. لكنني مجبر على أن أسلك هذا الدرب حتى أكتب، أنا الواحد، بمفردي وحتى أزج به داخل كتابي هذا من غير أن يأمل أن يكون صاحبه. ولو أنني كنت قادرا على تجاهله تماما لفعلت، ولكنه سيكون كتابا فارغا من دونه، شئت هذا أم أبيت. أصبح ريماس بعد كل هذا العمر أنا، ولَكَم سيكون غريبا أن يحاول أحد أن يكتب سيرته دون أن يتحدث عن نفسه.

بالطبع كنت لأفضل ألا يصير أنا وأظل أنا وحدي أنا، تماما حين كنت قبل أن يبدأ كل شيء، فرغم فشلي في تلك السنوات البعيدة، كنت سعيدا بما أنجزت، على الأقل لحظة الإنجاز، أما الآن ومع نجاحي وشهرتي

أغـرف مـن أحزاني اللامتناهية، فقط لأنني حين أخلو بنفسـي وأسـألُني من أحرز كل تلك النجاحات لا يسـتعصى عليّ الجواب الذي يكون نفسـه في كل مرة أسألني.. ريماس إيمي ساك.

ولكن علام أسـتعجل الأحداث وأنا لم أصل بعد إلى هذا، فما زِلت هناك ممددا على فراشي أفكر فيما حدث لي في ذلك اليوم.

فتحت عينيّ ببطء على وجه أمي.

سألتني بلطف: هل وجدت شيئا اليوم.

كانت تقصد العمل.

لم أجبها واكتفيت برفع يديّ في الهواء.

(سيسـتمر هذا الحوار سـنة أخرى، لأجيبها بلسـاني: "لا شـيء بعد". وسـنة ثانية لأطمئنها: "قريبا، فقد وعدني أحدهم". وسـنة ثالثة لأقول لها: "تقريبا فقد حصلتُ على مستحقات كتبي"... الغريب أنني رغم حبي لأمي لم أكذب عليها أبدا.).

فـي اليـوم الموالي صحـوت باكرا كعادتي وفي نيتي أن أطبع سـيرتي المهنية وأنسـخها من دون أن أنشـغل فعلا بثمن الطبع والنسـخ، فمن عادة أمـي أن تضـع فـي محفظتي بعـض الدنانير، ولكنني في ذلـك اليوم لم أجد شـيئا. لم أغضب بقدر ما رحت أفكر في طريقة تمكنني من الحصول على ما أحتاج إليه من دنانير. لا أعلم كم بقيت واقفا عند مدخل عمارتنا ولا كم من النسـاء غازلت. كل ما أذكر أنني قررت في لحظة ما أن أتمشـى قليلا، وبالفعل بدأت في السير.

قطعـت المسـاحة الترابية بيـن عمارتنا والطريق الفرعـي الفاصلة بين باش جراح الثانية والثالثة والمؤدية إلى وادي شـايح. ثم سـرت قدما حتى بلغت ملعب التنس وفي ذهني أن أبلغ "الحصيدة" المشـرفة على لوتسـمان ميشال، ربما أجد هناك واحدا من معارفي أقترض منه أو أقضي النهار معه ندخن ونتلهى بأي شيء.

أذكر ذلك الآن فيدهشني أنني لم أفكر حينئذ في أبي لأطلب منه بعض

المال. في الحقيقة لا أذكر حتى إن فكرت فيه أصلا. ربما فعلت، لاشيء أكيد، فأنا أتحدث عن لحظة وقعت قبل سنين، قبل ملايين اللحظات. أيمكن أن أحسبها؟ لِمَ لا أفعل.. حدثت قبل أربع وثلاثين سنة، قبل أربع مئة وثمانية أشهر.. يعني قبل 12240 يوما، ما يعني أنها وقعت قبل 293760ساعة، أي بالتحديد قبل 17625600دقيقة.. أقصد إنني أحاول أن أتذكر لحظة حدثت قبل (..........) ثانية. أووه، كل هذا الحساب لأقول دون أي احتمال للخطأ إنني ربما فكرت فيه، ولكن هامش اليقين كهامش الشك.. لا شيء أكيد.

ومع هذا يمكنني أن أؤكد حتى بعد كل تلك السنين، أنني لم أكن لألجأ لوالدي حتى لو فكرت فيه، فثمة ما كان يجعلني أتذكر فجأة، كلما حاولت، تلك الكلمة الغريبة التي تجعل الإنسان كلما شعر بها ترفع على كل شيء، أقصد تلك التي عادة ما نقرؤها في كتب التاريخ فيعجبنا وقعها دون أن يتأتى لنا، فعلا، فهمها. ولكنني كنت أشعر بها حقا كلما فكرت أن أطلب مساعدة أبي، فلطالما شعرت إزاءه بالكبرياء.

الآن، والآن فقط، أدرك مدى غبائي حين لم أحاول طلب مساعدته، تماما كما أشعر بغباء ابنتي حين تحاول جاهدة أن تتظاهر أنها بخير مع زوجها الأحمق المغترب.

أسألها: "هل تحتاجين إلى شيء".

تجيبني ببرودة: "لاشيء".

- بعض المال فقط، يمكنني أن أرسل إليك ما تحتاجين إليه كل شهر. أعرف أن زوجك لا يجد عملا.

تجيبني برضا: "تكفينا منحة البطالة التي يتقاضاها شهريا".

ثم تضيف برضا أقل: "لا تنس أننا ثلاثة فقط: أنا وهو والرضيع".

"الرضيع".. هكذا تسمي حفيدي وكأن الاسم الذي اخترته له لا يعجبها.

ولكن علام ألومها وقد أخذت مني كل شيء، حتى طباعي، فلطالما

كنت في شبابي مثلها مع أبي. لا شيء يجمعنا معا إلا اللقب. كنا لا نتلاقى إلا عند المالانهائي: تعرفون كما يحدث في الرياضيات حين يتوازى خطان، فلا يرجا لقاؤهما أبدا. كنت وأبي كهذين، لا يحتمل أن نلتقي إلا عند تلك النقطة المسماة كذلك. لم أكن أعرف حقا أين تكون بالتحديد ولكنني الآن بعد أن توفي يمكنني أن أجزم أنها في حياة غير هذه.

هـي مثلـي نعـم، ولكنها على عكسـي لا تكف عـن المحاولة. أحيانا أشعر أن ما يفرقنا ليس جيناتي التي ورثتها مني وجعلتها معي كما كنتُ أنا مع أبي. أشـعر أن ما يفرقنا هو ريماس الذي أصبحته، هو من جعلها تنأى عني، وكأنها بذلك تسألني أن أقتله كما أفعل الآن. ربما بعدها نعود أنا وهي كما كنا قبل أن ترشد، لا نفترق إلا لننام.

مـا لـم أخبرهـا به أنـني عادة ما أراهـا في أحلامي، هـي وحدها دون سـواها. حتـى أمهـا لا تجـرؤ أن تتصـور لي هنـاك، حيث يمكننـي أن أعود أنـا منفـردا بوجهـي وباسـمي وبذاتي دون أن أنظر خلفي خشـية أن يقتفيني ريماس.. أنا وحدي هناك مستلقٍ بين كتبي على أرض خضراء خضرة عيني ابنتي جميلة. لا شيء يدور بيننا غير الابتسام.

اليوم الخامس قبل العدّ

لست مجبرا أن أعود إلى أوراق الأمس. فأنا لم أكتب شيئا يستحق الافتخار.

لم أعد موقنا من قدرتي على إنهاء كتابي، على الأقل ليس في المهلة التي حدّدتها. ثمة شيء يمنعني من الاستمرار في الحكي، وكأنني أخشى حين أنتهي من روايتي أن أنتهي من الحياة. ربما لم أفكر جيّدا.. ربما لا يجدر بي بعد أن أنزع القناع وأرى وجهي.. ربما لست مجبرا على أن أكون أنا وأبقى معه كما كنت دائما.. ربما...

هذه المرة لن أفكر في مسألة الآجال اللعينة، حتى قتل ريماس لن أفكر فيه. كل ما يهم في الكتابة هي تلك النشوة التي تتركز في مكان ما بين الأصابع، أقصد على حدود الأصابع حين تتفتت الكلمات لتصير سكينا أو تفاحة أو وردة. سأستمر في الكتابة من دون أن أعبأ بأي شيء. حتى عن أمي سأكتب، ولتزجّ بي أينما شاءت، لا يهم. كل ما يهمني أن أستمر في سرد قصتي تلك التي تركتها معلقة حيث كنت أسير مفلسا وفي ذهني أن أبلغ "الحصيدة" المشرفة على لوتسمان ميشال، ربما أجد هناك واحدا من معارفي أقترض منه شيئا أو أقضي النهار معه ندخن ونتلهى بأي شيء، ولكنني وعلى عكس ما نويت غيّرت وجهتي لمّا حدث لي أمر بدا لحظتها كأنه إشارة من نوع ما، حين استوقفني شيخ يسألني أن أملأ له صكا بمبلغ ما.

حينها تذكرت أننا في الثاني والعشرين من الشهر. اليوم الذي تدفع فيه المعاشات. لم أشأ أن أفكر أكثر وانطلقت مهرولا حتى بلغت مركز بريد لوتسمان ميشان. استغرقت في السير نصف ساعة.

في الوقت الذي وصلت، كان المركز مكتظا بالمتقاعدين وكنت أدرك أن معظمهم أميّين يحتاجون إلى شخص متعلم يحرر لهم صكوكهم، وقد

كنت ذلك الشخص، إلا أنني هذه المرة اشترطت على كل واحد منهم أن يدفع لي أي مبلغ يشاء نظير خدمتي، وبالفعل لم ينتصف النهار حتى وجدتني أغنى من الشاب الذي كان ينوي قبل ساعات أن يقترض أو يقضي يومه في الأحاديث الفارغة مع أي كان.

هكذا طبعت سيرتي المهنية ونسختها من دون أن أضطر للاقتراض أو التسول. وما بقي معي بعدها كان يكفيني لقضاء أيام من غير أن أبحث في محفظتي عن النقود التي اعتادت أمي أن تضعها لي هناك.

فكرت وأنا أعود مساء إلى المنزل أن أشتري شيئا لأمي ولكنني أحجمت عن ذلك خشية أن تسألني من أين أتيت بالنقود، فلقد كان من الغباء أن أفتح عليّ بابا أعرف أنه لن يغلق إلا بعد أشهر، لذلك احتفظت بالمال لنفسي إلى حين ينفد.

قضيت بعدها ستة أشهر أنتظر ما لن يأتي. في الحقيقة لم أكن آمل في شيء، وبحسب ما أتذكر لم يكن بحثي عن وظيفة إلا لأوهم نفسي أنني أنفذ قراري بالانسحاب من عالم الأدب. كانت تلك طريقتي لأبتعد قدر ما أمكن عن عالم بقدر ما أسعدني وجودي فيه بقدر ما جعلني أشعر بتفاهتي، وبقدر ما كان خلاصا لي بقدر ما جعلني ألج أكثر العوالم نفاقا وأذى على الإطلاق، فلا زلت أذكر حين كنت أتلهف على اقتناء الجرائد أملا أن أجد اسمي مذكورا في أية صفحة. كنت، وقتئذ، لأصمد أكثر ولأستمر في حلمي لو أن أحدهم أخطأ ونشر خبر صدور إحدى رواياتي الأربع ولو في سطر واحد. كنت لأرضى أن أكون إشارة حتى في مقال تافه تفاهة صاحبه.

أذكر ذلك وبقدر ما أذكره، معترفا بتواضع مستواي حينئذ، بقدر ما أشعر بالأسى، ليس نحو نفسي بل نحو جميع هؤلاء المنافقين، المتملقين، المتسلقين شجرة الأدب. هؤلاء الذين رغم أنهم تجاهلوا وجودي وأنا بينهم أنا، اصطفوا أمامي خدما بمجرد أن صرت ريماس. أكان يجب أن أغير اسمي ولغتي ليعترفوا بي؟.. أكان يجب أن آتيهم من باريس ليخروا سجدا كلما ذكر اسمي على مسامعهم.. ليروني حقيقة كما يفعلون الآن..

لهذا أشعر بالأسى نحوهم من غير أن أقدر، فعلا، على الغفران.

ربما كنت أيضا أبحث عن عمل لإرضاء أمي. وحين أقول أمي، فأنا أقصد المرأة التي كانت لا تمل من الأمل، تلك التي أخذتُ منها في حياتها، وبعد موتها أيضا، كل ما جعلني قادرا على الاستمرار، فبيني وبين نفسي لم يكن ريماس رغم فضله عليّ سبب بقائي صامدا كل هذا الوقت. لم يكن هو من جعلني قادرا على الحلم، قادرا على السير، قادرا على البقاء، والأكيد، لم يكن هو من علمني فن الحكي كما أجيده الآن.

بالطبع لم أكن أميز وقتئذ بين الحكي والكذب، ولربما بقيت لسنين قريبة أخلط بينهما، بحيث لم أعد أجد حرجا في الكذب. كنت رائعا حين أختلق قصة على هواي وأنا ألوك الحديث: أبدؤها بحقيقة لا تقبل النقاش، ثم أبذر فيها القليل من الكذب، وأتبعه بحقيقة ثانية وبكذبة أخرى، لأجدني في النهاية ابتكرت قصة حول تاريخي الشخصي أصدق ما فيها ليس فيها.

أعترف الآن أنني كنت كذابا رائعا وممتازا بحيث أصدق كذبي وأنا متيقن أن لا أحد يقدر على كشفه.

كنت أكذب على الجميع، إلا على أمي، ليس لأنها كانت قادرة على كشفي (وربما كانت كذلك)، بل لأنني كنت أملك دائما سببا وجيها يمنعني من الكذب عليها.

مضت ستة أشهر لم يحدث فيها شيء غير الانتظار. ومع أنني لم أكن آمل في أي جديد، كنت أجد متعة رهيبة في محاولة تذكر سقف مقهى "ثلاثون". الغريب أن تفاصيله بقيت منقوشة في رأسي، حتى أنني كنت قادرا على إعادة رسم ما عليه بدقة لو كنت أملك موهبة الرسم. بالطبع لم أكن أملكها، ولم يسبق أن رسمت شيئا في حياتي قط، عدا تلك المرة حين كنت في الابتدائي وأمرنا المعلم أن نرسم أي شكل في الطبيعة. كان الخيار الأكثر بساطة أن نرسم شجرة. قضيت أسبوعا أحاول رسمها، حتى أنني تخيرت مكانا في "حديقة التجارب" وتموضعت كما يفعل أي رسام محترف وبدأت أرسم على لوحة بساقين، كان أبي قد أهدانيها سنة قبل

ذلك. اخترت المكان والشجرة وتخيرت وقتا يكون فيه الضياء بنسبة ما، أية نسبة؟!.. لا أذكر، وكأن الأمر يهم.

قضيت أسبوعا أحاول من دون جدوى. كل ما انتهيت إليه كان خطوطا تبدأ وتنتهي، ثم تتلاقى بأي اتجاه، لأخلص إلى شيء لا يشبه أي شيء، حتى أنه لا يرقى أن يكون بشعا فيوصف. في النهاية أدركت، يقينا، أنني لن أملك أبدا ملكة الرسم، ولكن إدراكي بذلك لم يكن يعني أن ثمة فرصة لإعفائي من واجب الرسم، لهذا قررت اختصار الطرق وإعادة رسم شجرة ما باستعمال ورق شفاف.

كان الأمر غاية في البساطة: تأخذ ورقة شفافة وتنقل عليها الرسم الذي ترغب فيه بقلم رصاص، ثم تثبتها على ورقة رسم بيضاء وتضغط بقلمك على رسمك بشدة ولكن من دون مبالغة حتى لا تتمزق، في النهاية تنزع الورق الشفاف وقد خلف ضغطك عليه أثرا على ورقة الرسم، فتمرر قلمك على الأثر فيتشكل الرسم من جديد.

فعلت ما يلزم وقدمت الرسم للمعلم مزهوا، وأنا أعلم أن رسمي دقيق إلى درجة الاحتراف. على الأقل هذا ما خلته قبل أن أكتشف، بفضله، أنني أخطأت ورسمت مقطعا بيانيا لبركان..

ومع ذلك، ما زلت مصرا على أنني كنت أذكر كل تفاصيل الرسم على سقف "ثلاثون" وكأنه نُقش في ذهني، ولسبب غير واضح تماما شعرت بحاجتي أن أراه مرة أخرى، إلا أنه لم يكن شعورا ملحا قبل ستة أشهر، فقد كنت منذ زيارتي للمقهى أول مرة أنفر من فكرة إعادة الكرة، فبرغم ما بدا عليه المكان من رقي، لم أر كيف يمكن لي أن أجد راحتي فيه. كان بالنسبة لي شبيها بتلك المقاهي الموجودة على أرصفة الشوارع الشهيرة في العاصمة، تلك التي لم يفهم أصحابها ولا زبائنها إلى أي عالم ينتمون. كنت أفضل، وما زلت، المقاهي الشعبية بضجيجها ووسخها ووجوه زبائنها الشاحبة، ففيها لا أحتاج أن أكون غيري، ولا أكون مضطرا أن أصطنع أي سلوك لم يكن سلوكي، ولا أطلب الإذن لأتحدث مع أي واحد وإن لم

تربطنـي بـه علاقـة. لا زلـت أذكر حين دعوت أحدهم لتنـاول فنجان قهوة. كان ذلـك حيـن ولجـت عالـم الكتابة أول مرة. أذكر جيـدا كيف تفاجأ وأنا أدخل به إحدى مقاهي "كلوزال". نظر إليّ باشمئزاز وتكلم من تحت أنفه: "أي مقهـى حقيـرة هـذه؟!". قالها وكأننا ندخـل ماخورا لمثليّي الجنس. لم أجبه لأنني ببساطة أدركت أي حقير دعوت لتناول القهوة معي..

ورغم نفوري منها، استمرت مقهى "ثلاثون" تضطهدني كلما خلوت مسـاء بنفسـي. كان في رسوم سقفها شـيء يدعوني لاكتشافه. هدوؤها غير العادي كان يملأ رأسي بضجيج أسئلة غير راغبة في الانتهاء.

قاومت الرغبة في زيارتها ستة أشهر، لأستسلم أخيرا وأقرّ بكل تعنت بصدق ما انتهى إليه الرجل القصير الذي قابلته فيها: "في هذه المقهى شيء سحري. ثمة ما يجعلك بمجرد أن تدخلها أول مرة حتى ترغب في زيارتها كل يوم"..

اسـتمرت الرسـوم تضطهدني، تماما كما تفعل زوجتي رغم رحيلها، ففي هذا الصباح استفقت على رائحة زوجتي. لم يكن الأمر غريبا ما دمتُ بالأمس غفوت في غرفة نومنا وأنا أعيد قراءة ما كتبت.

شـعرت بشـيء يشبه السـعادة وأنا أكتشـف البلل الذي صحوت عليه كمراهق استمنى أول مرة. لا أذكر أنني حلمت بشيء، ولكن الأكيد أن ثمة حدثا اسـتثارني أثناء رقادي حتى قذفت من دون أن أشـعر، غالبا ما تكون ذكرى زوجتي ما جعلتني أذكر ذكورتي من جديد، فلطالما كانت في الحب عاهرتي المفضلة.

كانت رائحتها تتوزع في الشـقة بشـكل يوهمني أحيانا أنها مختبئة في مكان ما. أحيانا أستعذب هذا الوهم، وأحايين كثيرة أصدقه فأبدأ في البحث عنهـا، لتقودنـي الرائحة إلى غرفة نومي. هناك تتراءى لي من جديد. بطريقة سحرية، تتكثف الرائحة في زاوية من الغرفة، تماما حيث اعتادت أن تجلس قبيل أن تستسلم للنوم، قبالة المرآة تمشط شعرها الأشقر الطويل المتموّج. لطالما استثارتني وهي تفعل ذلك، عارية وأنا أنظر إليها من الخلف، فيتكشف

لي ظهرها العاجي وخصرها الذي لم يترهل رغم تقدمها في السن.

أنظر إلى انعكاسها في المرآة، فأرى وجها بقدر ما عبثت به التجاعيد، حافظ على براءته وبريقه. كنت أنظر إليها وحدقتاي تتسعان وكأن عيني ترغبان في ابتلاعها. تتقطع أنفاسي وأنا أنظر إلى صدرها العرم وحلمتاها لا تلتفتان إليّ تسألاني القدوم. لا شيء كان يثيرني فيها بقدر إجادتها للعبة اللامبالاة، فلطالما شغلتني المرأة الممتنعة.

عادة ما كنت في لحظات وهمي تلك أمارس أقصى تخيلاتي إثارة وجنونا معا، ولكنني حين أستفيق وأنظر إلى المرآة فلا تنعكس عليها إلا صورة جسدي العاري، أتضاحك على نفسي، وأقنعها أن ما يصيبني ليس حنينا إليها بقدر ما هو ترجمة بائسة لرغبات جسدي في القليل من الجنس. حينها أهاتف واحدة من صديقاتي لتقضي الليلة معي، أية واحدة كانت لتخدر جسدي المتهاوي وتوهمني ألا شيء تغير منذ وفاة زوجتي. أما الحب فتلك مسألة أخرى. لم يعد في العمر بقية لأسعى إليه، حتى إنني ولأسباب لا علاقة للصدق بها، كنت أوهم نفسي أنني لم أحب زوجتي أبدا. ظل هذا الهاجس يسكنني حتى وهي على قيد الحياة. لم أشأ التفكير في الأمر كما اعتدت أن أفعل مع كل شيء. فقط، لأنني في ذهني كنت أخشى الاعتراف بحبها فأهوي. هكذا كان الحب بالنسبة إليّ، مجرد سقوط مستمر، غير آبه بالنهاية. أفزعني الأمر إلى درجة أنني فضلت أن أعيش كذبة لا غاية منها، وأنا الذي بقدر ما كنت أقدس الكذب وأرى بأنه ضرورة لا بد منها، بقدر ما كفرت به إن لم تكن له أية غاية.

حتى شعوري بالسعادة كلما اجتمعت بزوجتي، أو بالنشوة كلما تضاجعنا، لم أعترف به.

أما الآن ورائحة زوجتي تضطهدني، لم أعد قادرا على الإنكار، إلا ساعة أستفيق من صفعة الرائحة، لأكذب على نفسي مجددا، أدّعي أن ما يصيبني ليس حنينا أو أي نوع من الحب. ولربما وأنا في واحدة من أوضاعي التأملية الكثيرة، أقرّ بعبقرية ريماس حين حدثني مرة عن قدرة

الأجساد على الشم. كان حديثا خلّصني أخيرا من محنة البحث عن تفسير مقنع لما يحدث لي، حين تحلق بي رائحة زوجتي في عوالم تضطرني للشعور بوجودها.

الفكرة ظهرت مع أحد كتبنا. لم أعد أتذكر مع أية شخصية بالذات، ولكنني بمجرد أن سمعتها من ريماس حتى نقشت في رأسي إلى الأبد. اختفت أعواما، لتظهر مجددا حين بدأت أشيخ وأنا أدرك أن حبي لزوجتي لم يشخ بعد. بقيت مجنونا بها، حتى حين بدأت تلج من غير أن تدري عوالم الروتين المقيتة، تلك التي يصبح فيها الجنس مجرد عمل ميكانيكي يفرضه الزواج، مجرد واجب لا أكثر، يقتضي أن تتمدد وتفرج بين ساقيها وتنتظر أن تحدث الأشياء، حتى التأوهات تصبح ردة فعل جسدي لا يمكن أن تفسر بغير هذا. أما أنا، فلم أكن أجد نفسي راغبا في مثل تلك العوالم. بالطبع تمنّيت أن نشيخ معا، ونكتفي قبل النوم بحديث طريف عن الذكريات، ولربما بعناق غير مثير وقبلة على الجبين لا تاليَ لها. تمنيت ذلك من كل قلبي، ولكن عيناي كانتا كلما وقعتا عليها، تجمّلان جسدها العجوز، تختفي فجأة تجاعيد وجهها، وتغور نمشها الدموية، لتصبح العجوز المستلقية بجانبي هي نفسها المرأة التي عرفتها في شبابي. وبطريقة سحرية أنسى أنها زوجتي، ولربما في ذروة تخيلاتي تلك، أنسى اسمها أيضا، لتصبح مثلما رغبت دائما، عاهرتي التي أحب لعهرها. عاهرتي التي لا حدود لها وهي تدخل غرفة النوم. لتجبر العالم الفسيح في الخارج وجميع العوالم التي تملأ رأسي على الاندثار، وأرضى بغرفة نومي عالما لي.. غرفتي التي يحدث فيها بيننا كل شيء إلا النوم.

لسبب ما، كان يخجلني أن أستمر في حبها كما كنت أفعل دائما. لم أكن قادرا، حتى حين أنافق نفسي، أن أفصل حبي لها عن رغبتي فيها. والحقيقة كنت أحتقر كل تلك الأحاديث عن الحب العذري، هذا الذي لم أفهم أبدا معناه، وبقدر ما سعيت سابقا إلى فهمه، بقدر ما تيقنت أنه مجرد مثالية، لا يسعنا حين نكتشف سذاجتها إلا احتقارها أكثر فأكثر.

وحيـن أعيانـي السـعي إلى الاقتناع، قـررت أن العالم لم يخطئ في تفسـير الحب. وحدي أنا من أخطأ حين اعتقدت أنني أحب زوجتي. لم يكن حبا ما شعرت به نحوها. أقنعتني أنه مجرد رغبة من نوع خاص.

هكذا قررت في النهاية أن أومن بأكبر كذبة كذبتها. في الحقيقة كانت كذبة تستحق عناءها. على الأقل هذا ما تصورته وأنا أشعر بتلك الراحة التي جعلتني منسجما مع نفور زوجتي مني وتهافتي المتزايد عليها.

كانت فكرة ريماس هدية السـماء إليّ، فحين ظهرت مجددا، جعلتني أفكر في أن رائحة زوجتي ما جعلني أستمر في حبها.

"الأجساد قادرة على الشم، ليس كما نفعل بأنوفنا"، قال لي ريماس، "بـل بطريقـة أكثـر بدائيـة، تجعلنا نحِـنُّ بعقلنا الباطن إلـى حيوانيتنا. إنه أمر بديهـي لا يحتـاج إلـى برهان، حتى إن الجدل حوله يجعلنا أقل كفاءة عقلية من البشر".

لا أزال أذكـر حديثنـا معـا. ربما كان آنـذاك حديثا تافها ولكنه أضحى لاحقا مرتجى الخلاص بالنسبة إليّ.

"رأيت مرة مشهدا جعلني أفهم الأمر. لا أذكر متى ولا أين، ولا حتى من رأيت. فلا شـيء يهم حقيقة أكثر من ذلك الكفيف الذي رأيته يضاجع امرأة ضريرة. كانت مستلقية على سريرها والرجل واقف بجوارها، لا يعلم أين رأسـها من قدميها، ولكنه حين مال عليها، لم يجهد نفسـه ليعرف أين موضـع سـاقيها. لم يتحسّسـها ومع ذلك كان يعلم أيـن كان عليه أن يجعل رأسـه ليلعق غلالتها. كأن ثمة شـيئا أخبر جسـده ليكتشف موضع كل عضو في جسدها. في هذه اللحظة، وعوض أن يستثيرني الأمر، أدركت كم كنت غبيا لأنني لم أكتشف الأمر من قبل. آه يا شريكي، احتجت لعميان ليدلوني على الطريق..".

لكنني في هذا الصباح المتأخر، حين استفقت ورائحة زوجتي تملؤني. لم أشأ أن أتخلص منها بمهاتفة إحدى صديقاتي. حتى إنني لم أفكر في أن أطلب من جارتي أنيسة الصعود إليّ.

كانـت أنيسـة أكثر صديقاتي جموحا علـى الإطلاق. ولجموحها ربما لـم أعـد آبه بمهاتفة سـواها كلما شـعرت بالوحدة أو بالرغبـة في التخلص مـن رائحـة زوجتـي. بالطبـع لـم أخبرها أنهـا أصبحت المفضلـة لديّ. كل مـا أخبرتهـا به هـو نظريتي فيما يخص علاقتنا وعلاقتي بسـواها، تلك التي جعلتني في مأمن من عرائض الزواج التي كان من شـأنها أن تسـلبني متعة الوقـت الـذي أقضيـه مـع صديقاتي اللواتي كن بالنسـبة إليّ أسـمى من أن يصبحن مجرد صناديق بريد أودع فيها مشـاكلي التي وإن أحسـنّ الإصغاء إليها – مـا كـن قـادرات على فهمهـا. وحدها زوجتي من كانـت قادرة على فهمي، أو هكذا اعتقدت وأنا أضع نظريتي تلك حول الصداقة بين الرجال والنساء. في النهاية، لا حاجة لأي رجل بأن يحول المرأة التي يشتهيها إلى أذن تصغي لترهات حياته، كل ما يحتاج إليه، لحظات خلق معها، ينصهران خلالها، فيشـكلان معا مخلوقا مثاليا، غارقا في بدائية التكوين. مخلوق لا يحمـل أي جنـس، أو يحملهمـا معـا، ذكر وأنثى، وكأنه كائـن نوراني وجد للسعادة لا غير، وإن كانت مؤقتة، معلومة البداية والنهاية. ومع هذا يتوحد جسـداهما ليكوِّنا جسـدا غاية في الجمال لحظة الانصهار. بعدها لاشـيء يهم، غير ذلك الفراغ الذي يتسـلل إلى كليهما، وهما يحاولان اسـتحضار شـعورهما فـي ذروة النشـوة، تلك التـي في أثنائها يصبـح الدين والأخلاق وحتى الضمير، مجرد أوهام يمكن القفز عليها.

مع أنيسة لست مجبرا على استعمال الهاتف. يكفيني فقط أن أضرب أرضية المطبخ بالمكنسة ثلاث مرات. إن كانت ترغب في نزولي إليها ترد على سقفها بضربة واحدة، وإن كانت ستصعد إلى شقتي ترد بضربتين، أما إن لم تكن بمفردها أو غير راغبة مثلا، فلا ترد. ومع ذلك، ورغم هذا الجهد اليسـير، لم أطلبها. لم أعد أملك من الوقت ما يسـمح لي بالتفكير في من سـأهاتف أو مـع مـن أقضي ليلتي اللاحقة. لم يبـق أمامي إلا أيام قليلة قبل قدوم ابنتي، وهو وقت لا يسمح إلا بالكتابة وبالمزيد من الكتابة إن رغبت في الانتهاء من كتابي قبل رحيلها.

اليوم الرابع قبل العدّ

كانت زوجتي (هكذا سأبقى أذكرها من دون اسم) امرأة طيبة، وكانت طيبتها خيارا قامت به حين قررت أن تجيب بـ"نعم" على سؤالي لها بالزواج مني. أدهشني أنها قبلت بي وأدهشتها حين طلبتها للزواج، ولعل القدر قد ذعر حين بقينا معا كل تلك السنين.

كنت في العشرين من العمر حين رأيتها أول مرة. كان أبناء الحيّ يسمونها "العنابية" بسبب لكنتها وادعائها الكاذب أنها من تلك المدينة. لا أدري لمَ كانت تقول أنها من هناك، حتى أنني لسبب ظل غامضا لم أسألها عن ادعائها أنها تربت وولدت في عنابة، وأن والديها أيضا ينتسبان إليها، فقد كان الذي بيننا يشبه الاتفاق الضمني في أن لا نسأل بعضنا فيما لا ينفعنا لاحقا. كنا نكتفي ببعض وكأننا عشيقان تواعدا لليلة واحدة فحسب. لم يكن "القبل" ولا "البعد" يهمنا في شيء، وكأننا أدركنا من دون أن نتناقش في الأمر أن "الدائم" مجرد وهم لا جدوى منه.

ربما لعبت ظروف لقائنا معا دورا في قراراتنا، أنا وزوجتي، فكما قلت عرفتها وأنا في العشرين من عمري وكانت هي وقتئذ في الخامسة والعشرين.

هل أحببتها حينئذ.. لا أظن، فوقتها لم أكن في عجالة من أمري. كانت الحياة أمامي مناديل معطرة.. كانت شاشة بيضاء يمكنني أن أرسم عليها ما أشاء.. سقفا لا نهائيا لقبة سماوية كبيرة كبر السماء.. احتمالات لا تفهم في المستحيل، أما الحب فلم أكن قد حفظت كلمته لأفهم معناه.

ومع هذا كانت الأشياء تتحرك في جسدي لتوهمني بشعور الحب كلما مرت بالجوار. كنت أشعر بالرغبة في التجمد كلما وقعت عيناي على وجهها المرسوم بيد إلهية رسمته في ساعة عبقرية. أشعر بالحمى كلما

تحـرك نهداهـا صعـودا إلـى الجنة ونزولا إلـى الجحيم وحلمتاهـا واقفتان تحاولان أن تمزقا قميصها وكأنهما ترغبان في الانعتاق.

كنـت أشـعر بـكل ذلك وبكل الأشـياء في جسـدي تتحـرك رغبة في التوحد، أنا وهي، أو رغبة في الانصهار.

لم أكن أحبها وقتئذ، ليس بسـبب جِدّة عمري فحسـب، بل أيضا لما أصبح يشـاع عنها، بعد أن وجدوها ليلا في مسـتودع العمارة تفعل شـيئا لـ "موح بوخنونة" أو صاحب المطرقة كما أصبح يسمى لاحقا بسبب حجم آلته مثلما وصفها من رأى الواقعة.

الآن، وأنا أذكر هذه التفاصيل أشـعر بالضآلة والقرف من نفسـي، ألم أكـن قـادرا علـى أن أكتـب مثلا أننـي تزوجت من عاهرة أكبـر مني بخمس سـنوات وأكتفي بهذا.. ألم أكن قادرا على الامتناع عن سـرد تاريخ زوجتي الأسود ما دمت أدّعي أنني من السماحة واللطف بحيث ترفعت عن تاريخها ونسيته.. بالطبع لم أكن قادرا، ما دمت قد وعدت نفسي أنني سأكتب كتابي، روايتي التي لم أكتب سواها، تلك التي تصفني، تعريني وتعيدني إلى الحياة.. حياتي أنا كما عشتها وليس كما كنت راغبا في عيشها، تلك التي لا أكذب فيها وكأنني أكتبها لتقرأها أمي، تلك التي بقدر ما تفضحني بقدر ما تبعثني مـن جديـد وتقبر ريماس إيمي سـاك الذي صرته رغبـة في أن أكون الرجل الذي لم أكنه في الحقيقة أبدا، فقلة هم الرجال الذين يقدرون على تحقيق أحلامهـم وعيشـها، ومع هـذا فهم أقل حظا من الرجال الذين عاشـوا حياة قدرت لهم.. تلك كانت حياتي التي قدرت لي، ليسـت الحياة التي عشـتها بوجـه ريمـاس رغـم أنني بهـا حققت حلمي، هذا الذي طرقـت بابه بعد أن قاومت إغواء مقهى "ثلاثون" ستة أشهر كاملة ولكنني في النهاية استسلمت لرغبة زيارتها مرة أخرى.

أذكر اليوم جيدا، كان يوما ماطرا على غير عادة أيام هذا الشهر. دخلت بـاب الـواد باكـرا، ربما كانت الثامنـة صباحا، تزيد أو تنقـص ببضع دقائق. وقفت في آخر مكان تذكرته عقب زيارتي لمقهى "ثلاثون" قبل ستة أشهر.

كنت أعلم أنني سأكون محظوظا لو تذكرت الموقع جيدا، فلم أكن أذكر في أي اتجاه سرت بعد أن خلفت "الساعات الثلاث" ورائي، ولا أي زقاق سلكت بعدها، إلا أن ثمة شيئا في داخلي فرش لليقين حتى أوهمتُني أنني سأعرف الطريق إلى المقهى دون عناء، وبالفعل وجدتها في المكان الذي لم أكن أدرك حتى وجوده.

دخلت المقهى فاستقبلني النادل بابتسامة ألطف من تلك التي لقيني بها أول مرة. رحب بي حين تجاوزت الباب الزجاجية: "تفضل، تعرف مقعدك بالطبع".

أعجبني أنه لم ينسني رغم طول المدة، وتقدمت إلى الطاولة التي جلست فيها أول مرة.

كانت المقهى مكتظة في هذا اليوم أيضا، حتى كدت أجزم أن نفس الزبائن الذين رأيتهم في المرة السابقة، هم بالتحديد من يملؤونها. كان الأمر غريبا ألا يتغير أي وجه، ولكن الأغرب أنهم كانوا يحتلون نفس المقاعد بجانب نفس الطاولات.

لم أعر الأمر انتباها وأنا متلهف للالتحاق بمقعدي وتأمل السقف من جديد.

هذه المرة تمكنت من رؤية تفاصيل أكثر في رسوم السقف، فثمة خطوط تكاد تكون غير مرئية تفصل بعض المشاهد وكأنها تشير إلى انتهاء قصة ما، ثم إن هناك تواقيع مختلفة على اللوحة، خمّنت وقتها أن السقف من عمل أكثر من رسام، كل واحد وقّع عمله باسمه، لكن تفاصيل الأوجه على وجه الخصوص جعلتني أعزف عن هذا الرأي، لاسيما طريقة رسم العيون التي رسمت جميعها بنفس التقنية، والأهم من كل هذا أن جميع شخوص رسوم السقف رسمت بطريقة جعلتهم بشعين إلى أقصى حد ورغم ذلك تشعر نحوهم بالشفقة والرأفة بسبب أعينهم التي كانت جميعها واسعة بمُقل عسلية تتركز وسطها نقطة بيضاء آيلة للأصفر.

بحلول المساء وجدتني قد استهلكت أكثر من ستة فناجين قهوة وأكثر

مـن نظرية في تفسـير رسـوم السـقف، من دون أن أكون قـادرا بالفعل على حسم أمري بشأنها، لم يزعجني أمر ترددي على عكس ما كنت عليه طوال حياتـي، أعنـي تلـك التي صرت فيها ريماس إيمي سـاك، فقبله كنت واحدا مـن المترددين، هـؤلاء الذين لا عمل لهم إلا التفكير فـي العواقب، وكأننا نملـك فـي هـذه الحياة وقتـا نضيعه في الارتباك وفـي التفكير غير المجدي في غد ليس ملكنا بعد.

أعتـرف أننـي كنـت قبل أن أصير ريماس كهـؤلاء، ولكنني بمجرد أن اندمجنا حتى تحررت من الخوف.. الخوف مما قد أكون. فمهما يكن، لم يكن تحولي إلى ريماس كله مساوئ، أعترف له بهذا وأنا على وشك قتله، ولولا أنه صار يحجبني عن نفسي لما فكرت أبدا في التخلص منه، فريماس كان دوما أكثر ما فيّ تمردا وثورة ومغامرة، والأهم أنه كان صاحب الفضل في عودتي إلى عالم الكتابة، ومع ذلك لم يكن أبدا أكثر مني عبقرية وإبداعا.

الآن وبعـد هـذا العمـر، يمكنني أن أجزم بأنـه كان وراء قرار زواجي. أدرك أننـي رغـم حبي لزوجتي مـا كنت لأجرأ لو لم أكن هـو على الزواج منها، حتى إنني أكاد أقسـم أنه هو من كان يحدث أمي بشـأنها من دون أن تـدرك أنهـا لا تحـدث ابنها الذي أنجبته، بل الرجل الذي قررت أن أكونه.. أقصد ذاك الذي أنجبته أنا.

أذكـر وجههـا جيدا حين فاتحتهـا بالموضوع. وقتها كان أبي قد توفي ولم يعد يقيم في البيت إلا إيانا، أنا وهي..

- أنت تمزح بالطبع؟!..

قالت وعيناها اتسعتا وكأنهما ترغبان في الخروج من وجهها الذي بدا لي أحمر رغم سمرته.

ابتسـمت لهـا برأفـة وأنـا أدرك منتهـى حديثنا، فلقد كنـت أعرف أنها سترفض مهما قلت، ومع هذا كان لا بد لي أن أبلغها بقراري، ليس لأن لها يدا فيه، بل لأنها أمي.

- أتعرف من تكون وفيم تعمل؟.

سألت وهي تعلم أنني أعلم، ولكن لم يكن مفر من السؤال لتشعرني بالذنب.

رغبت ساعتها في أن أشرح لها كيف أنني حين تحولت إلى ريماس، لم تعد مشاعر الخوف والذنب والندم مشاعر تغمرني،. لم أعد قادرا على فهمها ومنحها نفس المساحة التي كانت تملكها حين كنت أنا منفردا. أردت أن أفهمها كيف تخلصتُ من مطرقة القاضي وألقيت سوط الجلاد.. كيف أن الضمير لم يعد أكثر من لوحة أزين بها واجهتي.. أردت أن أقول لها كل ذلك ولكنني أجبت ببلادة:

- أعرف.. أعرف لم أكن أعمى.

لسنوات فكرت في إجابتي تلك، وكلما تأملتها وجدتها أسخف ما وصفت به نفسي "لم أكن أعمى". أتصور الآن أنها كانت أول وآخر كذبة قلتها لأمّي.

ومع أنني وقتما كنت أتأمل رسوم سقف مقهى ثلاثون لم أصبح ريماس بعد، إلا أن ترددي في حسم أمرها لم يكن مبعثه الخوف من الوقوع في الخيار الخاطئ بقدر ما كان حرصا، غير مبرر وقتها، على أن أفسر تلك الرسوم تفسيرا صحيحا، وكأنني حدست أن لها، أو سيكون لها، علاقة بلاحقي، لذلك لم آبه أن يضيع مسائي في تأمل غير مجد لها، أو هكذا فكرت قبل أن يعود الرجل القصير ليجلس معي مجددا.

في ذلك اليوم جاء غير حليق الذقن. بدا متعبا إلى درجة أنه جلس دون أن ينظر صوبي ومن غير أن ينبس بكلمة. كل ما فعل أنه أشار للنادل، ليحضر له فنجان قهوة وعلبة سجائر.

شدني الفضول لأسأله عن حاله أو أذكره بنفسي، بعد أن تبيّن لي أنه لم يلاحظ وجودي، وكأنني كنت لامرئيا بالنسبة إليه، إلا أنني أحجمت عن السؤال وفي ذهني أربعون عاما قضيتها في "ما وراء المرايا". ففي فترة ما، تخيّلت أن ثمة مكانا يفصل بين الوجود والعدم.. منطقة وسطى بين العالمين، يمكن لمن يلجها أن يتحول إلى كائن مرئي ولامرئي .. ظاهر

وخفي في آن واحد، بحيث سيملك ميزة أن يرى الجميع من غير أن يلاحظه أحد. وبقدر ما فكرت في خصائص هذا المكان، فلم أجد أفضل من أن يكون عالما حدوده مرايا، يتوسطها ويكون خلفها في الجانب غير العاكس.. هكذا فكرت في "ما وراء المرايا" منطقة وسطى بين عالميْ المرئيين الظاهرين واللامرئيين الخفيين مثلي أنا قبل أن أصبح ريماس إيمي ساك، فمنذ ولادتي وأنا كائن لامرئي بامتياز، حتى أنني كنت أشعر أنني أكثر أبناء هذا الوطن (وطن اللامرئيين) انتماء ووطنية، فبحسب ما أخبرتني به أمي، فقد ولدت في يوم ماطر، وكما قلت، ولدت في الرابع والعشرين من يناير، سبعة أشهر بعد دخول أبي إلى السجن.

لم يمض على رحيل أبي ثلاثة أشهر حتى بدأت نساء القصبة، حيث انتقلت عائلتي قبل عشرة أعوام من ميلادي، يشعن أن للويزة، أمي، عشيقا يغدق عليها بكل الخيرات. ظهر فجأة كما زعمن بعد رحيل والدي، وهو على الأرجح أحد زملائه في العمل. كن يقلن ذلك على مسمع أزواجهن، ملفقات قصص حتى أمي كانت عاجزة على اختراعها. ومع أنهن كن يبتكرن في كل مرة قصة غرام مختلفة، إلا أنهن كن يحسنّ تنميقها بحيث يجعلن أمر تصديقها مسألة وقت لا أكثر، حتى بات أمر "خيانة" أمي مفروغا منه وإن بدا من المستحيل معرفة هوية شريكها.

هكذا انتشرت الإشاعة، وككل إشاعة نسائية حسَنَة الحياكة، فقد خرجت من دوائر النساء إلى لقاءات الرجال، مع إضافات لا يعلم إلا الله كيف دُوّنت على هوامشها، ثم كيف تسللت إلى نصها الأصلي لتصبح جزءا منها. ومع كل تلك الإضافات التي اقتضتها النصوص الرجالية، لم يتمكن أحد من معرفة هوية الشريك.. شريك أمي في الخيانة.

ولعل الأمر بدأ كالتالي: توقف جدّي، والد أمي، عن زيارة مسجد سيدي محمد بن شريف بأسفل القصبة، أين كان يعمل معلم قرآن، من دون أن يعرف أحد سبب توقفه، حتى أنه لم يعد يرتاد المسجد للصلاة، وشاع أنه طريح الفراش، ولكن لم يكن لأحد أن يجرؤ ويسأل عنه والجميع

يعلم بغياب أبي، وليس في البيت إلا النساء: أمي، جدتي وأخواتي التسع، فظلت مسألة غيابه مبهمة على أمل أن يظهر جدي ويشرح أسباب تخلفه عن الصلاة والتعليم، إلا أن جدي لم يظهر، ولم يعد يُرى إلا أمي وهي تخرج لقضاء الحوائج.

ذات مرة استوقفت أمي "غنية امرأة عيسى بن سليمان"، جارتنا باللصق. وكانت هذه امرأة نمامة، صاحبة لسان لا يخرج من فمها إلا لأحد الأمرين، إما للعق وإما للنميمة، فلطالما عرفت بعد مقتل زوجها عيسى بن سليمان في الحرب الكبرى الأولى أنها تعمل قوادة للعسكر الفرنسيين، ولعلها قبل أن تبلغ هذا العمر، عملت في العهر سنينا جعلتها لاحقا تحسن عمل القوادة حتى أصبحت قبلة العسكر الفرنسيين والعرب على حد سواء.

لم يدم حديثهما إلا دقائق، ولكنها كانت مدة كافية ليشاع لاحقا أن أمي إحدى فتيات غنية.

ومع أن سمعة "غنية امرأة عيسى بن سليمان" كانت كافية لتلطخ أية سمعة، إلا أن الذي جذَّر الإشاعة في الحي أكثر، لم يكن أكثر من تذمر الأمهات اللواتي يئسن من عودة أولادهن إلى المدرسة القرآنية للدراسة، فكان وجود هؤلاء المستمر معهن، بكل ما يعنيه ذلك من مسؤولية إضافية، سببا كافيا لتطلق إحداهن لسانها بشتيمة عفوية تذمرا من "تكاسل" جدّي عن العمل، ولم يكن أفضل عندها من وصفه "أب العاهرة"، وبالتقاء الصدفتين: حديث أمي مع غنية ووصف جدي بأب العاهرة، لم يعد ثمة من شك أن أمي عاهرة تخون أبي في غيابه.

كان من الغريب ألا يبلغ أمي شيئا من هذا إلا بعد سنين، أي حين بلغت السادسة من العمر، فقد حدث أن تشاجرتْ مع أبي وقررت الطلاق منه بعد أن واجهها بما أشيع حولها في غيابه. أذكرني يومها مع أخواتي التسع نسير ووالدتي تسبقنا بحايكها الأبيض المرمَّى وعجارها [1]المطرز بعناية، فلطالما

(1) العجار: نقاب أبيض. المرميّ من أرقى أنواع "الحايك".

كانت أمي تعتني بجسدها ولباسها، فبالرغم من أن "الحايك"[1] كان يستر كل جسدها إلا أن مشيها المترنح وقعقعة حذائها ذي الكعب العالي وعينيها المكحلتين وعطرها، كانت تجعل كل من تمرّ بقربه يقترض لحظات من وقته ليتأملها. لا أدري ما الذي كان يجعلني سعيدا بأن تكون أمي محط أنظار، فلم أكن أشعر أن من كانوا يتغزلون بها يحطون من قدرها، ولا حتى أنهم يدنسونها بنظراتهم تلك. كنت أراه مديحا من نوع ما.. مديحا لأمي.

كنا نسير كقطيع غنم يدرك كل خروف منا مكانه: أمي في المقدمة، ثم أخواتي التسع وأخيرا أنا، جميعنا متوجهون إلى حيث قررت أمي وإلى حيث أعلمت أبي أنها ذاهبة.

لم يكن الأمر هينا على الصبي الذي كنته أن يقطع كل تلك المسافة بين "إيزلي" و"لارودوت"، ولكنها كانت تستحق العناء أو هكذا بدا لي حين استقبلنا خال أمي ببشاشته التي لم يستطع، لاحقا، حتى الموت أن يمحها (قصة عايشتها بنفسي لن أحكيها لاحقا).

المهم، إنه بعد أيام جاء والدي ليزورنا.

لم تمض دقائق على دخوله حتى امتلأت شقة خال أمي الهادئة في العادة صراخا، حتى بالكاد تميز بين من كان يشتم وبين من يرد الشتيمة، وخال أمي بين ابنة أخته وصهر شقيقته يحاول أن يمسك بأي لجام ليصمتا، ولولا صراخ زوجته الذي فاجأ حتى خال أمي لما توقف والداي عن النباح.

كانت صرخة قوية، مدوية بصفير وحشرجة متوحشة، لا أزال أذكرها وكأنّ بقية منها حُبست في رأسي، ليس لقوتها فحسب، بل لأنها صدرت من شخص لم يعلم أحد، حتى خال أمي - زوجها، لماذا أطلقها ما دام يستحيل الافتراض أن شجار والديّ أزعج زوجة خال أمي، على اعتبار أنها ولدت صماء بكماء، بمعنى أن هدوءها ما كان ليعكر صفوه أي شجار

(1) دثار أبيض كانت تضعه المرأة الجزائرية لاسيما القاطنات في المدن، يحقق نفس غاية الحجاب، اندثر واختفى وجوده في السنوات الأخيرة.

أو أي صراخ.

مهمـا يكـن، بمجرد أن انتهت زوجـة خالي من صراخها، وبمجرد أن تراجع صداه في رؤوسـنا، حتى عاد والداي إلى الشـجار، ولكنه هذه المرة كان شجارا مدنيا يقبل التحكيم..

في النهاية اعتذرا لبعضهما وعدنا جميعا إلى المنزل، إلا أن عودة أمي، كما أخبرت والدي، كانت موقوفة على شرط قبله أبي بعد تلكؤ.

احتجت لأكثر من اثني عشرة سنة لأعرف شرطها، وحين عرفته أيقنت أن حبي لأمي لم يكن بسـبب أنها أمي فحسـب، بل لأنها كانت عادلة حتى في انتقامها.

كانت تلك أول مرة يتشاجر فيها والداي، ولعلها كانت الأخيرة، على الأقـل هـذا مـا تحفظه ذاكرتي، تلك التي جعلتني أسـرد هـذه القصة لأثبت كـم كنـت لامرئيـا طيلة الأربعين سـنة السـابقة لميلاد ريمـاس، فحين تقرر اعتقـال أبي بسـبب عمله السـري وقرع الجنود الفرنسـيون بـاب دارنا، كان والداي يعبثان وقد اطمأنا لنوم أخواتي التسع، وحين زاد وقع القرع انفصل جسداهما من دون أن يرغبا فعلا، ولكنهما ما كادا ينفصلان حتى شعر أبي بسـاقيْ أمي تعيدانه بينهما، ثم تضغطان على أسـفل ظهره ليخر مستسـلما لولا ازدياد شدة القرع على الباب وقد أدرك أنهم العسكر الفرنسيين، لذلك فصل نفسـه قسـرا وهو في بداية النشـوة، بدليل أن بعضا من منيه تمكن من الإفـلات وحبـس الخـوف جله في خصيتيه. لا أحـد كان يعلم بالتدقيق أي العالمين اخترتُ في تلك اللحظة: غلالة أمي أم خصيتيّ أبي، حتى هما لم يعلما حينها.

اليوم الثالث قبل العدّ

سبعة أيام مضت منذ قررت أن أبدأ من جديد. ومع كل الذي كتبته لحد الساعة، أشعر وكأنني لم أكتب شيئا، على الأقل ليس بالشكل الذي ارتسم في ذهني أول مرة، على عكسي، تماما، حين كنت ريماس، أكتب دوما بالشكل الذي يرتسم في ذهني أول مرة.

هل هذا فقط ما يفرقني عنه؟.. أسألني وأنا أدرك كم كنت منافقا حين قبلت أن أكونه رغم شعوري الدائم بالقرف منه ومن كتاباته التي كان يجبرني أن أحررها بآلية مقيتة ولكنها دقيقة للغاية، تبدأ بالحدث الذي رسم تفاصيله بدقة وتنتهي عند النهاية التي كان يعرفها منذ الحدث الأول. كنت أراقب شعوره بالتميز، غروره الشبيه بغرور الإله الخالق حين يخلق ويجبر مخلوقه أن يسير وفق ما يريده هو، لا وفق ما يقرره المخلوق.

أعترف أنه كان قادرا على خلق ما يريد وقتما يريد، ما دام كل ما يخلقه سيزيد من تألهه المجنون، ومع ذلك كنت أضيف إلى ما يكتب شيئا من نفسي. كانت تستهويني قصص أمي، فأجد دائما طريقة لإقحامها في رواياتنا، أنا وهو، تماما مثلما فعلت في "اللامرئي" التي اقترحت فكرتها عليه وأنا أسرد عليه شعوري وأنا قبالة الرجل القصير في مقهى "ثلاثون" حينما لم يعرني أدنى انتباه. وجد الفكرة رائعة وأخذ يخطط لها، في رأسي، وأنا مجبر أن أصغي إليه وأدوّن ما يهمس به في داخلي، ولكنه في لحظة ما توقف عن الهمس لأزيد من شهر، فوجدتني أسرد فيها قصة أمي عن ميلادي الغريب، ذلك الذي وقّعتُ به دخوليَ الرسمي والأكيد إلى عالم اللامرئيين.. عالم "ما وراء المرايا".

أذكر ذلك اليوم جيدا (كان يوما ماطرا أيضا). أخذت أقرأ بتبرم ما حرّرته من قبل. وجدت الرواية مملة بسبب منهجها الصارم ولغتها

الممنهجـة، الصادقـة والكاذبـة فـي آن واحـد. حينهـا شـرعت بالكتابة عن ميلادي بشغف امرأة عاشقة تكتب رسالة حب لأول مرة. اليوم، وإن مضى على كتابة تلك الرواية كل تلك الأعوام، أستطيع لحد الساعة إعادة ما كتبت بالتفصيل وبالدقة نفسها، ربما لأن قصة ميلادي كانت القصة الوحيدة التي لم تغير فيها أمي أي حدث، والأكيد أنها أكثر ما كانت أمي تعيد حكيه من دون ملل..

فبعـد رحيـل والـدي، أصيبت أمي باكتئاب شـديد. كانـت مدركة كم سيكون من الصعب إطعام تسع بنات وأبوين. كانت تفكر في الأمر بجدية، خاصة بعد أن اضطر جدي للتوقف عن العمل بسبب إصابته بالعمى وبشلل نصفي أقعده الفراش، حتى بات من المسـتحيل أن يخرج لعشـرة أمتار من البيت.

لم يسـتمر اكتئابها أكثر من شـهرين لتقرر في النهاية أن تخرج بنفسـها بحثـا عـن عمـل، إلا أنها اسـتمرت في عادة اكتسـبتها وقتمـا كانت مكتئبة. كانـت تـأكل بشـره غريـب حتى ازداد وزنهـا. ربما كانت تلـك طريقتها في التذمـر والحـزن، ولكنها لم تكن طريقة مواتية لتجد أي عمل. بهذا أخبرتها "غنية امرأة عيسى بن سليمان" حين التقتها بالصدفة بمحاذاة جامع كتشاوة..

- بالـكاد عرفتـك حبيبتي. الله يبارك كأنـك صرت امرأتين في امرأة واحدة..

ضحكـت أمـي وهـي تدرك أن غنيـة لا تمدحها بقدر ما تسـخر منها، ولكنهـا أطالـت فـي ضحكتها رغبة في إبقاء خيـط الودّ معها، ليس حبا فيها بل اتقاء لشرها وشر فتياتها. فلم تكن أمي لتنسى تلك الخدمة الجليلة التي أسدتها لها حين أعلمتها بارتياد أبي لمنزلها وغرامه ببغيٍّ أوقعته في شراكها، وكيف عملتا معا للتخلص منها، خدمة اعتبرتها أمي شريفة من امرأة أبعد ما تكون عن الشـرف. بالطبع كانت أمي تدرك أن "خير" غنية لم يكن لجمال عيونهـا، ولعلهـا كانـت تعلـم أن أبي كان أكثر زبائنها وفـاء، ولكنها لم تكن تعبأ ببغايا الليلة الواحدة.

أضافت غنية مستحلية حياء أمي:

- لا تؤاخذيني عزيزتي، ولكن لا يليق بالمرأة المتزوجة أن تسرف في السمنة، صدقيني فأنا أعرف ما أقول..

ثم أخذت تسرد عليها قائمة طويلة من أسماء رجال الحيّ ممن أصبحوا زبائن لديها بسبب ما وصفوه إهمال زوجاتهم، وهم في ذلك لا يقصدون إهمالهن لأشغال البيت، فهذا يمكن معالجته ببعض السبّ والضرب. وأضافت لتختم نظريتها: "مهما كان الرجل، فهو لا يحب أن تصبح امرأته كائنا لا يُميَّز صدره من بطنه".

كانت أمي تصغي لغنية بحياء واهتمام ظاهرين، وفي سرّها تكيل لها الشتائم، واحدة تلوى الأخرى. والحق أنها كانت تحتقرها إلى درجة المقت.

- أعرف. "قالت أمي". ولكنني لم أعد قادرة على الامتناع عن الأكل.

ثم أضافت بفتور:

- أشعر باكتئاب شديد منذ توقف عني الطمث.

- أيعقل أنك حامل؟

سألت غنية وهي تدرك استحالة الأمر، فقد كانت أمي في الخمسين من عمرها، ولم يكن أبي موجودا ليزرع في بطنها أي شيء، ومع كل خسّتها، فلم تكن غنية لتفكر ولو لمجرد التفكير أن تحمل أمي عن سفاح.

ضحكت أمي حتى تبلل عجارها من الريق. قالت حينما هدأت:

- مجنونة أنت يا غنية.. تعلمين، كل ما في الأمر أنه حدث معي ما يحدث مع الكثيرات ممن هنّ في مثل سني.

- تقصدين سن اليأس، حسبتك متعلمة يا بنت أبيها.

وبالفعل، فقد كانت أمي متعلمة، بمعنى أنها تحسن فك الخط الفرنسي، ولعلها كانت تقرأ سطرا أو سطرين بجهد ولكن من دون خطأ، ومع ذلك كانت تقرؤه في النهاية إذا كان بالفرنسية، فلم تكن تجيد من العربية إلا ما يجيده الأعمى من النظر. كل ما تعلمته، وما تركها جدّي

تتعلمه، كان نطق الحروف اللاتينية وكتابة اسـمها ومن ثم التوقيع به، حتى القرآن لم يعبأ جدي بتلقينها إياه.

ها أنا ذا أسـرد قصة لم أشـهدها، حتى أنني لا أذكر أن أمي أخبرتني بهـا بالتفصيـل، ومـع ذلك تتشـكل الجمل في رأسـي، فأبصقها على الورق قصـة أنـا صاحبها. أملأ فراغات ذاكرتي بمشـاهد لـم يحضرها إلا الغياب، لأستحضرها في النهاية كاملة، وكأنني شاهد عيان.

قالـت أمـي بتـردد: "كنت سأسـألك أن تعينيني علـى إيجاد أي عمل. أي شيء يمكنني من سد أفواه الفراخ. الكلاب أخذوا بلقاسم إلى حيث لا أعلـم، واللـه وحده يعلم إن كان سـيعود على قدميه أو على حمالتي نعش، هذا إن أعادوا شيئا منه".

قالت ذلك وطأطأت رأسها وعلى وجهها ابتسامة ترج أو ذلة.

بهـذا فسـرت غنية بسـمتها حتى امتلأ وجهها دمـا، ولولا أن حياء، لا علاقـة لهـا بـه، غمرها على حين غرة لدمدمت "كنت أعلم أنك سـتلتجئين إليّ"، فبقدر ما كانت تدرك احتقار أمي لها، كانت سعيدة أن ثمة في الحيّ من يعترف لها بمواهب خارج عالم البغاء.

هكـذا وجـدت أمـي عملا في "ميـزون كاري" خادمة لـدى عائلة من أصول مجرية تعتاش من إيجارات بيوت تملكها في "لاغلاسيار"، تؤجرها للعرب.

لـم يـدم عمـل أمـي فـي منـزل آل "سـتيفان" إلا سـتة أشـهر، ولعلها كانـت تفكـر فـي التوقف عـن العمـل قبلها لشـعورها المتزايـد بالاكتئاب، لا بسـبب غياب أبي هذه المرة، بل بسـبب إفراطها في السـمنة وشـعورها المتزايـد بالاكتئـاب، لينتهي بها المطـاف إلى ملازمة البيت، وتضطر جدتي إلى الخروج للعمل في مكانها.

وإذ كانـت أمـي نائمـة ذات ليلـة، نهضـت مذعـورة من بلـل أصابها. تشممت نفسها، فاطمأنت أنه لم يكن بولا، ثم نظرت نحو السقف، فلربما كان المطر قد تسـرب منه، ولكنها بقدر ما حملقت لتلحظ أي شـق منه، لم

تعثر علـى أي شـيء. "لـم يعد ثمة إلا احتمال واحـد لا غير"، فكرت وهي تجول بناظريها في الأرض، فقد تكون الحمقاء أختي حميدة قد نسيت قبيل النوم إغلاق أحد صنابير الماء. وحين رأت أن الأرض جافة ولا واحدة من البنات ممن كن محشـورات نائمات بجوارها قد ابتلت، سـحبت نفسها إلى حيث كانت جدتي نائمة فأيقظتها.

حين قامت جدتي وتشممت ثوب أمي، صعقتها الدهشة:

- أكنت حاملا يا لويزة؟!..

وأخذت تتحسس بطن أمي وهي تهمس:

- الله.. أنت حامل يا لويزة.. هذا ماء الوضع.

وهكـذا جئـت للوجـود لا مرئيـا حتـى بالنسـبة لأمـي، لأخطـو أولى خطواتي في عالم "ما وراء المرايا"، وأظل فيه حتى ساعتي هذه.

اليوم الثاني قبل العدّ

لا بـأس وقـد انتهيتُ مـن قصة ميلادي وولوجي عالـم اللامرئيين أن أعود إلى حيث كنت جالسا في مقهى "ثلاثون". أتأمل رسوم السقف، غير قادر على حسـم أمرها، فكما قلت، خشـيت وقتها أن أفسـر تلك الرسـوم تفسيرا خاطئا، وكأنني حدست أن لها، أو سيكون لها، علاقة بلاحقي، لذلك لم آبه بأن يضيع مسائي في تأمل غير مجد لها، أو هكذا فكرت قبل أن يعود الرجل القصير ليجلس معي مجددا.

فـي ذلـك اليوم جـاء غير حليق الذقن. بدا متعبـا إلى درجة أنه جلس من دون أن ينظر صوبي ومن غير أن ينبس ببنت شفة. كل ما فعل أنه أشار للنادل، ليحضر له فنجان قهوة وعلبة سجائر.

حين طال صمته قلت مسـتفتحا باب الحديث: "يبدو أنك لم تخطئ حين قلت لي أن من يزور هذه المقهى مرة واحدة يدمنها إلى الأبد".

ابتسم حينها من غير أن يرد بشيء.

حدسـت بأنه كان مشـغولا بأمر ولن يجدي أن أقول شـيئا آخر. لهذا صمت وعدت إلى تأمل السقف. وإذ ذاك فاجأني بالسؤال:

- أتـرى الشـاب هناك؟. "وأشـار إلى شـاب يجلس بمفـرده يحدث نفسه". أحيانا أشعر أنني سأصبح مثله.

- ولمَ .. خير إن شاء الله؟!

- ربما لأن طموحي وواقعي لا يلتقيان أبدا.

وطأطأ رأسه محملقا في الأرض، وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه.

قلت مشفقا عليه:

- لو قصصت عليك حياتي، لهان عليك ما أنت فيه.

ورحـت أعـرض عليـه خيبتي وفـي ظني أنني حين أنتهـي يتوقف عن

التذمر، ولربما بعدها يرضى بواقعه الذي كان في الغالب وإن لم أطلع عليه أفضل من واقعي. ولكنه علّق بمجرد أن صمت:

- رائع.. نحن إذا متشابهان. أنا أيضا أحاول أن أكون كاتبا.

وأخذ يسرد عليّ بالتفصيل كل ما يعانيه منذ سنوات ليكتب رواية لا يبدو له أنها ستنتهي، فقد كان كلما كتب منها فصلا، يمزقه بمجرد أن يعيد قراءته. كان يشعر أن ثمة ما يقتل نصه بمجرد أن يولد.

قلت له مستذكيا:

- الروح.. هذا ما ينقص نصك.

لم يجب، وأخرج من جيب جاكيته الداخلي ورقتين مطويتين على أربع وضعهما على الطاولة.

- اقرأ هاتين.. فيهما تفاصيل القصة التي أرغب في كتابتها.

كانت خطة لرواية من اثني عشرة فصلا، مقسمة إلى جزأين. جعل لكل جزء منهما عنوانا، وفي كل فصل حدد ما يجب أن يتناول من أحداث وجميع الشخصيات التي يجب أن تظهر فيه. كان عملا دقيقا وممنهجا إلى درجة أنني وأنا أقرأ رؤوس أقلامه لم أفهم أي شيء يمنعه من الكتابة وجميع تفاصيل قصته بين يديه.

قلت من دون أن أرفع عينيّ عن ورقتيه:

- لو كنت قادرا على وضع مخطط كامل لقصتي قبل أن أكتبها مثلما تفعل، فلا أعتقد أنني سأستغرق في كتابتها إلا ما قد يستغرقه تصفيفها.

ابتسم وسألني متخابثا:

- وكيف كنت ستبدؤها أنت؟

- بطُعم يجعل قارئي يطمع في أن يجد المزيد كلما استمر في القراءة. بالطبع لن أعتمد على راوٍ عليم، بل كنت لأجعل البطل يحكي قصته من وجهة نظره الخاصة.

- ولمَ؟

- لا لشيء إلا لأنك تحكي مأساة شخص واحد، تعدَّت إلى غيره

من أفراد عائلته. إنه المعني أولا وأخيرا، وليس أفضل من صاحب المأساة ليحكي عنها.

- وجهة نظر تستحق التأمل.. وبعد؟

- لا شيء، غير أنني سأقتل جفاف الرواية بشيء يطريها أكثر.. مثلا، أختلق شيئا "فانتستيكيا" أتبِّل به القصة وأوهم به القارئ أن خلف ما اختلقته تختبئ أسرار أعظم. وفي النهاية، وبعدما أجعله يصدق ما أحكيه له، ويبدأ في افتراض كيف ستكون النهاية، أضع له خاتمة لا يمكنه التنبؤ بها.. هذه طريقتي: "ابدأ بقوة واختم بقوة".

ضحك الرجل وأنا أقول ذلك من دون ابتذال. وبحسرة قال:

- لو كنت تكتب بالفرنسية لاقترحت عليك أن نشترك في كتابتها.

- أكتب بها ولكن لم يخطر على بالي أن تكون لغة إبداعي.

ولأظهر له بعض براعتي، أضفت متبجّحا:

- أنظر، أترى ذلك الشاب الذي أشرت إليه من قبل. ماذا لو جعلته بطلا لقصتك. لنفترض أنه يعاني من انفصام في الشخصية، ولكنه افتراض لا يجب أن تقوله للقارئ، سنجعل الأمر مفاجأة نستغلها في الوقت المناسب. لذلك سنخترع شخصية تحدثه ويحدثها، حتى يتوهم القارئ أنها حقيقية كغيرها من شخوص القصة ولكنها في الحقيقة ليست إلا الوهم الذي يستحوذ على عقل البطل.. كيف كنت لأبدأ.. أوه أعطني ورقة.

وأخذت أكتب بمجرد أن سلمني ورقة وقلم:

"بعيدا عن الخيالات التي أصبحت تحاصرني. أحاول جاهدا أن أستمر في قص حكايتي، فهي بالنسبة إليّ أهم شيء رغم كل شيء، فذكرياتي أكثر ما يبقيني مستمرا، صامدا أمام ما أعيشه اليوم، حين اكتشفتني محاصرا بين عالمين، عالم أبيض يعبق برائحة الكحول. لا لون فيه غير الأبيض.. الجدران، المآزر، الملاءات.. حتى الوجوه بيضاء. عالم للخيالات ومن الخيالات الزئبقية. تتغير وجوهها كلما حاولت التمعن فيها. هناك تمتزج الأسماء والذكريات. الواقع فيه حالة استرخاء مستمرة، فلا أمس ولا اليوم،

حتى الغد فيه فراغ مستمر في فراغه.

وعالم جامد، بارد بلا لون. يحاصرني فيه الصراخ حتى لا أكاد أسمعني. يتمدد إلى لا نهاية في ظلام بالكاد أبصر فيه. وكأنه قطعة من الليل تزداد اتساعا كلما ازداد الصراخ قوة.. أراني فيه سائرا إلى الخلف حافي القدمين، على درب جليدي، كلما أذابته حرارة دمعي، جمده الصراخ العاصف، الصادر من "لا أين". جميع الذين هناك من ذاكرتي. وكأن اليوم فيه لم يكن. وكأن الغد فيه نكتة بذيئة يستحي الأمس من ذكرها..".

ما زلت أذكر كيف صعق حين قرأ ما كتبت. كنت أرى حدقتيه وقد تجمدتا على ورقتي، غير مصدق أن للكلمات التي يعرفها القدرة على الاصطفاف بالنحو الذي جعلتها تصطف عليه.

ومن هذا اليوم، أصبحت والرجل القصير لا نفترق إلا ليلا. كل وقتنا نقضيه في المقهى نكتب ونعيد قراءة ما نكتب، حتى خلتني نسيت صدمتي وقد عاودتني الرغبة في الكتابة.

أعترف أننا وفي كل ذلك الوقت كنا كروحين في جسد واحد. لم يكن يشغلنا إلا أن ننتهي إلى نص يرضينا فحسب. هو بتفاصيله ودقته وخطته الصارمة، وأنا بروح مغامرتي وبجنوني.

هكذا انتهينا من نصنا الأول في خمسة أشهر فحسب. وحين انتهينا واخترنا عنوانه وقعته باسمي واسمه معا. قلت له حينئذ: "لا أدري كيف ستكون ردة فعل النقاد حين يرون عملا روائيا مشتركا، موقعا باسمين. ولكن الأمر يستحق المغامرة.".

- كنت أفكّر في نفس الأمر. رأيي ألا نوقع الرواية باسمين ونكتفي بواحد فقط.

راودني الشك ساعتها في أنه يلمح إلى أن تحمل الرواية اسمه، وحين كدت أقول شيئا أضاف:

- ما رأيك في أن نوقعه باسم يكون لكلينا من غير أن يكون كذلك. أقصد اسما نشعر أنه يدل علينا في نفس الوقت.

- أي اسم قد يكون لكلينا في وقت واحد؟!..

سـألته وأنـا أراقبـه يكتب شـيئا على مخطوطـة الروايـة. وحين انتهى وأظهره لي، دهشت من أنه كان بالفعل اسما لكلينا.

- صحيح.. كيف لم أفكر في الأمر؟.

ابتسـم شـريكي بتبجـح وهـو يقرأ من جديد الاسـم الـذي دوّنه على مخطوطة الرواية.. "ريماس إيمي ساك". قال بعد أن ردده عشرات المرات:

- ومع هذا، فلا بأس أن أعترف أنه أقرب مني مما هو إليك.

ساعتها ضحكت وأنا أحسب أنه يمزح فحسب.

لا يعني هذا أن يتوهم أحد أن ريماس إيمي ساك كان الرجل القصير الذي شاركني كتابة تلك الرواية. فحتى ذلك الوقت لم يكن شيئا أو أحدا. ولو شـئت أن أكون أكثر دقة، فسـأقول إنه لم يكن إلا اسـما مستعارا اخترته لنفسي واختاره الرجل القصير أيضا. وهكذا ظل بالنسبة إلينا حتى انتهينا من عملنا الرابع. ومع هذا، فلا بأس أن أصف شعورا غريبا اعترانا نحن الاثنين، بمجرد أن بدأ "اسمنا" في الظهور.

خـلال تلـك الفتـرة، كنا نكتب بمتعة. نجتمـع كل صباح. ومثلما كان الحـال فـي أول مـرة، كان الرجـل القصير يقتـرح القصة ويمنهجهـا، أما أنا فأختـار مـا يلـزم من كلمـات لكتابتها. ربما كنت حينئذ أضيف شـخصية أو شخصيتين، أو أي حدث من شأنه أن يمنح قصتنا ما اتفقنا أن نسميه روحا، ولكنني مع ذلك لن أدعي أنني وبأي نحو من الأنحاء تمكنت من الخروج عـن النهـج الصـارم الذي كان يضعه شـريكي أول الأمـر. ولعل تلك الفترة من شراكتنا كانت الأخصب بالنسبة لي. ذلك أنني وفي كل رواياتنا الأربع الأولى، لم أكن أشعر بوجود شريك معي في الكتابة. لم يكن الرجل القصير وقتئـذ إلا انعكاسـا غيـر مطابق لـي. حتى إنه وبمجـرد أن انتهينا من روايتنا الثانيـة بـدأ يُدمننـي إلـى درجة أن أصبح يقلدني في كل شـيء: يلبس مثلي، يتحدث مثلي والأغرب أنه بدأ يتقن العربية بشـكل ملفت للنظر. وكنت إذ ذاك ألمـح فيـه رغبـة جامحـة في معرفـة تفاصيل طفولتي وكل ما من شـأنه

أن يجعله يجيب بـ"نعم" من دون ذرة شـك حين يُسـأل إن كان يعرفني. ولسبب ما، كنت أخفي عنه ذكرياتي وأتملص من أسئلته كلما حاول معرفة المزيد. والحقيقة أنني ورغم إعجابي بشـراكتنا، فقد كانت تسـاورني بعض الشـكوك تجاهه، أهمها تلك المتعلقة بشـخصه حين لا يكون برفقتي. فأنا أيضا لم أكن أعرف عنه أكثر من كونه رجل يحب الأدب أو على الأقل هذا ما تصورته عنه حينها. ومع ذلك كنت سـعيدا أنني عثرت عليه. وأزعم أنه كان سعيدا مثلي أنه عثر عليّ.

كنا ونحن الاثنين معا وكأننا واحد بعقلين محشورين في عقل واحد، إلـى درجـة أننـا وفـي وقت لاحـق، ربما مع نهايـة كتابة الروايـة الرابعة، لم نعـد نعـرف أي واحـد منا اقترح القصة ومـن كان يعمل على تحريرها. لأن مـا حـدث لاحقـا، أنني صرتُ مثلـه أعتني بالتفاصيل والمنهـج الصارم في الكتابة، وصار هو مثلي يحسن اختيار الكلمات ليجعلها تقول قصتنا. لكن تقمصنا لبعضنا، لم يكن واضحا على هذا النحو، ولو كان كذلك لما ترددت فـي القـول أننـي أصبحـت هو أو أنه أصبـح أنا. كنت مـدركا مثلما كان هو مدركا تماما، أن تقمصنا لبعضنا لم يكن إلا في أوضاع تفرضها الرواية التي نكتب، وبمجرد أن ننتهي نعود كما كنا، هو بصرامته وأنا بجنوني.

الآن وأنـا أذكـر ذلـك، يتملكنـي الضحـك من نفسـي حيـن تصورت أنـه حيـن بدأ يتشـبه بي، سـينتهي به المطـاف في التماهي معـي. ومن فرط ثقتـي بنفسـي – تلك التي اكتسـبتها فـي الغالب بعد نجـاح الروايات الأربع الأولى – حسـبت أنـه لـن يصمـد طويلا ويذوب فـيّ، وأتمكن فـي الأخير مـن إزاحتـه عن طريقي وأصبـح أنا ولوحدي "ريماس إيمي سـاك". ولكنه علـى عكـس مـا تصورت، بمجـرد أن بدأنا في كتابة الرواية الخامسـة حتى بـدأ يتخلـص مـن تأثيري. توقف عن التشـبه بي ولم يعـد يأبه بأفكاري التي أقترحها ولا بتنميقات جملي، لأنه وبشـكل ما تمكّن من اكتسـاب مهاراتي كلما احتاج لها. أما أنا فلم أكن قادرا على تخطي مستواي الأول، إلا حين أستعين بذاكرتي وأستغل أحداثا وقعت معي حقيقة. وكان شريكي، بطريقة

ما، يشجعني على ذلك ويسألني من ذكرياتي المزيد.

كنت مدركا أنني بهذا أخاطر بجعله قادرا على اقتحام حياتي، ولكن لم يكن لدي من سبيل آخر لأُبقي على حصص شراكتي معه. وبالفعل لم نكد نبلغ الرواية السابعة حتى نفذت معظم قصص أمي. ومع ذلك لم أكن من الغباء بأن أتعرى له كلية، وتركت أهم ما في ذاكرتي لنفسي.

مع استمرار شراكتنا –وإن ذهبت المتعة منها – أدركت أننا لم نعد مختلفين في شيء. ليس لأنه صار أنا، بل لأنني رغما عني صرت هو، بكل ما فيه من مساوئ. والحق أنني استحليت حينها بعض تلك المساوئ.

ما لم أخبر به شريكي وقتها، أنني حين أرسلت مخطوطة روايتنا الأولى إلى ناشري الفرنسي، ادعيت له أنها لي، وما "ريماس إيمي ساك" إلا اسما مستعارا اخترته لنفسي. وكنت قبلها قد قرأت عن وكيل أعمال فرنسي يدعى "هنري دوكلار" اشتهر في الأوساط الأدبية بقدرته على إدارة أعمال المؤلفين من ذوي الإصدارات الضخمة، فطلبت من ناشري أن يخبره برغبتي في توظيفه من دون أن يطلعه على اسمي الحقيقي. ولحسن حظي أن شريكي لم يكن على علم بإجراءات النشر. والحق أنه لم يسألني ولا مرة عن إيرادات كتبنا ولا عن كل الحوارات التي أجريتها مدّعيا فيها أنني ريماس من دون أن أظهر فيها بصورتي.

وحين أفكر في الأمر، أشعر أنني ربما وقبل أن أنأى عن شريكي وقبل أن ينأى عني، رغبت في الاستيلاء على اسمنا، ولربما فكرت من غير أن أصارح نفسي في التخلص من شريكي والظهور للعلن على أنني ريماس إيمي ساك، ولعلني كنت لأفعل لو لم يحدث ما جعلني في غنى عن ذلك. فبعد أن نشرنا روايتنا العاشرة، بدأت ألحظ أن شريكي لم يعد مثلما كان في بداية شراكتنا متحمسا لكتابة الجديد، حتى إنه لم يعد يحضر اجتماعاتنا اليومية في مقهى "ثلاثون" كما اعتدنا منذ عشر سنوات، وحين يحضرها يبقى معظم الوقت شاردا ومتأملا في أمور لا علاقة لها بما نكتب، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي بدأ فيه كل شيء.

كنت وقتها في الخمسين من العمر. ولسبب واضح بدأت أشمئز من مظهري. تكرّشت واستدار وجهي وحالت ذقني، وبدأت أصاب بالصلع. ولولا ما أجريت من ترميمات على أسناني لتهاوت قبل أن أبلغ الخمسين. ومع ذلك كنت مهتما بهندامي الذي لم يكن يليق بمن كانوا في مثل عمري. ذلك أنني وكما قلت استحليت مساوئ شريكي التي طبعتني. وكان أكثر ما استحليته فيها حبه للنساء. وحين أقول ذلك، فأنا أعني شغفه بالجنس، لا ذلك الذي يعرفه الجميع، بل أكثر صوره غرائبية على الإطلاق. وكانت زوجتي تشعر بما أصبحت أميل إليه، وعبثا حاولت أن تجاريني ولم تستطع.

وبدأت أخوض في نفس المسائل التي كان يخوض فيها شريكي أول ما تعارفنا، بل والأغرب أن جميع ما طرأ عليّ من تغيرات فيزيولوجية بسبب الزمن، جعلتني أبدو بطريقة ما كما كان شريكي وقتما تعارفنا. ولو شئت أن أكون أكثر صدقا مع نفسي، فلا بأس أن أعترف أن طريقة لبسي وحتى افتعالي الحديث بالفرنسية كل الوقت حتى مع زوجتي وابنتي، لم تكن أمورا اخترت فعلها من تلقاء نفسي، بل لأنني كما قلت استحليت مساوئ شريكي.

هل كنت مدركا لما صرت عليه وقتها.. لا يهم، ما دام إدراكي أو عدمه لم يحولا دون أن أصبح صورة بذيئة عن شريكي. والحق أنني لم أهتم بذلك ولا بما أصبح عليه شريكي. حتى إنني وأنا أذكر كل ذلك، أتساءل كيف أمكنني أن أغفل حقيقة أننا مع مرور الوقت والكتابة تبادلنا روحينا من دون أن نشعر. ولولا خوفي من أن تكون ذاكرتي قد نال منها الزمن لقلت إنه هو أيضا أصبح يشبهني جسديا.. أعني، يشبه الشاب الذي كنته أول ما تعارفنا.

***

ما حدث وقتها، أننا حين شرعنا في كتابة روايتنا الحادية عشر، لم نكن نعمل بنفس السرعة التي تعودنا عليها في بدايتنا، بحيث أصبحنا نشتغل

عليها مرة أو مرتين في الأسبوع بسبب عدم انتظام شريكي في الحضور إلى اجتماعاتنا، ما جعلني أكتب الكثير من الفقرات في غيابه، وحين أعرضها عليه لا يأخذ كما عودني كل وقته في قراءتها وإعادة قراءتها، بل كان في معظم الأحيان يقبلها مع بعض الملاحظات المتعلقة غالبا بأخطاء الرقن. ولئن كان يسوؤني عدم اهتمامه بالعمل، فقد كنت سعيدا أنه تخلى عن دوره فيه. هكذا تتاح لي الفرصة لأكتب عملا كاملا من دون مشاركته.

ولعلنا كنا سنشرع في كتابة الفصل السادس، حين هاتفني شريكي وأخبرني أننا لن نلتقي مساء وأنه يفضل لو أكملت الرواية بنفسي. ومن دون أن يشرح لي أسبابه أعلمني أنه ترك لي ورقة لدى نادل المقهى فيها الكثير مما قد أستعين به في كتابتها.

توجهت لفوري إلى المقهى. وهناك سلمني النادل رسالة شريكي:

"صديقي..

كيف أشرح لك أمورا لا أحسب أنك غفلت عنها. ولكن لا بأس أن أجعلك تواجهها ولو هذه المرة فحسب. فبعد أزيد من عشرة أعوام من تعارفنا تستحق أن ترى المسائل كما كان يجدر بك أن تراها أنت وليس كما أراها أنا. وإن كنت أشعر بارتباكك من علاقتنا التي جمعتنا كل هذا الوقت، فهذا لا يعني أبدا أن أستمر في الإدعاء خوفا عليك أنها كانت علاقة سليمة بأي نحو من الأنحاء. فبقدر ما أشعر بالأسى مما جعلتك تحياه منذ تعارفنا، فأنا سعيد لأنك عدت للكتابة بفضلي وبفضل شراكتنا التي أرى أن عليها أن تنتهي عند هذا الحد. آن الأوان لتتوقف عن الكذب على نفسك. وترى وجهك واسمك وحياتك على المرآة من دون أن تضطر لتغمض عينيك. صدقني، بمجرد أن تفتح عينيك ولو لمرة واحدة ستدرك كم رائع حين يتمكن الواحد من قتل أشباحه ورؤية نفسه من جديد.

أحبك ولأنني أحبك أقول لك: توقف عن كونك ريماس إيمي ساك.

شريكك الأبدي"

ومنذ ذلك الحين اختفى شريكي من حياتي، تماما كما كان بعض

زبائـن المقهـى يختفـون كل عـام. فحتـى تلـك السـنة كان ثلـث زبائنها قد غادروها من دون أن يرتادها سواهم.

والحقيقة لم ألاحظ اختفاءهم إلا حين بدأت أجلس بمفردي بعد أن قرر شريكي أن يتوقف عن الكتابة. عدت لأتأمل سقف المقهى، وعاودتني أسئلتي القديمة عنه. هذه المرة أدهشني أنني لم ألاحظ أن بعض رسومات السـقف قد طمس وكأن أحدهم صبغ الجزء الذي كانت فيه. أحزنني أنني انشغلت عن تلك الرسوم كل هذا القدر من العمر، فلحد تلك اللحظة استمر سحرها يبهرني وإن أصبح أقل تأثيرا عليّ.

هكذا عدت إلى ما كنت عليه قبل أن أتعرف على شريكي. لكنني هذه المرة عدت باسـم غير اسـمي. وأنا غير مصدّق أنني وحدي "ريماس إيمي ساك"، وأنه بعد كل هذا الوقت صار أنا.

اليوم الأخير قبل العدّ

الأشـهر التـي تلت اختفاء شـريكي، كانت أكثر فتـرات حياتي وحدة. صحيـح أننـي كنـت متزوجا آنـذاك وكانت جميلة ابنتي تملأ حياتي بشـكل مـا. ولكننـي كنت بمجرد أن أجلس بمفردي على طاولتي في مقهى ثلاثون يعترينـي شـعور بالسـأم والملـل. افتقدت شـريكي وبدأت فـي الاعتقاد أن ارتيـادي للمقهـى لـم يعـد له أي معنـى. وكنت لأتوقف عـن ارتيادها لو لم أدرك أمرا لم يخطر على بالي قطّ.

كنت أحاول أن أكمل الرواية التي توقفت وشريكي في فصلها السادس. فمنـذ اختفائـه لـم أضف إليها إلا فصلا واحدا. والحـق أنه كان فصلا باهتا يشـبه في لغته وأحداثه ما كان يكتب شـريكي قبل أن نتعارف. لذلك فعلت مـا أفعلـه فـي كل مـرة تجافيني فيهـا الكتابة أو تمتنع عنـي. أخرجت بعض الروايـات التـي كنـت أقرأهـا وأعيـد قراءتها من دون أن أمـلّ. وفي كل مرة يعتريني الشعور أنني أقرأها لأول مرة. ثم شرعت في قراءة بعض صفحاتها، ولكننـي هـذه المرة وعلى غير العادة لم أشـعر بأية رغبـة في الكتابة. حينها اعترتني الخشية من أن تكون موهبتي مجرد وهم تعلق بشريكي أو أنها كانت مشروطة بوجوده معي. لا أخفي أنني وللحظات قارنت بين ما كنته قبل أن أنشر باسم ريماس وما صرت عليه. ولكم ندمت على الذي كنته قبل سنين. فحتى وإن كنت آنذاك كاتبا فاشلا بمعايير "البيع"، فقد كانت موهبتي أصيلة لا تحتاج لأظهرها إلا لورقة وقلم. وخالجني شعور بالأسى، لا على نفسي، بل على جميع من ساهمت في إجهاض مواهبهم، خشية منهم أو خوفا من أن يخرج من بينهم واحد أكثر موهبة مني ويحجب بعض النور عن "ريماس إيمي ساك" الذي هو أنا.

لن أزعم أنني نسيت أسماء من قبرت. ولئن نسيت بعضهم فلم أنس

تلك الرواية التي وصلتني من قبل شاب كان في العشرين من العمر. قرأتها مستبعدا من أن يتمكن شاب لم تفطمه الحياة بعد من كتابة أي شيء متميّز علـى الإطـلاق. ولكنني مـا أن انتهيت منها حتى أدركت أيّ خطر يمكن أن يشكّله عليّ صاحبها لو تمكن من الاستمرار في الكتابة. صحيح أن أسلوبه كان سـاذجا بعض الشـيء، ولكنه في النهاية كتب نصا أعترف أنه أعجزني. لم أتوان في مراسلته ونصحه في أن يجد لنفسه عملا آخر غير الكتابة، وكلّي أمل في أن يأخذ بنصيحتي ويتوقف عن الكتابة. ولئن مرت سنوات من دون أن يصدر أي عمل، فقد بقيت متوجسـا خوفا من أن يكون من النوع الذي يأخذ وقته في الكتابة ويفاجئني بنص آخر قد يسـتجلب الانتباه هذه المرة. أعترف أن الحظ حالفني مع روايته الأولى حين نشـرها في هذا البلد، فقد كنـت متيقنـا ألا أحـد سـيلاحظها أو يكتـب عنها. ببسـاطة لأن لا أحد يقرأ بالفعـل. فلطالمـا كان الوضع هكذا، ولطالما علمت أن كل ما نحسـن فعله فـي هـذا البلد هو حفر القبور. وكانت خشـيتي ستسـتمر لـو لم أعلم لاحقا أنـه اعتـزل الروايـة وانصرف إلى الترجمـة.. المضحك في الأمر، أنه أصبح متخصصا في ترجمة أعمالي.

مهما يكن، وبعد لحظات الأسـى تلك. رغبت في تمضية الوقت في قراءة شيء كتبته وشريكي. ووقع اختياري على روايتنا الأولى.

أذكر أن شريكي، حين شرعنا في كتابتها، قد وضع لجميع شخوصها أسـماء، ورسـم لها مصائر معلومة، صيّر الأحداث وفقها. بل وكانت لتلك الرواية نهاية واضحة لا تقبل أي تخمين. صحيح أن ما خطط له كان جيدا ودقيقا إلى حدّ ما، ولكنه في نفس الوقت لم يملك أية روح تسمح للقارئ بالتماهي مع ما فيه. ولأن الكتابة بالنسـبة لي، أكثر من مجرد سـرد سـخيف للواقـع أو اسـتظهار عقلـي للخيال فحسـب. فلم أسـايره في تصـوره ذاك، وأخـذت أضيـف إليه ما يجب من توابل وإكسسـوارات أعطتها تلك النكهة التـي جعلـت مـن كتاباتنا تتميز بشـكل ما. ولعل أفضل مـا وفقت فيه، أنني جعلـت بطلهـا لا يحمل اسـما، ومتهمـا في جريمة بقدر مـا جعلت القارئ

يسأل عنها، بقدر ما شغلته عنها بفضل ما زرعته في الورق من أحداث وأسئلة توهّم أنها أهمّ. ومع ذلك كنت معجبا بتفاصيل شريكي وتحكمه في شخصيات الرواية على ذلك النحو، رغم أنني أنا من اقترحت أن يكون البطل "نصف مجنون" حين أشرت على شريكي أن نستغل الرجل الذي شاهدناه يحدث نفسه في مقهى ثلاثون.

حين شرعت في إعادة قراءة هذه الرواية. شعرت أنني أعرف شخصياتها. لا أعني أنني أعرفها كما يجدر بالروائي أن يعرف شخوصه، بل أعرفها حقيقة، وكأنني التقيتها في مكان ما في الواقع. وحتى لا أقع فريسة للحيرة، أخذت ورقة وقلما ورسمت جدولا وضعت فيه اسم الشخصية وأوصافها. وحين انتهيت أخذت في دراسة هذا الجدول. لكنني لم أجد شيئا يستحق التأمل. ومع هذا كررت نفس العملية مع باقي الروايات، لألاحظ أمرا لم يخطر على بالي قط، حين وضعت جدولا بأهم أبطال رواياتي الأربع الأولى. كانوا جميعهم يشبهونني بنحو ما، وكان لكل واحد منهم قرين، تماما كما كان لي قرين هو شريكي. ففي الرواية الأولى كان البطل من دون اسم ويتوهم أن لديه صديقا وهميا يتخيله اسمه إسماعيل. وحين أذكر جيدا، ففي تلك الفترة حين قررت أن أتوقف عن الكتابة، فقد توقفت عن الحلم في أن يكون لي اسما في عالم الإبداع، لذلك ومن دون أن أتقصد الأمر، اخترت أن يكون بطلي من دون اسم، وبنفس الطريقة جعلت له قرينا اسمه "اسماعيل"، صارما في تعاملاته كما كان دوما شريكي معي. وفي الثانية أسميت بطلي "حليم بن صادق" وجعلت له قرينا حقيقيا أسميته "عمار الطونبا". وكان "حليم" يشبهني في أنه انهزامي، ذو نزعة انتحارية. في حين كان قرينه "عمار" قوي العزيمة وواثقا من نفسه كشريكي. وفي الثالثة كنت "قدور فراش" وكان يشبهني في أنه كان إنسانا عنيدا، غير آبه بآراء الناس فيه، فلطالما كنت كذلك، وكان قرينه أخاه السايح، يشبه شريكي في حبه المفرط للجنس والنساء. أما في الرابعة، فقد رصدت كل ما يعتريني من تشوهات داخلية وصبغت بها "حسان ربيعي" لأجعل منه

المسخ الذي أردته أن يكون. أما قرينه فلم يكن إلا الصوت الذي ملأ عقله والذي بشكل ما يشبه شريكي حين بدأت أشعر أنه تمكن من دخول رأسي. ومع هذا فلا بأس أن أعترف أن أكثر أبطالي تشبها بي كان الرجل الذي لا يحمل اسما. ببساطة، لأنه كان تجسيدا حقيقيا للضياع.

أدركت حينها أن ريماس إيمي ساك لم يكن أبدا اسما مشتركا بيني وبين شريكي، بل كان اسمي أنا، ما دام لم يكتب شيئا يستحق القراءة غير ما كتبه عني. وكنت لأكتفي بهذا لو لم يشغل بالي أمر أكثر غرابة. فمع أن ما اكتشفته كان ليجعلني أبرر لنفسي، وبأيسر السبل، استيلائي على اسم ريماس. إلا أن ثمة ما كان يجعلني واثقا من أن شريكي كان سيقول بنفس الحق الذي أدعيه لنفسي، فبنحو ما كان في تلك الروايات شيء منه.

لكن الذي شغلني أكثر، هو استمرار شعوري بأنني على معرفة بباقي شخوص رواياتي. وبقدر ما حاولت أن أبدد هذا الشعور، بقدر ما كان يزيد حدة كلما قرأت واحدة من الروايات التي أصدرتها باسم ريماس. حينئذ، حدست أن بحثي لن ينتهي إلى أية نتيجة إلا في المكان الذي بدأ فيه كل شيء.

هكذا عدت إلى مقهى "ثلاثون" لا رغبة في الكتابة هذه المرة، بل بحثا عن أجوبة على أسئلة تؤرق أرقي.

أعتقد أنني استغرقت أياما من التأمل والتذكر والتفكير لأفهم أخيرا ما كان بديهيا لو أنني نظرت إلى حياتي وإلى ما حولي بعينيّ أنا، عوض الانهماك في عيش حياة ريماس إيمي ساك. لأنني لو فعلت، لربطت من دون مشقة بين ما كان يقترحه شريكي من أفكار وتفاصيل، بدت لي حينها أنها تشبه الوحي وتلامس في بعضها العبقرية، وبين ما كان من شأنه أن يتجلّى لي لو بقيت على فطرتي التي كنت عليها قبل أن أقرر شراكة حسبت أنها أخرجتني إلى النور، بينما في الحقيقة أدخلتني إلى دهاليز الظلام.

ما اكتشفته حينها، جعلني أوقن أخيرا أن شريكي كان مثلي مجرد مدّع دجال. ولكن موهبته على خلاف موهبتي كانت غير أصيلة بالمرّة. وآلمني

حينها أنني لم أكتشف أمره إلا بعد أن رحل، وبعد عشرة أعوام من شراكة لم تكن متكافئة على أي نحو.

احتجت لأفهم طبخة شريكي إلى قراءة جميع أعمالنا. وكما فعلت سابقا، وضعت جدولا لشخوص رواياتنا أقصيت منه كل الشخصيات التي اقترحتها وكل تلك التي تشبهني أو تشبه شريكي. كان اكتشافا مبهرا لحظتها، حين أدركت أن جميع من اقترحهم شريكي لم يكونوا إلا أشخاصا حقيقيين مثلي.. لم يفعل إلا ما فعلته أنا في أول عمل حين اخترت بالصدفة شخصا من المقهى لأجعل منه شخصية في الرواية. ولكنه على عكسي، اختار بعضا من زبائن مقهى "ثلاثون" وروى قصتهم كما في الحقيقة، مدّعيا أنها من خياله. والأدهى أن بعض أحداث قصصه – والتي طالما جعلتني أنبهر به – لم تكن إلا شروحات لرسوم السقف التي طمست.

كان الأمر واضحا وجليا أيضا، ولكنني كنت كالأعمى وقتها، منبهرا بريماس هذا الذي في النهاية لم يكن أحدا سواي.

ولحد تلك اللحظة، لم أتساءل بعد، عن السبب الذي جعل جميع من كتب عنهم شريكي يتوقفون عن ارتياد المقهى، ولا عن السبب الذي يجعل القائم على المقهى يطلي الرسوم التي ترجمها إلى أحداث في رواياتنا. ولربما رغبة في معرفة السبب لاحقا، شرعت في إتمام روايتنا الحادية عشر، مستلهما أحداثها من رسوم السقف وناسخا شخوصها من زبائن المقهى. وكما تصورت، فبمجرد أن صدرت الرواية حتى توقف من استعملتهم فيها عن ارتياد المقهى، ومحيت رسوم السقف التي ترجمتها.

ومع أن الأمر كان غريبا، إلا أن شيئا في نفسي منعني عن البحث أكثر. وعوض أن أسعى لفهم المسألة، تصنّعت الغباء والرضا. واعتبرت ما يحدث مجرد هبة من السماء، وأن فهمها كعدمه، ما دمت لن أتخلى عنها.

خلال السنوات التسع التالية نسيت أمر شريكي. وما كان لأمر أن يذكّرني به لو لم أشعر ذات مساء بالخشية من أن يكون بئري قد جف، حين أدركت أنه لم يعد في المقهى إلا تسعة زبائن يشغلون طاولتين. علمت

حينها أنني إن لم أستعد خيالي قريبا فسأتوقف عن الكتابة ما أن يتوقف إلهام المقهى.

كانت الفكرة إذن أن أبحث في أغوار نفسي عن موهبتي التي فقدت بعضا منها حين بدأت أتماهى مع شريكي، وبعضها الآخر حين استحليت حياة ريماس، وخسرت ما تبقى منها لمّا ألغيت خيالي وبدأت في استنساخ روايات لا علاقة لها معي، إلا تلك التي تجعل مني مجرّد محرر لها لا أكثر. لهذا فكرت أن أفضل ما قد أبدأ به لأستعيد موهبتي، أن أتحرر من كل شيء يجعلني مدمنا للخوف. أعني أن أدفع عن نفسي كل ما من شأنه أن يجعلني أخشى السقوط إذا ما أنا لم أكتب باسم ريماس إيمي ساك، أو لم أحرر رواية شخوصها من زبائن المقهى وأحداثها من رسوم سقفها.

ورغم أن الأمر بدا مستحيلا ساعتها، إلا أن الأمل كان يحدوني في النجاح لو تمكنت من العثور على شريكي وإجباره على العودة إلى مقهى "ثلاثون" ليلعب نفس الدور الذي لعبه معي أول مرة. هكذا يمكنني أن أعود إلى ما كنت عليه لحظة التقينا، ببراءتي وموهبتي الأصيلة. لكنني كنت مدركا في نفس الوقت استحالة العثور على شريكي الذي رغم ما قضيناه معا من وقت، ظل بالنسبة إليّ رجلا نكرة لا أعرف عنه إلا اسمه الذي نطق به مرة ولم أحفظه. ببساطة، لأنه لم يكن يهمني منه إلا مساهماته في كتابة رواياتنا. ولا أدري لحدّ الساعة إن تعمّد إخفاء تفاصيل حياته عني مثلما فعلت أنا حين لم أجعله يعرف كل تفاصيل حياتي.

أدركت أن العثور عليه مهمة مستحيلة وأن نجاح فكرتي من دونه مسألة أكثر استحالة. لهذا فكرت لو أتمثله في ذهني، بحيث أفصلني عنه لاحقا. هكذا يمكنني استعادة بعضا من نفسي، بحيث نعود أنا وهو إلى نقطة البداية، حين كانت مهمته تقتصر على وضع مخطط مفصل للقصة، ومهمتي أن أتخيّر الكلمات التي تقولها.

بدا الأمر صعبا في البداية، لكنني ومع مرور الوقت نجحت في تخيلنا معا كما كنا حين بدأت شراكتنا. ولاحقا نجحت في نقل تخيلاتي من ذهني

إلى الواقع، بحيث لم أعد أجد حرجا في الادعاء أنه جالس معي في مقهى "ثلاثـون" يحدثنـي وأحدثـه، مـن غيـر أن آبه بأن يعتقد النـاس الجنون فيّ. وكنت لأجعل الأمر يدوم إلى أن ننتهي من روايات المقهى، لأستقلّ بعدها بعقلـي وأكتـب بعدها وحدي من دون شـريك. ولكـن الذي حدث لاحقا، أفسد جميع حساباتي، وجعلني أتمنى لو لم أبدأ تلك المغامرة قطّ.

فكما قلت، نسـيت اسـم شـريكي، ومن أجل أن أميّزه عني في ذهني قررت أن أسميه "ريماس إيمي ساك"، ذلك أنه كان اسما جمعنا ذات يوم. ونجحـت أخيـرا فـي فصله عني وتمثله في الواقع، فأنا بنحو ما فصلت عني "ريماس إيمي ساك". ولئن كنت أشعر بالغرابة في أن أنادي سواي بهذا الاسـم، فقـد أحسسـت بالراحـة من أنني وبطريقة لم أفكـر فيها تمكنت من التخلص من شـريكي ومن اسـم أصبح يحجبني عن نفسي. لهذا استحليت الأمـر إلـى درجـة أن طلبـت مـن زوجتي وابنتـي أن تتوقفا عـن تنفيذ أمري لهما بأن يسـمياني "ريماس". وكنت قد أمرتهما بذلك حين اختفى شـريكي واستوليت على اسمنا.

مـا حـدث لاحقـا، أن تخيلاتـي التـي أسـقطتها علـى الواقـع تمنعت عنـي علـى حيـن غـرة. حتى لم أعد قادرا على تصور شـكل شـريكي الذي عايشته لسنوات. وفي الوقت نفسه، بدأت أشعر بالغربة عن جميع الأعمال التـي كتبتهـا مـع شـريكي وكل التي تلتها، بحيث لم أعد أحسـن التمييز بين مسـاهماتي فيها ومسـاهمات شـريكي. وحين كنت أجهد نفسي في التذكر، أتمثل شريكي رجلا يشبهني. وهنا لا أقصد حين كان يتشبه بي، بل شخصا يملك كل ملامحي، فيذعرني الأمر. ثم لم ألبث أن بدأت أسمع صوته في رأسي، ولكنه كان أيضا يشبه صوتي.

كان عزائي الوحيد وقتئذ، أنني كنت مستمرا في الكتابة. لم يكن لشيء غيرها أن يمنعني عن الجنون، رغم أنني كنت أشـعر باتسـاع الهوة ما بيني وبين ما أكتب، فقد أدركت مع انتهائي من روايتي التاسـعة والعشـرين، أنني لـم أعـد إلا راقنـا لكتـاب لا شـيء مني فيـه. حينها علمت أننـي بمجرد أن

ولجت مقهى "ثلاثون" أول مرة، ورضيت بأن أتسمى "ريماس إيمي ساك"، وقعت شهادة موتي. رأيت أخيرا حقيقتي، تلك التي كانت جلية أمامي، تماما كما كانت رسوم السقف التي حين انتهيت من كتابة روايتي الثلاثين اختفت كما اختفى زبائن المقهى. كان آخر ما بقي من رسوم السقف، صورة رجلان: واحد ممدد على ظهره منزوع العينين، وآخر يقف بجواره بلا يدين. كانا ومع هذا متشابهين إلى درجة التطابق. ورغم أنهما كانا مرسومين بهذا الشكل، إلا أنني لم أذكر أنني رأيتهما من قبل. أكاد أقسم إنني وفي أول مرة لاحظت رسوم السقف، لم أنتبه لوجودهما، بل وأقسم أنني تخيلت بدلهما رسما آخر لرجل لا يظهر منه إلا القسم العلوي من وجهه. كان يملك عينين كعينيّ. هذا ما قلته لشريكي وقتها، ولكنه استهزأ بي ونفى أن يكون الرسم يشبهني.

قلت، حين انتهيت من كتابة روايتي الثلاثين اختفت كل رسوم السقف إلا واحدة يتمثل فيها رجلان: واحد ممدد على ظهره منزوع العينين، وآخر يقف بجواره بلا يدين. كانا ومع هذا متشابهين إلى درجة التطابق. لا أدري لمّ كنت أفكر دائما أن الرجل منزوع العينين كان أنا، وأن شريكي كان الرجل مقطوع اليدين. وأن مطابقة الرجلين على بعضهما كانت لتجعلني أرى أخيرا صورة "ريماس إيمي ساك" الذي وإن كان أنا، فإنه لم يكن ليشبهني في شيء. أذكر أنني يومها طبعت الرواية، وكالعادة وقعتها باسم "ريماس إيمي ساك" وحملتها إلى شقتي وأنا أتساءل هل ستكون الأخيرة. كانت زوجتي وقتئذ على قيد الحياة، وجميلة تقيم معنا قبل أن تتزوج. وكان من عادتي في كل مرة أنتهي من كتابة أي عمل أن أجعلها تقرؤه قبل أن أرسله إلى ناشري. لكنني في تلك المرة، رغبت أن أبقى لأطول وقت مع روايتي. فلم أكن مستعدا بعد لمفارقتها، ربما لأنه كان يحدوني الحدس في أنها الأخيرة، أو لعلني علمت أنني حين أنتهي من كتابة آخر رواية، فسأنتهي من الحياة. ففي النهاية لم أكن أكثر من مجرد محرر لها. ومع موتي سيستمر "ريماس إيمي ساك" في الحياة، غير آبه بي ولا بكل ما بذلته في سبيله

مـن أجـل أن أمنحه نفحة الحياة. دخلت غرفتي ووضعت مخطوطة الرواية علـى سـريري حيث اسـتلقيت على ظهـري، وعيناي مبحلقتـان في وجهي وقد عكسته مرايا خزانة الثياب ذات الأبواب الستة. بدا لي أن على وجهي تيبست ملامح دهشة صبيانية، شبيهة بتلك التي ارتسمت على وجهي حين أدركت على أي درب كنت أسـير كل تلك السـنين..كم أدهشني أن مسيري لم يكن إلا صوب العدم.

خـَاتِـمَة

براس بوك

"ليس ثمة معرفة مطلقة. وأولئك الذين يدّعون خلاف ذلك، يفتحون الباب على المأساة. فكل المعلومات منقوصة، غير كاملة، ويجب التعامل معها وتناولها بتواضع"

جاكوب برونوفسكي

شبّ في إحدى غرف فندق "ريجينا" بالعاصمة
حريق مهول يخلف
قتيلا وجريحا في حالة خطيرة

شب، ليلة أول أمس، بواحد من أقدم فنادق الجزائر العاصمة حريق أودى بحياة نزيلة في العقد الثالث يرجّح أنها كانت حاملا بحسب شهادة مسيّر فندق ريجينا والذي أكد بالمناسبة أنها كانت تقيم في الفندق وزوجها المدعو رضا خباد منذ أزيد من أربع سنوات.

وقال نفس المتحدث أن الحريق أتى على الغرفة رقم 142 التي يقيم فيها الزوجان بعد منتصف الليل، مخلّفا مقتل الزوجة جميلة بوراس وزوجها الذي أصيب بحروق خطيرة نقل على إثرها إلى مستشفى الدويرة المتخصص في مثل هذه الإصابات.

في نفس السياق، أكد مصدر أمني رفض الكشف عن اسمه، على أن مصالح الأمن بمجرد انتقالها إلى عين المكان فتحت تحقيقا سيكشف عن ملابسات الحريق، مؤكدا أن ثمة قرائن ترجّح أن الحريق من فعل فاعل، وهو نفس ما أكده تقرير مصالح الحماية المدنية التي تكفلت بإخماد النيران، والذي حصلت الوكالة على نسخة منه. حيث جاء في التقرير أنه عثر بالغرفة على مخلفات تجعل من فرضية الحادث أمرا مستحيلا، وبهذا أخطرت الجهات المخولة بالتحقيق.

الوكالات

رفض فرضية أن يكون قريبه "رضا خباد" المتسبب في قتل زوجته
مسيّر فندق ريجينا يؤكد: "رضا ابن خالتي ولأخلاقه منحته الغرفة بالمجان"

في حديث خاص قال السيد طارق هاشمي مسير فندق ريجينا أن ما تروّج له صحافة الفضائح بخصوص قريبه رضا خباد لا أساس له من الصحة. مستبعدا مسؤولية قريبه الذي أشاد بأخلاقه عن الحريق: "رضا ابن خالتي وأعرفه منذ الطفولة. ولأنني أعرف أخلاقه جيّدا سمحت له بالإقامة في فندقي من دون مقابل محاولة مني لمساعدته في ما يعانيه من مشاكل مادية بدأت منذ طرده من عمله قبل سنوات".

وقال السيّد هاشمي أن جميع من عرف ابن خالته يشهد له بالأخلاق وحسن السيرة "اسألوا عنه الجميع، إنه ابن عائلة وصاحب أخلاق ولا يمكن أن يقوم بعمل مجنون كالذي يتهمونه به".

وكانت إحدى الجرائد المحلية نشرت ما نسبته إلى مصدر أمني موثوق، أن التحقيق يحوم حول رضا خباد على اعتبار أنه بمجرد خروجه من الانعاش اعترف لأحد أطبائه المشرفين على علاجه أنه من تسبب في الحريق وأنه بذلك قتل زوجته جميلة وجنينها الذي بحسبه كان ذكرا، قرر سابقا وزوجته المتوفاة تسميته نور الدين تيّمنا باسم أحد أشقائه.

ونقلت نفس الجريدة أن بحوزتها تقرير المعمل الجنائي الذي انتهى إلى أن الحريق اندلع بسبب حرق مجموعة من الأوراق داخل الغرفة رقم 142 بفندق ريجينا، ما تسبب في انتشار النيران في كامل الغرفة. وجاء في نفس التقرير أن معاينة موقع الجريمة أكدت للمحققين نشوب عراك بين الزوجين قبيل اندلاع الحريق، وهو ما تؤكده مجموعة الأشياء المكسورة

ووضعية بعض أثاث الغرفة.

وفي سياق متصل. قال السيد هاشمي في نهاية اتصالنا به، أن قريبه رضا خباد نقل بعد تماثله للشفاء جراء الحروق التي أصيب بها إلى مستشفى "دريد حسين" للأمراض العقلية والعصبية بسبب انهيار عصبي حاد أصيب به بعد أن تناهي إليه خبر وفاة زوجته وجنينها. وأكد نفس المتحدث أن حروق ابن خالته تسببت في فقدانه لعينه اليمنى، مستبعدا إمكانية شفائها.

الوكالات

في تداعيات قضية حريق فندق ريجينا،
مصدر قضائي يؤكد:
"خباد استفاد من انتفاء وجه الدعوى
ولا مجال لاتهامه بأيّ شيء"

أكد مصدر قضائي من محكمة سيدي امحمد بالجزائر العاصمة، أن قاضي التحقيق المكلف بقضية الحريق الذي نشب منذ أشهر في فندق ريجينا، أخطر وكيل الجمهورية بأن التحقيقات أثبتت براءة رضا خباد من تهمة جناية الحرق المتعمد، مضيفا أن تقارير المصالح المعنية لم ترجح بأي نحو هذه التهمة.

وقال المتحدث أن الثابت في قضية الحال، أن الحريق تسبب فيه رضا خباد بشكل غير متعمد، حيث ثبت لدى المحققين أن المعني ليلة الواقعة قرر حرق مخطوطات كُتب كان قد ألفها في وقت سابق، كردة فعل نتيجة الشجار الذي وقع بينه وبين زوجته المتوفاة جميلة بوراس، والتي اتهمته قبلها بالتقاعس عن واجباته الزوجية في سبيل كتابة تلك المخطوطات.

وجاء في تسبيب قرار قاضي التحقيق الذي تحصلت الوكالة عن نسخة منه. أن المتهم كان يرزح تحت طائلة مشاكل مادية كبيرة إثر طرده من عمله منذ أربع سنوات وإقامته الدائمة من حينها في فندق ريجينا.

يذكر أن رضا خباد قد أودع مستشفى دريد حسين للأمراض العقلية إثر انهيار عصبي حاد أصابه منذ خروجه قبل أشهر من مستشفى الدويرة.

الوكالات

قالت إن موهبته لا غبار عليها، ناشرة لبنانية تصرّح:
"سنصدر روايات خباد مع الدخول الأدبي القادم"

قالت الناشـرة اللبنانية ليليا أنطون أن دار نشـرها حصلت أخيرا على حقوق نشـر روايات رضا خباد وتنوي إصدارها مع الدخول الأدبي القادم. ورغم أنها تحفظت عن ذكر عدد أو عناوين أعمال خباد، إلا أنها عبرت عن امتنانها للدكتور رزوق الطبيب المعالج للكاتب، والذي سـاهم بحسـبها في إقناع أهل الكاتب ببيع الحقوق للناشرة.

وكانت ليليا أنطون قد صرّحت قبل أشـهر أنها بدأت خطوات عملية للحصول على حقوق طبع ونشر بعض أعمال الكاتب، على اعتبار أنه سبق وراسـلها في هذا الشـأن منذ سـنوات، لكن خطة نشر دارها حينذاك لم تكن لتجعل الأمر ممكنا مرجأة التعامل مع الكاتب إلى فرص أخرى.

وقـال الدكتـور رزوق فـي حديث خصّ به الوكالة سينشـر لاحقا، أن سـعيه إلى نشـر أعمال مريضه خباد رضا كان بغرض تحقيق غايتين: إخراج أعمـال أدبيـة يعتقـد أنهـا متميزة للعلـن، وأيضا خدمة خطة عـلاج اقترحها عليه النفساني الأمريكي الشهير جون غودمان، والتي أسهب في شرحها في الحوار الذي سينشر على موقع الوكالة في الأيام القليلة القادمة.

الوكالات

الدكتور رزوق في حديث خاص يؤكد:
"لا يمكن لرضا خباد أن يشفى من مرضه"

أكـد الدكتـور رزوق، الطبيـب المعالـج للكاتب رضا خبـاد ، أنه فقد كل أمل في شـفاء مريضه الكاتب رضا خباد. مؤكدا أنه يأمل في أن يشـفى المريض بعد أن شرع هذا الأخير في كتابة ثلاث روايات متتالية لم يسبق له كتابتها سابقا والتي سيسدل عنها الستار في الأشهر القليلة القادمة مثلما قال.

وجـاء فـي حـوار مطوّل نشـر على عدد مـن المواقـع الإلكترونية، إن الكاتـب رضـا خبـاد ، أربعون عاما، كتب ثلاث روايـات حاول من خلالها الفـرار مـن واقعـه، خاصـة ما تعلق بما حـدث معه على إثـر فقدانه لزوجته جميلة بوراس وهي حامل، حيث تصور عالما يكون فيه روائيا مقتدرا اسمه "ريماس إيمي ساك"، وهو بحسب ما صرح به الدكتور رزوق اسم روائي آخر كتب بالمقلوب، أدرك متأخرا أنه صديق حميم له وهو "سمير قسيمي"، وفـي عالمـه الخيالـي ذاك، جعل من زوجته ابنة لهذا الروائي جمعتها علاقة غراميـة عابرة مع شـخص يحمل نفس اسـم الكاتب، لـم يوله أية أهمية في رواياتـه الثـلاث. الأمـر الذي اعتبـره الدكتور تعبيرا ضمنيـا من الكاتب عن احتقاره لنفسه وشعوره بالذنب تجاه زوجته المتوفاة. ومع ذلك، نسب إليه وإلى نفسـه ابنا أسـماه في رواياته "نور الدين"، علم لاحقا أنه الاسـم الذي كان ينوي الزوجان إعطاءه لجنينهما.

وقـال الدكتـور رزوق فـي نفس الحوار أنه تفاءل خيـرا مع كتابة رضا خبـاد لروايتيـه "المترجـم" و"الكفيـف يمكـن أن يـرى" لشـعوره أن خبـاد يحاول بطريقته أن يرجّح جانبه العاقل والواقعي، وذلك من خلال استغلاله لأشخاص حقيقيين من واقعه في هذين العملين، لكنه تفاجأ مع نهاية الرواية الثانية بتراجع خباد عن العودة إلى الواقع واكتفائه بعوالم يتماهى فيها الواقع

والمتخيل أو ما سماه الكاتب "عالم ما وراء المرايا".

وفي نفس السياق، اعترف الدكتور رزوق أنه أخطأ في خطته لشفاء الكاتب لأنه لم يلاحظ في مرحلة سابقة، مرحلة كتابة الرواية الثانية "المترجم"، أن مريضه لم يكن مستعدا لمواجهة شياطينه وفضل أن يبقى متواريا خلف خياله رغم تأكيد الدكتور أن خباد يعرف تفاصيل واقعه على نحو مؤلم، وهو ما تأكد منه حين جعل زوجته في روايته الثانية تموت بمرض السرطان، وهي كما نعلم ميتة مؤلمة تشبه ميتة الاحتراق. وتأكد له الأمر حين كتب مريضه يصف ألم الاحتراق في روايته الثالثة.

وفي سؤال عن سبب إطلاق الكاتب اسم "ثلاثون" على مقهاه الخيالية، أجاب الدكتور رزوق أن لذلك سببا واحدا في اعتقاده، فزوجته وقت وفاتها كانت قد بلغت الثلاثين من العمر، وكأنه أراد أن يقول أن نهاية حياته والحياة الإبداعية لروائيّه المتخيل "إيمي ساك" انتهت عند هذا العدد. وفي هذا السياق، قال الدكتور أن جميع التواريخ والأرقام المذكورة في أعماله كان لها دلالات معينة، فمثلا رقم أربعة الدال على عمر عقم "ريماس إيمي ساك" – أربعة أعوام – كان يدل على عقم حياته منذ طرد من عمله وأقام مع زوجته في فندق ريجينا، وكأنه بداية لعد عكسي غايته الموت.

وفي حديثه عن الأساليب التي اتبعها لعلاج الكاتب رضا خباد ، قال الدكتور رزوق، أن الطريقة المثلى كانت محاولة جعل الكاتب يواجه شياطينه على حدّ تعبيره، وكان قد حاول ذلك عديد المرات ولم يفلح، إلى أن راسل النفساني الأمريكي الشهير "جون غودمان" ونصحه هذا الأخير بأن لا يحاول إخراج خباد من متخيله عنوة، وأن أحسن طريقة لترجيح جانبه العاقل هو سحبه بهدوء من خيالاته. وكانت الطريقة الوحيدة لذلك دخول المعالِج عوالم المريض بأية طريقة. وهذا ما فعله الدكتور رزوق حين كلّف إحدى النفسانيات بإجراء حوار معه، مدّعية أنها صحفية وجاءت لتحاوره بخصوص اتهامه بالسرقة الأدبية. وكاد الأمر أن ينجح لولا أنه تفاجأ لاحقا بمخطوطة "شبه كتاب" بقلم رضا خباد عَنوَنها "حوار غير ودّي مع كاتب لا

يعرفه أحد"، والأدهى أنه صنع مقدمة للكتاب تقمص فيها شخصية "سمير قسمي" وحاول من خلالها ومن خلال القصة التي حبكها أن يدّعي أن روايته حقيقية.

وفي نهاية الحديث، اعترف الدكتور رزوق بعجزه عن شفاء الكاتب مصرّحا: "يمكنني أن أقول اليوم بكل أسف إنني لا أعتقد بوجود طريقة لشفاء خباد.. هذا المريض أعجزني لأنه لا يكف عن الحلم، أخبروني كيف يمكن لواقع مهما كان رائعا أن يرضي الرجل الحالم؟". وأضاف بحسرة: "حالة رضا خباد المرضية جعلتني كلما خلوت بنفسي أعيد طرح أسئلة حسبتُ أنني أجبت عليها سابقا، ومع ذلك وبالرغم من كل ترددي، أجد لها أنصاف أجوبة في النهاية ، إلا سؤالا واحدا لا أعرف إن كنت سأجد له إجابة لاحقا: هل يستحق الحلم؟!".

تمّت

شكر

أودّ أن أتقدم بالشّكر أولاً إلى زوجتي التي منحتني من وقتها ما جعلني قادراً على كتابة هذه الرواية في أجل لم أكن لأحلم به. وعلى جهودها المضنية في تقفي عثراتي في المسودة الأولى من هذا العمل.

كما لا يسعني إلا أن أسحب قبعتي للشاعر خالد بن صالح والروائي محمد جعفر والصديق "المواطن" على رحالية تقديراً لجهدهم في قراءة هذا العمل منذ فصوله الأولى وتتبعه إلى حين انتهائه.

والشكر الجزيل لجميع من ساهم من قريب أو من بعيد في جعل هذا العمل ممكناً. وأخصّ بالذّكر: أمير تاج السر، أمين الزاوي، أسيا موساي، أحمد مجدي همام، بشير مفتي، ليندة لوناس، الطيب سعد الله، سيد مراد، لميس سعيدي وجميلة بن ديب.

لكل هؤلاء شكراً مرة أخرى

للتواصل مع الكاتب بخصوص هذه الرواية:

alhalime@gmail.com